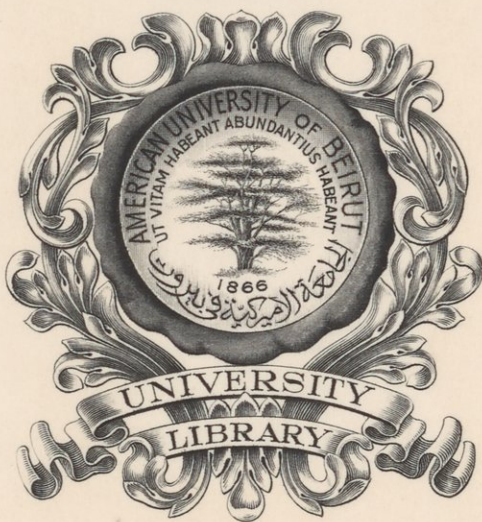


AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



محمد كامل حسن

892.709

Ha3937FA

في الأدب المصري للإسلامي

من الفتح الإسلامي إلى دخول الفاطميين

Cat. July 1950

69245

١٩٣٩ م



Заведующий библиотекой

И. И. Мухоморов

1900

1901

1902

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

ظل الأدب المصرى الإسلامى غامضاً مجهولاً لا يعنى به أحد ورغب عنه مؤرخو الآداب والآباء اعتقاداً منهم أن ما خلقته مصر الإسلامية من أدب غث لا قيمة له ، وأن مصر حرمت من وجوه الكتاب وفحول الشعراء ، ولم تساهم فى الحياة الأدبية العربية بقدر ما ساهم به غيرها من الأقطار الإسلامية. وبهذه العقيدة أهملت دراسة الحياة الأدبية فى مصر الإسلامية.

حتى كان الجيل الحاضر الذى أخذ فيه المصريون يعنون بمخلفات سلفهم ، واجتمعت كلمتهم على البحث والتنقيب عن مدينة مصر فى مختلف عصورها ؛ ونادى الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين بك عميد كلية الآداب بإنشاء كرسى للأدب المصرى الإسلامى بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ؛ للعمل على كشف دفائن الأدب المصرى الذى لم يدرس إلى الآن . سمعت من الأستاذ الجليل هذا النداء عام ١٩٣٠ فلبيت نداءه وقبلت مشورته ، وتملكتنى فكرتان : الأولى أنى مصرىّ وعلىّ واجبات نحو بلادى وهى أن أعمل على ما يعزها ويرفع من شأنها ، والثانية أن هذا الموضوع لم يبحث إلى الآن بحثاً علمياً دقيقاً . فسعيت لهذا البحث تدفعنى رغبة شديدة فى تحقيقه وسرعان ما وجدت نفسى أمام حياة أدبية مزدهرة لا تقل كثيراً عن

حياة الأقطار الأخرى ؛ ولسوء حظ مصر فقد جل معالم هذه الحياة ولم يبق منها إلا النزر اليسير .

ووجدت ظاهرة غريبة هي أن كثيراً من أدباء المسلمين ومؤرخيهم عنوا بمصر عناية خاصة ؛ فالصولي وضع كتاباً في شعراء مصر .^(١) والواقدي وابن إسحق الأُموي وغيرهما كتبوا في « فتوح مصر » ، وزار المسعودي مصر فوصفها في كتابيه « مروج الذهب » و « التنبيه والإشراف » كما غنى كثير من المصريين بتاريخ بلدهم ووضعوا مجلدات عنها دون غيرها وقد رجع المسعودي إلى بعضها مثل « فتوح مصر لابن عبد الحكم » و « كتاب الأجواد لمحمد بن زكريا الغلابي » ، وعمار بن وسيمة المصري وعيسى بن طليعة المصري^(٢) وغيرهم . وإذا بحثنا عن سبب عناية المسلمين بمصر وجدنا أن أكبر دافع لهم على ذلك ورود هذه الآيات القرآنية الكريمة التي أنزلت عن مصر وهذه الأحاديث النبوية الشريفة التي ورد فيها ذكر مصر والمصريين ، ثم لما روى عن مصر وملوكها وثروتها وعجائبها ؛ كل هذه جعلت المسلمين يتطلعون إلى مصر وأن يكتبوا عنها ما كتبوا .

وكانت مصر من الناحية العلمية مورداً للجمهور والمحدثين وعلماء الفقه وفقه الشافعي ومالك على الأخص ؛ وعن محدثي مصر روى البخاري ومسلم والنسائي وغيرهم ، وعن نخبة مصر أخذ علماء المغرب . فالحياة العقلية في مصر كانت قوية عظيمة النشاط والنتاج مما يضطرني إلى أن أقول إن دراسة الأدب المصري الإسلامي تحتاج إلى جهود متضافرة

(١) معجم الأدباء لياقوت ، ج ٢ ، ص ٥ (طبعة مرجوليوت)

(٢) مروج الذهب للمسعودي ، ج ١ ، ص ٤ (طبعة بولاق)

حتى ينجلي ما غمض منه ؛ وهذا العصر الذى أؤرخه فى هذا البحث — من الفتح الاسلامى إلى دخول الفاطميين — شديد الظلمة عليه ستار كفيف من الغموض والايهام شأنه فى ذلك شأن كل بلد فى دور الانقلاب والتطور من حال إلى حال ، ولعل مصر لم تشاهد انتقالا وتطوراً كهذا الذى شاهده فى هذا العصر ؛ فبعد أن كانت مسيحية الدين أصبحت اسلامية ، أضف إلى ذلك ما كان من دخول عناصر كثيرة من العرب تمصرت وسكان من مصر تعربوا ؛ وكون الجميع شعباً واحداً هو الشعب المصرى الإسلامى الذى سنتحدث عن علومه وآدابه .

أتممت هذا البحث فى عام ١٩٣٤ وتقدمت به إلى كلية الآداب بجامعة فواد الأول فتمت درجة الماجستير « بمرتبة الشرف » عام ١٩٣٥ ، ثم بدا لى أن أحذف بعض فصول منه وأن أضيف إليه فصولاً أخرى ، وأن أغير بعض آراء اضطررت إلى تغييرها بعد قراءة مصادر أخرى لم أكن اطلعت عليها . فهذا الكتاب يختلف الآن تمام الاختلاف عن البحث القديم ، وأرجو أن أكون وفقت فى هذا البحث .

(وبعد) فأرى حقاً على أن أسجل جزيل شكرى لحضرات أساتذتى الأجلاء : الدكتور طه حسين بك ، واحمد امين ، وعبد الحميد العبادى ، والدكتور عبد الوهاب عزام ، وامين الخولى . فقد قرأوا هذا البحث واستعنت بآرائهم فى كثير من المشكلات التى واجهتنى فأنا مدين لهم بذلك .

محمد كامل حسين

الباب الأول

تطور الآداب واللغة في مصر

١ - الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي

اضمحلت مدرسة الاسكندرية في عصر الرومان ، لفساد الحكومة بمصر ، وللاضطهاد الذي لحقها من الرومانيين لاسيما بعد أن انتشرت الديانة المسيحية في البلاد ، ثم لظهور مدارس أخرى في سوريا ورومه وغيرهما مما جعل رجال العلم يهربون من الظلم الذي لحق كل المصريين فخسرت مدرسة الاسكندرية بعض عناصرها الأساسية ، ثم إن كثرة الجدل بين المسيحيين والوثنيين جعل كل فريق ينتصر لدينه ويعمل على رفع شأنه ، فقد هال المدرسة الوثنية ما رأتها من سرعة انتشار الدين المسيحي في مصر فجدد ذلك روح النشاط عندها ، فكانت خزائن الوثنيين بالاسكندرية في ذلك الوقت تحوى نسخاً من مؤلفات اليونانيين والمصريين ، ومع ذلك سعوا إلى تضخيم عدد كتبهم بالنسخ والتأليف ، فخصص قسم من النساخ لكتابة ما يمليه عليهم المؤلفون ونسخ فريق آخر ما أمكن العثور عليه من كتب القدماء (١) . ولكن لم تدم هذه الحال طويلاً إذ ظل الدين المسيحي والوثني يكيد كل لصاحبه ، فهدم معابده ومدارسه وحرق كتبه وعيث بها حتى إذا كان عام

(١) تاريخ الأمة القبطية (طبعة مصر سنة ١٩٠٠) ص ٥٨ وما بعدها

إحدى وتسعين وثلاثمائة لليلاد انقضض المسيحيون بقيادة ثيوفيلس على السرايوم حيث جامعة الاسكندرية ومكتبتها فخطموا كل شيء في طريقهم لأنهم كانوا يرون أن المدرسة وما بها من كتب مظهر من مظاهر الوثنية، فأداهم تعصبهم الديني إلى هدم المدرسة والعبث بكتبها.

واتجهت مدرسة الاسكندرية الى اتجاه آخر أى إلى العلوم العقلية فكانت الاسكندرية خير ميدان للأبحاث الفلسفية والدينية فتأثرت الفلسفة بالدين والدين بالفلسفة، واضطر رجال الدين المسيحي إلى أن يستعينوا بالفلسفة والمنطق في جدالهم الطائفي وجدالهم مع الوثنيين، كما اختلطت الديانة اليهودية بالتعاليم اليونانية فأدى ذلك لمزج إلى ظهور نوع جديد من الفلسفة ازداد بانتشار المسيحية فاستخرجوا العقائد الدينية والنظم الفلسفية التي بلغت الذروة في مذاهب الغنوسية والأفلاطونية الحديثة ويهودية فيلون^(١)

وسرعان ما انتشرت تعاليم مدرسة الاسكندرية الحديثة ورحل علماءها إلى أقطار الامبراطورية الرومانية يدعون إلى مبادئها كما هاجر إلى الاسكندرية عدد من المسيحيين الذين شغفوا بما فيها من دروس الفلسفة إذ كانت الاسكندرية أكبر موطن للفلاسفة والمفكرين^(٢) ومصر وإن كان زمامها بيد الرومان، فإننا نجد لغة العلم والمتعلمين بها هي اللغة اليونانية التي استطاعت أن تحيا وتحفظ لنفسها بالمكانة الأولى

(١) فجر الاسلام للاستاذ أحمد أمين ص ١٥١ (الطبعة الأولى)

(٢) Milne: A History of Egypt Under Roman Rule. (London. 1913) p.15

في مصر ، وسارت جنباً إلى جنب بجوار اللغة المصرية ، بل نرى اللغة اليونانية تؤثر في اللغة المصرية تأثيراً قوياً يظهر في استعمال المصريين للحروف اليونانية والألفاظ اليونانية الكثيرة التي نجدها في اللغة القبطية . كذلك كانت اللغة اليونانية هي اللغة الرسمية بمصر^(١) ، وتقول مدام بوتشر إن الوالى الرومانى كان يصدر نشرات للأهالى يصف فيها حكمه للبلاد وهذه النشرات كانت تكتب باليونانية ، كما كان الولاة الرومانيون يفخمون أنفسهم ويعظمونها بأن يضيفوا لقباً يونانياً إلى أسمائهم^(٢) وهذا دليل واضح على أن اللغة اللاتينية والآداب اللاتينية لم تنتشر بين المصريين في حين أن الآداب اليونانية واللغة اليونانية كانت قوية منتشرة بين المثقفين في البلاد ، حتى اضطر الوالى الرومانى إلى أن يصطنع كتباً يأخذون اليونانية . وكان لبعض هؤلاء الكتاب مؤلفات باليونانية أمثال لوسيانوس صاحب محاورات الموتى^(٣) كما كان بمصر شعراء ينشدون أشعارهم باليونانية بل نراهم قد حاولوا السير في أشعارهم على نهج شعراء اليونان ، فمنهم من حاكى هوميروس وقال شعراً على نمط الإلياذة ، كما وضع اخيلوس تاتيوس وهو من شعراء مصر في القرن الرابع الميلادى عدة روايات خيالية ممتعة^(٤) ، ومن شعراء مصر في القرن الخامس الميلادى سيروس الإخميمى فقد شغف بالشعر وإنشاده

Quatremère : Recherches sur la Langue et la Litterature de (١)

l'Egypt "Paris 1808" p. 5

Butcher : The Story of the Church of Egypt "London 1897" (٢)

V. I. P. 356

(٣) تاريخ الامة القبطية ص ٨٠

(٤) » » » ص ٢٣٤

وكان صديقاً لا يندوشيا زوج الامبراطور ثيودوسيوس الثانى وتقلب فى مناصب الدولة إلى أن صار قائد الجيش المصرى ولاكنه اعتزل العمل ورغب فى خدمة الدين المسيحى فعين أسقفاً لإحدى الكنائس (١). وفى القرن السادس الميلادى ظهر شاعر مصرى من طيبة يدعى كريستودورس ولا تزال قصائده مسطورة فى الكتاب الخامس من منتخبات الأشعار اليونانية . ويقال إن هذا الشاعر وجد صعوبات جمّة فى نسخ أشعاره وترتيبها (٢). ومن اشتهر بالعلوم بمصر فى ذلك الوقت عالم مصرى اسمه ديسقوريدس وضع كتاباً فى علم النبات وحلاه بكثير من الصور والنقوش ولا يزال هذا الكتاب محفوظاً فى مكتبة فينا إلى الآن (٣)

بجانب هذه الآداب اليونانية كان مصر آداب سريانية إذ كان لهضة الفرس فى القرن السابع الميلادى وغزوهم لبلاد الشام أثر فى ازدياد ذخيرة الاسكندرية وزيادة الآداب السريانية بها ، فقد هاجر كثير من علماء السريان إلى مصر حيث نشروا آدابهم ، ونقلوا إلى مصر كتبهم وتعاليمهم ، وكان نظام الرهبنة قائماً فى مصر ، وفى كل دير مكتبته وتلاميذه يعكفون على الدرس والتحصيل ، فنقلت هذه الآداب السريانية إلى الأديرة لاسيما فى دير السريان بوادى النطرون ، كما كانت تدرس علوم الطب فى القرنين السادس والسابع باللغة السريانية . وفى القرن السابع قام بولس اسقف بلا بترجمة نسخة الترجمة السبعينية من

(١) ييوتشر ، ج ٢ ، ص ٩

(٢) ييوتشر ، ج ٢ ، ص ٧٩

(٣) ييوتشر ، ج ٢ ، ص ٥

الكتاب المقدس إلى اللغة السريانية وظلت هذه الترجمة في وادى
النظرون حوالى ألف سنة وهى الآن بالمتحف البريطانى (١) وكتب
أهرون القس Aaron مقالاته الطبية التى يجمعها كتاب «كناش فى الطب»
باللغة السريانية؛ وترجم هذا الكتاب إلى العربية ماسرجويه بأمر الخليفة
عمر بن عبد العزيز فكان هذا الكتاب من المراجع الهامة للعرب فى علم
الطب. كذلك كانت تدرس الآداب السريانية بالاسكندرية والأديرة
المختلفة التى امتلأت بها صحارى مصر. ويحدثنا المؤرخون عن الطبيب
سرجيوس من رجال القرن السادس الميلادى فقد أتقن العلوم والآداب
السريانية كمغيره من الأطباء (٢).

لم تقتصر الآداب فى مصر قبل الفتح على الآداب اليونانية والسريانية
فحسب، بل نجد رجال الدين المسيحي بمصر يكتبون مقالاتهم الدينية
باللغة القبطية التى صارت لغة الدين فى مصر وبطل استعمال اللغة
اليونانية فى الكنائس والمجتمعات على نحو ما سنذكر بعد فقد ارتقت
اللغة القبطية وصار مسيحيو مصر يصلون فى كنائسهم بلغتهم، وقام
جماعة من الرهبان بترجمة ونسخ كثير من الكتب والأسفار؛ منها
ترجمة العهد الجديد إلى ثلاث اللهجات القبطية وترجموا جميع
الطقوس الدينية كما كتبوا تراجم البطارقة والشهداء وألفوا كتباً فى
التاريخ العام (٣) ولم يبق لنا من هذا كله إلا النزر اليسير. ولعل أهم هذه

(١) تاريخ الأمة القبطية طبع مصر سنة ١٩٠٠ ص ٦٧

(٢) Butler : The Arab conquest of Egypt p. 93

(٣) تاريخ الامة القبطية لبيوتشر، ج ٢، ص ١٧

الكتب كتاب تاريخ وضعه يوحنا النيقوسى كتبه فى أواخر القرن السابع الميلادى فقد شاهد هذا الرجل الفتح العربى وكتب عنه، ويعتبر كتابه من أقوم المصادر التاريخية عن دخول العرب مصر. ولم يبق من هذا الكتاب إلا الترجمة الحبشية لجزء منه.

ومع ذلك كله لم تكن الحركة الأدبية القبطية على درجة كبيرة من الرقى. يقول الاستاذ بتلر «لا يستطيع الأقباط أن يفخروا بشعراء مجيدين أو مؤرخين معروفين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم فجل آدابهم دينية لقلة ما كان لديهم من بيان وعلم، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها فى العالم، مع أنه لا تكاد توجد لغة أقدم من لغتهم أو أغرب منها أو ذات تاريخ أعجب من تاريخها»^(١)

وهذا صحيح إلى حد ما إذ أن المصريين عنوا بالدين فقط، ويخيل إلى أن العقيدة الدينية بمصر تتمشى فى عروق المصريين منذ القدم فأثار قدماء المصريين التى نراها الآن ماهى إلا مظهر من مظاهر دياناتهم المختلفة فهم لم يبنوا الأهرام والمعابد، ولم يضعوا الحلى والأوانى فى القبور ولم ينقشوا القبور بهذه النقوش الزاهية، بل هم لم يتقنوا السحر والطب والتنجيم وغيرها من العلوم إلا من أجل الدين. فدينية قدماء المصريين مدنية فنية ولكنها دينية قبل كل شىء بخلاف الحضارة اليونانية القديمة التى كانت أدبية فلسفية، وفى مصر التقت الحضارتان فامتزجتا وظل المصريون يميلون إلى الدين وما يتعلق به وتركوا العلوم الفلسفية إلى من وقد على بلادهم، ثم ان المذهب اليعقوبى لم يواجه

من المعضلات الدينية ما واجهه المذهب النسطورى فى أسيا مثلاً ، لهذا نرى النساطرة ينقلون الكتب الفلسفية والعلمية والدينية إلى السريانية ولا نجد هذه الترجمة عند اليعاقبة المصريين ، فلا غرابة اذا وجدنا المدرسة الفلسفية الوثنية بالاسكندرية تتقهقر ويزول أمرها فى القرن الخامس الميلادى فى حين قويت المدرسة اللاهوتية .

فتتح العرب مصر سنة ٢٠ هجرية (على خلاف فى هذا التاريخ) فضعفت الآداب اليونانية واللغة اليونانية وظلت الآداب القبطية واللغة القبطية حتى إذا كان القرن العاشر الميلادى أى الرابع الهجرى نجد الأسقف سويرس بن المقفع ، وكان من رجال الدين فى هذا القرن يقول « استعنت بمن أعلم استحقاقهم من الأخوة المسيحيين وسألتهم نقل ما وجدناه منها (أى من سير الآباء المسيحيين) بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو الآن معروف عند أهل الزمان بأقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم » (١) ولكن لم تمح اللغة القبطية واللغة اليونانية دفعة واحدة بل قل استعملهما وحلت محلها اللغة العربية والآداب العربية — ويدلنا على أن هذه الآداب اليونانية والقبطية ظلت إلى ما بعد الفتح ما حدثنا به ابن النديم فى كلامه عن خالد بن يزيد بن معاوية قال : « وأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانية ممن كان ينزل مدينة مصر وقد تفصح بالعربية وأمرهم بنقل الكتب فى الصنعة واللسان من اليونانى والقبطى إلى العربى وهذا أول نقل كان فى الاسلام من لغة إلى لغة » (٢) كما كان فى كل كنيسة كتاب باللغة

(١) سير الآباء البطارقة لابن المقفع طبع بيروت ص ٦

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٢٣٨ (طبع المطبعة الرحمانية)

القبضية في حياة الآباء يقرؤه القسس كل صباح ولا يسمح لأى انسان أن يقتنيه وقد ترجم إلى العربية أمثال هذه الكتب وكذلك القصص التى فى آخرها (١)

استطاعت اللغة العربية والآداب العربية أن تغزو مصر كما غزاها العرب ، وأن تستقر بمصر كما استقر بها العرب ، واضطر المصريون إلى أن يحدقوا العربية فلم يمض إلا وقت يسير حتى رأينا الآباء البطارقة يؤلفون كتبهم بالعربية مثل ابن البطريق رئيس الكنييسة فى الاسكندرية فى القرن العاشر الميلادى صاحب « نظم الجوهر » فى التاريخ العام ، وسويرس بن المقفع صاحب « سير الآباء البطارقة » وغيرهما .

أما مدرسة اللاهوت بالاسكندرية مبعث الآداب والعلوم فى العالم فظلت تخرج العلماء وإليها كان يفد العلماء بعد الفتح ، وفى سنة ثمانين وستائة ميلادية رحل إليها يعقوب الرهاوى لاتمام دراسة الآداب اليونانية والسريانية ، ويقول بترل « ومن الثابت أن الاسكندرية كانت مركز الثقافة والآداب فى العالم فى هذا الوقت (أى زمن الفتح) ومع ان أكثر العلوم بها كانت دينية نجد انجاها وعناية بالآداب القديمة إذ كتبت موضوعات كثيرة عن الأخلاق المسيحية المبنية على الأفلاطونية الحديثة » (٢) . ولكن أصاب مدرسة الاسكندرية شىء من الضعف منذ أوائل أيام العرب ، وفاقتها مدارس انطاكية وحران وجند يسابور وغيرها مع استمرار دراسة الآداب القديمة والآداب الدينية بأديرة مصر ومدرسة الاسكندرية ولست أدري كيف يقول

(١) Butler : The ancient Coptic Churches of Egypt p. 259

(٢) Butler : The Arab Conquest of Egypt p. 96,

ابن أبى أصيبعة «وظلت مدرسة الاسكندرية مركز التدريس في الشرق إلى أواخر القرن الأول حتى نقله عمر بن عبد العزيز إلى مدرسة انطاكية»^(١).

فإننا نعلم ان مدرسة الاسكندرية ظلت بعد الفتح العربى طويلا واتصل بها المسلمون فى العهد الأموى فاضطفئ الاسكندارى يترجم كتاباً لخالد بن يزيد، وابن ابجر الطبيب الاسكندرى يعتمد عليه عمر بن عبد العزيز فى صناعة الطب، وعند ما مرضت جارية للرشيد أرسل فى طلب طبيب مصرى هو بليطان بطريق الاسكندرية وفى أيام احمد بن طولون نجد سعيد بن توفيل يطينه^(٢) كما كان لمدرسة الاسكندرية أثر فى العرب لاسيما فى علم الطب الذى ظهر عند العرب مشبعاً بتعاليم الاسكندر بين فظلت هذه العوامل شديدة الأثر فى ما أخرج فى الطب من المؤلفات العربية . كما كانت مؤلفات بولس الايجينى Paul of Aeginae - وكان فى الاسكندرية أيام الفتح العربى - مما يعتمد عليها طوال العصر العربى كذلك كانت مدرسة الاسكندرية النواة التى استمد منها العرب علم الكيمياء أو كما يقول كتاب العرب علم الصنعة فكل من تحدث عن هذا العلم يذكر مصر ومآثرها على من اشتغل به ، ويكفى أن نذكر ما جاء فى الفهرست « قال ابن اسحق : والكتب المؤلفة فى هذا الشأن (أى الصنعة) أكثر وأعظم من أن تحصى ، لأن المؤلفين لها تنحلوها عنهم . ولأهل مصر فى هذا الأمر مصنفون وعلماء ، وأصل الكلام فى

(١) عيون الانباء ، ج ١ ص ١١٦

(٢) ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين ، ج ١ ص ٢٦٢

الصنعة من ثم أخذوها» (١) وظل هذا العلم بمصر طويلاً بعد الفتح وشغف به كثير من المسلمين. وقد رأينا كيف اعتمد خالد بن يزيد على بعض المصريين ليترجموا له كتب الصنعة كما قيل إن ذا النون المصري كان له أثر في الصنعة وأنه ألف كتاب الثقة في الصنعة (٢)

ولا ندري تماماً مبلغ هذا القول من الصحة فإن عثمان بن سويد الإخميمي وضع كتاباً سماه « صرف التوهم عن ذى النون المصري » (٣) ولكن الكتاب فقد ، ولا أعلم أكان هذا المؤلف وضع كتابه في الرد على من قال إن ذا النون اشتغل بهذه العلوم أم لا .

ومع ذلك نقول إن مدرسة الاسكندرية ضعف أمرها أيام العرب وقلت شهرتها وأخذت الآداب اليونانية والقبطية تتقهقر. فالآداب بمصر قبل الفتح كانت قليلة مصطبغة بالصبغة الدينية بحكم ذلك النزاع الطائفي الذي كان بين المسيحيين وسيطرت المذاهب الطائفية على عقول الناس وتفكيرهم ، بل تحكمت في أخلاقهم وسلوكهم ، وهذا الانقسام في الرأي والعقيدة كان من العوامل التي ساعدت العرب على فتح مصر .

مكتبة الاسكندرية

ذكر بعض المؤرخين أمثال عبد اللطيف البغدادي في كتاب الافادة والاعتبار (٤) والقفطي في إخبار العلماء بأخبار الحكماء وابن العبري ، وتبعهم المرحوم جورجى زيدان : أن عمرو بن العاص

(١) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٧

(٢) الفهرست لابن النديم ص ٥٠٤

(٣) الفهرست ص ٥٠٥

(٤) الافادة والاعتبار ص ٢٨

قد أحرق مكتبة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر بن الخطاب وقد ناقش ذلك كثير من العلماء وارتابوا في هذا الأمر ، ومن يرجع إلى كتاب الأستاذ بتلر الذى ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد فريد أبو حديد يجد فصلاً خاصاً به — هذا الموضوع ، وفيه نفى بتلر نسبة إحراق مكتبة الاسكندرية لعمر بن العاص وأظن أنه لا داعى لنقل ما كتبه المؤرخون أمثال جيبون وغوستاف لوبون وغيرهما إذ كادوا يجمعون على أن هذه خرافة .

٢ — قبائل العرب بمصر

اتصلت مصر ببلاد العرب قبل الإسلام اتصالاً تجارياً^(١) ، « إذ نقل العرب غلات بلادهم إلى البلاد الأخرى وكانت القوافل أول ما تنزل في البلاد الرومانية تنزل في أيلة ، وهى المعروفة اليوم بالعقبة »^(٢) . والمؤرخون يحدثننا عن كثير من العرب حضروا إلى مصر قبل الإسلام ويذكرون منهم عمرو بن العاص — وكذلك سافر المصريون إلى البلاد العربية إما لأسباب تجارية أو أسباب علمية كالذى قيل إن التاجر المصرى قزمان الذى أولع بالسياحة سافر فى القرن السادس الميلادى إلى بلاد العرب ومنها إلى بلاد الهند ووضع مؤلفاً لأحوال هذه البلاد التى زارها^(٣) .

(١) محاضرات الأستاذ نللينو فى تاريخ بلاد العرب الجنوبية .

(٢) فجر الاسلام ، الطبعة الأولى ، ص ١٦ .

(٣) Butler : The Arab Conquest A Egypt, P. 102

ولما بُعث النبي صلى الله عليه وسلم ، أُرسل من قبله حاطب بن أبى بلتعة رسولا إلى المقوقس عظيم القبط فى مصر يدعوه إلى الإسلام فأكرم المقوقس الرسول وأرسل معه هدية إلى النبي عليه الصلاة والسلام تقبلها شاكرًا وأوصى بالقبط خيرا ، وروى عنه أنه قال : « استوصوا بالقبط خيرا فإن لهم ذمة ورحما » قال ابن كثير « والمراد بالرحم أنهم أخوال إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام ، أمه هاجر القبطية وهو والد عرب الحجاز الذين منهم النبي عليه الصلاة والسلام وأخوال إبراهيم ابن رسول الله وأمّه مارية القبطية من سنا كورة انصنا » (١) . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص « أهل مصر أكرم الأعاجم كلها ، وأسمحهم يدا ، وأفضلهم عنصرا ، وأقربهم رحما بالعرب عامة وبقریش خاصة » (٢) وكان بين الأقباط من صحب رسول الله (صلعم) كجبر بن عبد الله القبطى ، وروى السيوطى عن سعيد بن عفیر أنه قال « والقبط تفخر بأن منهم من صحب النبي (صلعم) » (٣) . وجاء ذكر مصر فى القرآن الكريم مرارا فلا غرو إذن أن نرى العرب يعرفون شيئا عن مصر ، فراحوا يستحدثون عنها ، ويخترعون الأحاديث الكثيرة عن عجائبها ، كما طمع العرب فى ثروة مصر ؛ لهذا بعد أن تم لهم فتح الشام ، جاء عمرو بن العاص إلى مصر ومعه عرب من قبائل مختلفة يقال إن أكثرهم من عك ولخم ، ويقال أيضا إن عددهم لم يزد عن أربعة آلاف نفس ، ثم اتبعه الزبير

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٢٩ (طبعة دار الكتب المصریه)

(٢) شرحه

(٣) حسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ١٠٩ .

ابن العوام بمدد قدر باثني عشر ألفاً، فلما تم لهم فتح مصر وبنى مسجد
الفسطاط أمر عمرو جنوده أن يختطوا حول المسجد الجامع كل بحسب
قبيلته؛ فمن القبائل التي اختطت بالفسطاط وأقامت بها: مهرة وتجب
ولخم وغسان وغافق^(١)، ومن بنى غافق بطن يعرفون بالقرافة سكنوا
سفح المقطم ثم تركوا أماكنهم وتفرقوا في البلاد المصرية، وصار
مكأنهم مقبرة المسلمين فسميت المقبرة في مصر بالقرافة نسبة إلى هؤلاء
القوم^(٢).

وكان مع عمرو جماعة العتقاء، وهم جماع من القبائل عرفوا بالصعاليك
كانوا يقطعون الطريق أيام النبي صلى الله عليه وسلم فبعث في طلبهم
وأتى بهم أسرى، فاعتقهم وكان بينهم كثير من طوائف الأزد وفهم^(٣)
كذلك شهد فتح مصر واختط بالفسطاط قوم من الفرس هم أبناء
جند باذان عامل كسرى على اليمن قبل الإيسلام، وأسلموا ورجعوا في
الجهاد فنفروا مع عمرو بن العاص إلى مصر^(٤). كما كان في جيش الفتح
جماعة من الشام عرفوا في مصر بالجرأاء انزول الروم بينهم، ولاكنهم
عرب من بلي (قضاة) وفهم وعدوان وبعض الأزد، وكانوا يسكنون
قيسارية وماحولها، ورجعوا في الإيسلام قبل واقعة اليرموك وساروا
مع عمرو إلى مصر، وسموا بالجرأاء لأن العرب اعتادوا أن يسموا
الموالي من الروم بهذا الاسم^(٥).

(١) خطط المقرئى، ج ٢، ص ٧٦ وما بعدها

(٢) ابن خلكان، ج ١، ص ٣٣٨

(٣) خطط المقرئى، ج ٢، ص ٨٨

(٤) خطط المقرئى، ج ٢، ص ٧٨

(٥) خطط المقرئى، ج ٢، ص ٧٩

واشترك في الفتح أيضا عدد من قبائل مختلفة : من قریش والأَنْصار
وخزاعة ومزينة وأشجع وجهينة وثقيف ودوس وليث عرفوا في مصر
باسم أهل الراية ، ونسبت الخطة إليهم لأنهم جماعة لم يكن لكل بطن
منهم من العدد ما ينفرد من الديوان (١)

أما همدان فلم يقبلوا أن يسكنوا في الفسطاط ، واختاروا الجيزة لهم
مقرآ ، وحاول عمرو أن يرجعهم إلى الفسطاط فلم يستطع ، فاضطر إلى أن
يخاطب الخليفة في شأنهم فكتب الخليفة إليه « كيف رضيت أن تفرق
أصحابك ولم يكن ينبغي لك أن ترضى لأحد من أصحابك أن يكون
بينك وبينهم بحر لا تدرى ما يفاؤهم ، فلعلك لا تقدر على غيائهم
حين ينزل بهم ما تكره ، فاجمعهم إليك ، فإن أبوا إليك وأعجبهم
موضعهم فابن عليه من فيء المسلمين حصنا » فبنى لهم عمرو بن العاص
الحصن بالجيزة ، وسكن مع همدان نافع وذو صبح وطائفة من الحجر
وبرزوا إلى أرض الحرث والزرع (٢)

وبعد أن تم فتح مصر نرى الخليفة عمر يكتب إلى عامل الشام
أن يسير ثلث من بالشام من قضاة إلى مصر ، فنظر الوالى فاذا « بلى »
تبادل ثلث قضاة فسيرهم إليها ، فانتشروا في البلاد سيما حول اخميم
وما يليها ، وتفرقت بلى بأرض مصر ثم اتفقت هى وجهينة فصار لها
من الشرق من عقبة قاو الخراب إلى عيذاب (القصير) (٣)

وكان عمر بن الخطاب يبعث كل عام غازية من أهل المدينة ترابط

(١) خطط المقرئى ، ج ٢ ص ٧٦

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى ، ج ١ ، ص ٨١

(٣) البيان والاعراب للمقرئى ، ص ٣٧ — ٣٨

(٤) حسن المحاضرة ص ٩٧

بالاسكندرية، وقسم عمرو بن العاص من معه، فكان يرسل ربع الناس يقيمون ستة أشهر في رباط الاسكندرية، والربع في السواحل والنصف يقيمون معه. ولم يخطط العرب بالاسكندرية كما اختطوا في القسطنطينية، بل كان بها أخاند، من أخذ منزلاً نزل فيه هو وبنو أبيه (١) فلما استقامت لهم البلاد قطع عمرو بن العاص من أصحابه لرباط الاسكندرية ربع الناس وكانت لحم أعز من في ناحية الاسكندرية

أخذ العرب يفتدون على مصر أفواجا حتى غصت بهم البلاد، وكان بين القبائل فضاء من القبيل إلى القبيل، فلما كثرت الأمداد في زمان عثمان بن عفان وما بعد ذلك، وكثر الناس وسع كل قوم لبنى أبيهم حتى كثر البنيان والتأم (٢). ولما ولي معاوية بن أبي سفيان زياد بن أبيه على البصرة، غرب جماعة من الأزد إلى مصر عام ثلاث وخمسين هجرية (٣) فنزل منهم نحو مائة وثلاثين. كما كتب معاوية إلى علقمة القطيفي عامل الاسكندرية «إني قد أمددتك بعشرة آلاف من أهل الشام وبخمسة آلاف من أهل المدينة» فكان في الاسكندرية سبعة وعشرون ألفاً (٤) كما كان بمصر في خلافة معاوية أربعون ألفاً (٥). وفي إمارة الوليد ابن رفاعة على مصر عام تسع ومائة (٦) نزل بنو سليم (وهم من قيس) — ولم يكن بأرض مصر أحد من قيس قبل ذلك إلا من كان من عدوان

(١) خطط المقرئ، ج ١، ص ٢٦٩

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم، ص ١٢٨

(٣) خطط المقرئ، ج ٢، ص ٧٨

(٤) حسن المحاضرة، ج ١، ص ٩٨

(٥) خطط المقرئ، ج ١، ص ١٥١

(٦) البيان والاعراب للمقرئ، ص ٣١

الذين أنزلهم عبد الله بن الحبحاب والى الخراج فى خلافة هشام بن عبد الملك — وكان عدد بنى سليم ثلاثة آلاف رجل ، فأنزلهم الحوف الشرقى وأمرهم بالزرع فاشترؤا إبلًا ، وكانوا يحملون الطعام إلى القلزم فأثروا ، ولما بلغ ذلك عامة قومهم تحمل إليهم خمسمائة أهل بيت من البادية ، فأقاموا سنة فأتاهم ألف وخمسمائة بيت من قيس ، حتى إذا كان زمن مروان بن محمد صار بمصر ثلاثة آلاف أهل بيت ، ثم زيدوا إلى خمسة آلاف ومائتين . ولكثرة القيسية بمصر وتجمعهم فى الحوف وثرأهم العظيم كانوا مصدر فتن وقلقل ، وكثيراً ما حاربوا الولاية . وكان يجاورهم فى الحوف جماعة من صلاح وطارق وهم من جذام ، ولذلك قامت الحروب الكثيرة بين القيسية واليمينية شأنهم فى ذلك شأن هاتين الطائفتين فى كل الأقطار الإسلامية .

وسكن بنو عقبة وهم من جذام أيضاً ما بين إبله وحوف مصر (١) كما ذهب قوم من جذام ولخم إلى الاسكندرية (٢) ، وكانت لهم هناك أيام معلومة ووقائع مشهورة سيما فى فتنة ابن الجروى . وكان كل أمير يتولى مصر يأتى إليها معه عدد من الجند العرب كى يقوى بهم وينصروه على الفتن التى فى البلاد ، فقد قيل إن حوثة الباهلى سار إلى مصر فى آلاف من العرب (٣) ولا أدرى تماماً من أى القبائل كان هؤلاء القوم ، وأكبر الظن أنهم من القيسية عشيرة الوالى .

وبصعيد مصر أولاد الكنز ، أصلهم من ربيعة وكانوا ينزلون اليمامة

(١) البيان والاعراب للمقرئى ، ص ٣١

(٢) البيان والاعراب للمقرئى ، ص ٣٥

(٣) خطط المقرئى ، ج ١ ، ص ٢١١

فقدّموا أرض مصر في خلافة المتوكل أعوام نيف وأربعين ومائتين في عدد كثير ، وانتشروا في البلاد فنزل طائفة منهم بأعلى الصعيد وسكنوا بيوت الشعر في براريها الجنوبية وأوديتها ، وكانت قبائل البجة تشن الغارات على القرى الشرقية في كل حين ، وخربوا كثيراً من أملاك الأهالي ، فقام الربيعون في منعهم حتى كفوهم ، ولم يلبثوا أن تزوجوا منهم وصارت لهم مرافق في بلاد البجة واستولوا على مناجم الذهب بها فكثرت بذلك أموالهم^(١) . وانتقلت بطون من قریش إلى الأشمونين وكان بينهم بنو جعفر بن أبي طالب المعروف بالطيار ، وبنو مسلمة بن عبد الملك بن مروان وتحالفوا جميعاً وعاشوا سالمين ، والجمعافرة اليوم ينسبون إلى جعفر هذا .

ويقول المقرئزي « وجهينة أكثر عرب مصر^(٢) » وهؤلاء كانوا يسكنون حول أسيوط وما بعدها ، ووقع بينهم وبين بطون بني واقع أدى إلى دوام الفتنة بينهما . وفي الفيوم نزل بنو كلاب^(٣) ومن منية غمر إلى زفيتا سكن سعود جذام ، وأكثرهم مشايخ البلاد وخفراؤها ولهم مزارع وفسادهم كثير^(٤) .

وانتقلت طوائف من فزارة إلى الغربية وقلوب^(٥) . وفي الدقهلية سكن عرب ينتسبون إلى قریش^(٦) . وسكن حول تنيس ودمياط قوم

(١) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٤٨

(٢) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٣٨

(٣) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٣٦

(٤) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٣١

(٥) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٦٢

(٦) البيان والاعراب للمقرئزي ، ص ٦٢

ينتسبون إلى نصر بن معاوية وهم من هوازن ، وكان لهم شوكة شديدة بأرض مصر ، وكثروا حتى ملأوا أسفل الأرض وغلبوا عليها حتى قويت عليهم قبيلة من البربر تعرف بلوامة تزعم أنها من قيس فأجلت بني نصر وأسكنتها الجدار ، فصاروا أهل قرى في مكان عرف بهم وسط النيل وهي جزيرة بني نصر^(١) . ثم تعاقب على مصر طوائف من العرب في العصور التي تلت عصرنا الذي نؤرخه ولعل أكثرها ما كان في القرن الخامس الهجري ، إذ أرسل الوزير الناصر اليازوري عام اثنين وأربعين وأربعمائة فاستدعى سنابس من فلسطين وأقطعهم البحيرة التي كانت منازل بني قرة ، فعظم أمرهم أيام الفاطميين ولكنهم تفرقوا في الغربية وذلوا بعد واقعة ديروط عام إحدى وخمسين وستمائة أيام عز الدين التركمانى ، وكان يجاورهم فرقة من كنانة بن خزيمة وفرقة من بني عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب ، ونزل العمريون في البرلس والكنانيون بقرب دمياط .

مما تقدم نستطيع أن نقول إن أكثر عرب مصر من اليمن وقد اختلطوا دورهم في الفسطاط وغيرها ، ورابط بعضهم في المدن الكبيرة التي هي ثغور مصر والتي كان يخشى عليها من مهاجمة الأعداء . وكان بمصر عدة من الثغور المعدة للرباط في سبيل الله تعالى وهي البرلس ورشيد والاسكندرية وذات الحمام والبحيرة واخنا ودمياط وشطا وتنيس والأشتوم والفرما والواردة والعريش واسوان وقوص والواحات ، فيغزى من هذه الثغور الروم والفرننج والبربر والنوبة والحبشة والسودان^(٢) . كما كان لبعض

(١) خطط المقرئى ، ج ١ ، ص ٣٦٥

(٢) خطط المقرئى ، ج ١ ، ص ٤٣

العرب اقطاعات بمصر كالذى قيل إن عمر بن الخطاب أقطع ابن سندر
منية الأصبع فحاز منها لنفسه ألف فدان ، فلم تزل له حتى مات ،
فاشتراها الأصبع بن عبدالعزيز بن مروان (١)

وكان للعرب أيام خاصة فى الربيع ينتقلون فيها من مراتبهم يجوسون
خلال قرى الريف ، فقد جاء فى خطبة لعمر بن العاص « فحى لكم
على بركة الله إلى ريفكم فنالوا من خير ولبنه وخرافه وصيده ، وأربعوا
خيالكم وأسمنوها وصونوها وأكرموها ، فانها جنتكم من عدوكم وبها
مغانمكم وأنفالكم ، واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا
— إلى أن قال — فتمتعوا فى ريفكم ما طاب لكم ، فاذا يبس العود وسخن
العمود وكثر الذباب وحمض اللبن وانقطع الورد من الشجر فحى إلى
فسطاطكم على بركة الله (٢) »

فان صح نسبة هذا القول إلى عمرو فاننا نتبين أن العرب كانوا
يخرجون من رباطهم ، ويتصلون بالمصريين فى قرأهم ومدنهم ، ويتحدثون
اليهم ويتساومون ، فمن المصريين من أعجب بالعرب ودينهم فاعتنقه ،
ومنهم من اضطر إلى اعتناقه اضطرارا لعجزه عن دفع الجزية ، أو لأغراض
أخرى . وكان عمرو يعين القرى التى تذهب اليها كل قبيلة فـكان
يكتب لكل قوم بريعهم ولبنهم إلى حيث أحبوا (٣) . إذن فى ابتداء
الفتح كانت إقامة العرب فى الفسطاط والشعور ، ولم يكن لهم مقام بالقرى ،
وكان القبط متمكنين فى بلادهم لا يتدخل فى شئونهم عربى ، على أن

(١) خطط المقرئى ، ج ١ ، ص ١٥٥

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٧٣

(٣) الخطط ج ٤ ص ٢٨

المسلمين في المائة الثانية انتشروا في قرى مصر ونواحيها ، وما برح القبط يشورون على المسلمين ، إلى أن جاء المأمون سنة سبع عشرة ومائتين فأسرف في تأديبهم حتى أخضعهم له ، وغلب العرب على أماكن المصريين في القرى ، وحولوا بعض الكنائس إلى مساجد ، فاضطر المصريون إلى أن يتعلموا اللغة الفاتحين ، وإلى أن يتعنى أكثرهم دين الاسلام ولما أكثر عدد العرب بمصر طمعوا في ازدياد ثروتهم ، فعمدوا إلى الزراعة والتجارة ، حتى إذا كان أيام المعتصم فأمر بإسقاط جميع العرب من الديوان ، فاضطر عرب مصر إلى أن يجتهدوا في جمع المال وصاروا كالمصريين سواء بسواء ، وزاد اختلاط العرب بالمصريين وتزوج العرب من نساء مصريات ، فلم يمض إلا زمن قليل حتى رأينا في مصر شعبا اسلاميا عربيا ، ^(١) وقد دفعهم تعصبهم للاسلام إلى الثورة لبناء كنيسة ، فقد قيل إنه في سنة ست وعشرين وثلثمائة هدمت قطعة من كنيسة أبي شنوده فبذل النصارى للاخشيد مالا ليطلق عمارتها ، فلم يقبل إلا بعد استفتاء الفقهاء ، فأقضى أحدهم وهو محمد بن علي بأن لهم أن يرموها ويعمروها ، وعرف ذلك عنه فحملت الرعية إلى داره النار وأرادوا قتله فاستتر وندم على فتياه ^(٢)

(١) Lane Poole ; History of Egypt in the Middle Ages p. 15.

(٢) المغرب لابن سعيد ، ص ٣٢

٣ — الصراع بين اللغات

اليونانية — القبطية — العربية

انتشرت اللغة اليونانية في مصر منذ أيام البطالسة فكانت الدروس تلقى بها في المدارس^(١) ولكن الشعب المصرى كان منصرفا بعض الشيء عن هذه الدروس اليونانية، وأحجم كثير من المصريين لا سيما سكان الوجه القبلى عن تلقى هذه اللغة الأجنبية، فلم تنتشر اليونانية في الصعيد أو في القرى المصرية بمقدار انتشارها في الوجه البحرى أو المدن الكبرى. وفي عهد الرومان استمرت اللغة اليونانية اللغة الرسمية في مصر. وقد ذكرنا كيف كان الوالى الرومانى يصدر نشرات للمصريين باللغة اليونانية يصف فيها حكمه للبلاد، وكيف كان الولاية يفخمون ويعظمون بلقب يونانى يضاف إلى أسمائهم^(٢) فكانت اللغة اليونانية هى لغة الثقافة والحكم، بينما احتفظت اللغة المصرية بمكانتها بين الشعب فلم تتغلب اليونانية عليها حتى أن القس أورجانوس Origen قال « إذا أراد يونانى أن يعلم المصريين شيئا من القانون فخير له أن يتعلم لغة المصريين حتى يستطيع أن يتفاهم معهم، أما إذا خاطبهم باليونانية فلا فائدة من حديثه » مما يدل على أن اللغة اليونانية لم تكن منتشرة بين جميع المصريين. فبينما كان القديس بولس يجيد اللغتين اليونانية والمصرية

(١) Quatremère : Recherches sur la Langue et la Litterature de l'Egypte P. 5.

(٢) تاريخ الأمة القبطية ، ص ١٢٤

كان القديس أنطونيوس لا يعرف غير اللغة المصرية وبها كتب كل أبحاثه الدينية . ولما وفد افرام (فم الذهب) إلى مصر لزيارة الانبا بشوا Anba Bishoi لم يستطع الرجلان أن يتفاهما إلا بمساعدة مترجم لأن كلا منهما لم يعرف إلا لغة بلاده (١) .

ونجد اللغتين اليونانية والمصرية منقوشتين على بعض الأحجار ومكتوبتين على أوراق البردى ، ويرجع تاريخ هذه الأحجار وتلك الأوراق إلى العصر الروماني مما يثبت أن اللغة اليونانية كانت تسير مع اللغة المصرية وما يؤيد ذلك أيضاً أن التعاليم الدينية التي كانت تلقى في الكنائس أو تنشر بين الناس كانت تقرأ أولاً باللغة اليونانية ثم تشرح باللغة المصرية ؛ وأهل الصعيد أنفسهم الذين كانوا بعيدين عن مصدر اللغة اليونانية كانوا يراون صلواتهم باللغة اليونانية بينما كانوا يتحدثون المصرية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن اللغة اليونانية كان لها أثرها في مصر ، ونلمح أثر هذه اللغة في اللغة المصرية نفسها التي تعرف باللغة القبطية فالحروف القبطية هي نفس الحروف اليونانية تقريباً ونجد كثيراً من الألفاظ اليونانية دخيلة في اللغة القبطية .

أما اللغة القبطية فلم تكن لهجة واحدة بل اختلفت لهجاتها باختلاف الأقاليم المصرية . نقل كاترمير عن اثناس بطريق قوص « تعلم أن اللغة القبطية مقسومة إلى ثلاثة أقلام منها القبطى المصرى الذى هو الصعيدى ومنها القبطى البحرى المعروف بالبحيرة والقبطى

الأشمووني المستعمل ببلاد الأشمونين — كما تعلم — وإنما المستعمل الآن القبطى البحرى والقبطى الصعيدى والأصل فيها لغة واحدة^(١)، نلح من هذه الجملة أن اللهجة الصعيدية هى أقل اللهجات القبطية تأثراً باللغة اليونانية لبعدها عن مراكز اللغة اليونانية وأنها أقرب اللهجات إلى اللغة المصرية القديمة حتى عبر عنها بالقبطى المصرى، أما اللهجة البحرية فهى لهجة الوجه البحرى وهى أكثر اللهجات تأثراً باليونانية لقربها من بلاد اليونان ومن الاسكندرية حيث الجامعة ومقر الحكم ولا ندرى شيئاً عن اللهجة الاشمونية .

ولما شعر المصريون بالاضطهاد الدينى اشتد كره المصريين لكل ما هو أجنبى، ونظروا الى الأجانب نظرهم إلى عنصر من عناصر الوثنية فمنع المصريون اللغة اليونانية من الكنائس واستبدلوها باللغة القبطية^(٢) وكان ذلك فى القرن السادس الميلادى، ولكن اللغة اليونانية ظلت مستعملة متداولة فى الكنيسة الملكية، أما الكنيسة اليعقوبية المصرية فقد أمرت بتحريم اللغة اليونانية فأضعف ذلك من شأن اللغة اليونانية بعض الشيء .

وبينما كانت الكنيسة اليعقوبية فى خصام عنيف مع الكنيسة الملكية تغير نظام العالم السياسى فجأة وأصاب مصر ما أصاب كثيراً من البلدان الأخرى؛ فقد خرج العرب من بلادهم لغزو فارس والشام ومصر فوقف الطائفة اليعقوبية تساعد المسلمين وتؤازرهم ضد الرومان

Quatremère : p. 20. (١)

(٢) تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، ص ٨٨

وقد أراد المصريون بمساعدة العرب أن يتخلصوا من أعدائهم —
الرومانين، وأن يمحوا من البلاد الكنيسة الرومانية، فهدم المصريون
كنائس خصوصهم وحاولوا منع استعمال اللغة اليونانية بمصر ولكنهم
لم يبلغوا مرادهم .

شعر المصريون في أوائل الحكم العربي بشيء من الحرية التي طالما
تمنوها وعملوا من أجلها وظهرت هذه الحرية في استخدامهم في الأعمال
الحكومية التي كانوا يعيدون عنها، وهنا أرى أن أشير إلى موضوع تحدث
عنه مؤرخو العرب القدماء والمحدثون، تلك هي مسألة نقل الدواوين
من اللغات الأجنبية إلى العربية، فجميع من تحدثوا عن هذا الموضوع
ذكروا أن الدواوين كانت تكتب في مصر باللغة القبطية وفي الشام
باليونانية، من ذلك ما قاله الكندي « حتى إذا كانت ولاية عبد الله
ابن عبد الملك بن مروان فأمر بالدواوين فنسخت بالعربية وكانت
قبل ذلك تكتب بالقبطية، وصرف عبد الله اششاس عن الدواوين
وجعل عليها ابن يربوع الفزارى من أهل حمص وذلك في سنة سبع
وثمانين هجرية »^(١) فالنص صريح هنا أن اللغة القبطية كانت لغة
الدواوين، وهذا يخالف ما ذكرناه سابقا من أن اللغة اليونانية كانت
اللغة الرسمية؛ ثم إن المؤرخين قد اتفقوا على أن لغة الدواوين في الشام
كانت اليونانية، ومصر والشام كانتا من أملاك الامبراطورية البيزنطية
فكيف تكون اللغة الرسمية في الشام تختلف عن اللغة الرسمية في مصر؟
وقد حفظت لنا أوراق من البردي يرجع تاريخها إلى عهد الوليد بن

عبد الملك كتبت باليونانية والعربية وهى وثائق صدرت من الوالى نفسه ، ونجد بعض الوثائق المحفوظة بدار الكتب المصرية قد كتبت باللغة اليونانية فقط ولا نجد بينها وثائق كتبت باللغة العربية والقبطية أو القبطية فقط^(١) مما يدل على أن لغة الدواوين فى مصر والشام كانت اليونانية وليست القبطية كما وهم مؤرخو العرب ، وقد يكون هذا الوهم نشأ من أن بعض موظفى الدواوين كان من الأقباط فظن المؤرخون أن اللغة القبطية كانت اللغة الرسمية فى البلاد .

ومهما يكن من شىء فإن اللغة القبطية كانت لغة يؤلف بها الكتب فالمورخ يوحنا النيقوسى كتب تاريخه فى أيام ولاية عبد العزيز بن مروان بعضه باللغة اليونانية وبعضه الآخر بالقبطية^(٢)

بعد الفتح العربى كانت اللغة العربية فى أول الأمر فى حيز محدود فى مصر يتكلمها العرب ومن جاورهم من المصريين الذين اضطروا بحكم الجوار إلى أن يختلطوا بالفتاحين وأن يعرفوا لغتهم ، ثم أدخلت بعض الاصطلاحات العربية فى الدواوين ، فاضطر المصريون إلى أن يعرفوا لغة العرب تقرباً إليهم وتحقيقاً لمصالحهم ، فترى القسيس بنيامين قد أجاد اللغة العربية حتى أنه شرح الانجيل بالعربية للأصبغ بن عبد العزيز بن مروان^(٣) ، كما كان لا انتشار الدين الإسلامى فى مصر أثر كبير فى نشر اللغة العربية بين المصريين إذ اضطروا من أسلم منهم إلى أن يتعلم

(١) أوراق البردى للاستاذ جروهمان طبع دار الكتب المصرية فى مواضع متفرقة

(٢) تاريخ الأمة القبطية ، ج ٢ ، ص ١٦٧

(٣) Quatremère : p. 23.

اللغة العربية حتى يستطيع أن يقرأ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم وإلى أن يفهم دروس الفقه .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يخرجون من رباطهم في الربيع ويتصلون بالمصريين في الريف فيمكن ذلك من أسباب انتشار اللغة العربية بين الشعب ، حتى جاء الوقت الذي ترك فيه المصريون اللغة القبطية وأهموا شأنها حتى في مسائلهم الشخصية واتبعوا المسلمين في كل شيء ، وها هي أوراق البردى التي حفظت في دار الكتب المصرية وغيرها من المكتبات والمتاحف تؤيد ذلك فمثلا نجد في القطعة رقم ١١ التي ذكرها الأستاذ جروهمان في كتابه نرى عقد بيع بين مصرية ومسلم كتب باللغة العربية ووجد فيه ثلاثة أسطر باللغة القبطية هي شهادة بعض المصريين على هذا العقد ، كما نلاحظ على هذا العقد أن الكاتب استعمل بعض اصطلاحات مصرية خالصة ، فالمصريون هم الذين يحدون الجهات بالبحر والقبلي^(١) مما يدل على تأثير اللغة العربية بالاصطلاحات المصرية . ثم يدلنا على ضعف اللغة القبطية وسيرها في طريق الانحلال أن القديس شنودة كتب مؤلفاته باللغة القبطية واللهجة الصعيدية — ثم اضطر إلى أن يكتبها مرة أخرى باللغة العربية حتى يتسنى الأقباط أن يقرأوها ، وبعد أن كانت مراسيم الكنيسة تقرأ باليونانية و تشرح بالقبطية ثم صارت بالقبطية فقط قرأوها بالقبطية وشرحوها بالعربية وفي القرن العاشر

(١) يقول المفريزي في خطه ، ج ١ ، ص ٢٣ : إلا أن أهل مصر يستعملون في تحديد بلادهم بدلا من الجهة الجنوبية لفظة القبلية فيقولون الحد القبلي ينتهى إلى كذا ، ولا يقولون الجنوبي وكذلك يقولون الحد البحرى ويريدون بالحد البحرى الحد الشمالى

الميلادى كان المصرى المثقف يفخر بأنه يعرف اللغة القبطية^(١) وحدث أنه فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ظهر نشاط غريب بين الأقباط إذ أرادوا أن يعتزوا بقوميتهم ويحافظوا على لغتهم فجمعوا الكتب القبطية فى دير القديس مكاريوس (St. Macarius) ولكن فشلت حركتهم فى القرن الحادى عشر لأن اللغة القبطية كانت تتقهقر أمام اللغة العربية، وازداد الحاح الناس فى ترجمة الكتب الدينية من اللغة القبطية إلى اللغة العربية^(٢) وبعد القرن العاشر الميلادى كان رجال الدين المسيحى يقرأون صلواتهم باللغة القبطية بينما كانت كتبهم الدينية باللغة العربية، وفى زيارة المسعودى لمصر سأل كثير من المصريين عن معنى كلمة فرعون فى لغتهم فلم يظفر بجواب. ومع ذلك كله فإننا نجد اللغة القبطية كانت معروفة فى مصر إلى عهد قريب فالمقرئى ذكر فى خططه « ودرنكه أهلها من النصارى يعرفون اللغة القبطية فيحدث صغيرهم وكبيرهم بها ويفسرونها بالعربية^(٣) » وقال فى موضع آخر « ودير مواس خارج أسيوط من قبلها بنى على اسم توما الرسول والأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطية البحرية ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لا يكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية^(٤) » ونستطيع أن نقول إن كثيراً من العرب عرفوا اللغة القبطية

Quatremère : p. 39. (١)

Hugh : The Monasteries of Wadi'n Natrûn (New Yourk) (٢)
V. I. p. 26.

(٣) المقرئى ، ج ٤ ، ص ٤٣٦

(٤) المقرئى ، ج ٤ ، ص ٤١٧

وتخاطبوا بها فقد قيل إن البطريق يوسف عند ما حوكم سنة ٨٥٠ م
خاطب رعيته باللغة القبطية بحضور عدد كبير من العرب ، وفهم العرب
كل ما قاله وحدثوا به القاضي^(١). وذكر ابن حجر في أخبار القاضي
خير بن نعيم « وكان يسمع كلام القبط بلغتهم ويخاطبهم بها ، وكذلك
شهادة الشهود منهم ويحكم بشهادتهم »^(٢) وقال الكندي في خبر
خروج العلويين بالفسطاط سنة ١٤٥ هـ إن ابن حديج وقف على الباب
الذي ناحية بيت المال فكلّم خالد بن سعيد وهو فوق ظهر المسجد
كلمة قبطية^(٣). فهذا كله يدلنا على أن بعض العرب بمصر تعلموا اللغة
القبطية وتخاطبوا بها .

والآن إذا فحصنا اللغة التي يتحدث بها المصريون فإننا نجد بها كثيراً
من الألفاظ القبطية فلفظ « كان ماني » و « شونة » و « أرض شراقي »
و « أردب » وغيرها هذه كلها ليست عربية بل هي مصرية وكان
القدماء يستعملون كلمة « القباطى » وهي نوع من النسيج كان يرسل من
مصر إلى بلاد العرب ، واستعمل الكندي كلمة مواحيز بمعنى أما كن
فقال « كانت مواحيز مصر يعمرها أهل الديوان »^(٤) ، واستعمل ابن
الداية لفظ « تليس » بمعنى الحقيقة الكبيرة^(٥) ، ولا يزال المصريون
يستعملون هذه الكلمة بنفس المعنى القديم . ويسمى المصريون الى

(١) كاترمير ص ٣٤ ، وتلر في كتابه تاريخ الكنيسة القبطية ص ٢٥١

(٢) رفع الإصر عن قضاة مصر نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٣) الولاة والقضاة ، ص ١١٣

(٤) شرحه ، ص ٤١٨

(٥) المكافأة لابن الداية ، ص ٨٢

الآن الرياح الجنوبية بريح المريس و « إم ريس » بالقبطية معناها
جهة الجنوب .

ونجد اختلافاً في اللهجات المصرية فلمهجة الصعيد تختلف عن
لهجة أهل القاهرة ، ولهجة أهل مديرية الشرقية غير لهجة أهل رشيد أو
أهل الاسكندرية ، وقد علل الدكتور جورجى بك صبحى ذلك بأن
اختلاف اللهجات الآن في جهات مصر المختلفة كان يتأثر هذه الجهات
باللهجة المصرية القديمة ^(١) . وقد يكون هذا السبب صحيحاً وليكن
أستطيع أن أضيف إلى ذلك أسباباً أخرى منها اختلاف اللهجات
العربية التى أتى بها العرب ، ثم تأثر المصريين فى عصورهم المختلفة بالأمر
الأوروبية الأمر الذى جعل لهجات البلاد تختلف اختلافاً واضحاً .

(١) محاضرة الدكتور جورجى بك صبحى عن الثقافة القبطية بقاعة يورت فى

ديسمبر سنة ١٩٣٣

الباب الثاني

في الحياة العقلية

الفصل الأول

المدارس الدينية

« أصبحت مصر منذ دخول العرب إليها مركزاً علمياً في المملكة الإسلامية كما هي مركز سياسي ، ^(١) ، وقد ذكرنا كيف كان العرب الذين وفدوا على مصر في شبه معزل عن المصريين وعلومهم ، ولذلك لم يهتم عرب مصر في القرن الأول إلا بالدين الإسلامي ، فاتخذوا من جامع الفسطاط مكاناً للدروس والمناقشات الدينية ، واسنوا في معرض الحديث عن هذه العلوم التي كانت تلقى في مسجد الفسطاط ، ولما مضى إلى الإلمام بها ، لأن دراسة الآداب تضطرننا إلى تتبع تطور الحياة العقلية ، ورقى النثر الفني لا يتأتى إلا من هذه الدراسات العميقة ، والمناقشات العلمية العنيفة ، التي تقوم على جهد في الفكر وذخيرة من العلم ، كما أن ألوان الحياة العقلية وأنواع العلوم التي كانت تدرس تعيننا على معرفة نوع هذه الكتابات المختلفة وفنون الشعر وتطورها جيلاً بعد جيل .

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢٨ (الطبعة الأولى)

علم القراءات

ففى مسجد الفسطاط ، نرى أول مدارس به كانت علوم الدين من تفسير للقرآن الكريم، ورواية قراءاته، ورواية الحديث الشريف، وكان للصحابة الذين شهدوا فتح مصر أثر بارز فى هذه العلوم الدينية، إذ هم الذين تولوا أمر التدريس فى المسجد الجامع ، وأول من أقرأ القرآن بمصر هو أبو أمية عبيد بن مخمر المغافرى ^(١)، وكل القراءات بمصر رواية عن نافع ، نقلها عنه إلى مصر عثمان بن سعيد المصرى المعروف بورش وكان مصرى صميا فهو عثمان بن سعيد بن عدى بن غزوان بن داود بن سابق ، كان أصل أجداده من الأقباط ، ثم اعتنقوا الدين الإسلامى . ولد ورش بمصر سنة ١١٠ هـ ، واشتغل بقراءة القرآن وتعلم العربية ، ورحل إلى المدينة فقرأ بها على نافع سنة ١٥٥ هـ ^(٢)، ثم عاد إلى مصر، وإليه انتهت رئاسة الاقراء فيها وتوفى سنة ١٩٧ هـ ^(٣) وساعده فى نقل رواية نافع زميل له معاصر ، هو سقلاب بن شنيعة أبو سعيد المصرى ^(٤)، ولكن المقرئى قال إن أباميسرة عبد الرحمن ابن ميسره مولى الملامس الحضرمى كان أول الناس إقراء بمصر بحرف نافع قبل الحسين ومائة من الهجرة ، وتوفى سنة ثمان وثمانين ومائة من الهجرة ، ولكن المعروف أن أثر ورش فى القراءة أقوى من أثر أى مقرئ آخر . ويحدثنا السيوطى أن عمر بن عبد العزيز أرسل نافعا

(١) خطط المقرئى ، ج ٤ ، ص ١٤٣

(٢) معجم الأدباء ، ج ٥ ، ص ٣٣

(٣) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٧

(٤) شرحه

إلى مصر ليعلم المصريين ، فأقام نافع بمصر مدة طويلة^(١) . ومهما يكن من شيء فإن مدرسة نافع قد قوى أمرها في مصر ، وتعدد تلاميذ ورش ، فمنهم أبو يعقوب الأزرق يوسف بن عمرو بن يسار المصري الذي لزم ورشا مدة طويلة ، وأتقن عنه الأداء ، وخلفه في الإلقاء ، ولكنه انفرد عن ورش بتخليط اللام وترقيق الراء ، وكان له أثر كبير في مصر والمغرب ، حتى أن المصريين والبربر ما كانوا يعرفون إذ ذاك غير ورش وأبي يعقوب هذا^(٢) ، وقد توفي أبو يعقوب حوالي سنة أربعين ومائتين من الهجرة .

وأخذ الأندلسيون قراءة نافع عن عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم المصري المتوفى سنة إحدى وثلاثين ومائتين هجرية^(٣) .

من ذلك كله نستطيع أن ندرك أن المصريين كان لهم أثر واضح في القراءات ، وعن المصريين أخذ القراء في الأندلس والمغرب ، كما كان للمصريين رأى خاص يختلف بعض الشيء عن قراءة نافع ، كالذي ذكرناه عن قراءة أبي يعقوب المصري في تخليط اللامات وترقيق الراءات .

الحديث :

وفي الحديث نجد الصحابة الذين وفدوا على مصر يكثرون من روايته ، وكان عبد الله بن عمرو بن العاص أكثر الصحابة رواية

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٢

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٧٨

(٣) شرحه

للحديث ، فقد كان من نجباء الصحابة ، ومن المكثرين لروايته (١) ولأهل مصر عنه أكثر من مائة حديث (٢) ، فقد كان عبد الله يعرف الكتابة ، وكان يكتب كل ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاستطاع بذلك أن يحفظ عدداً من الأحاديث كما سمعها من الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكثيراً ما كان يرجع إلى أوراقه عندما يسأل في أمر لا يستطيع أن يجيب عنه . روى ابن عبد الحكم أن عبد الله قال « كئنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نكتب ما يقول لا أو نعم » (٣) كما كان لغيره من الصحابة أثر بارز في رواية الحديث وقد أفرد ابن عبد الحكم في آخر كتابه « فتوح مصر » فصلاً خاصاً بالأحاديث النبوية التي رواها المصريون ، وكذلك نجد في كتاب السيوطي « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » ذكر هؤلاء الصحابة وما روه من الأحاديث ، واعتمد أصحاب الكتب الستة في الأحاديث على رواية كثير من المصريين ، فسميع بن عفير ويحيى بن بكير وعبد الله بن صالح ، وغيرهم كانوا من شيوخ البخاري وكان أحمد ابن يونس ويحيى بن يحيى التميمي وغيرهما من شيوخ مسلم وأبي داود ولا داعي للإفاضة هنا عن كل المحدثين المصريين .

عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية

ولكن لا بد أن نقف عند رجل مصري يعد من أوائل جامعي الحديث ، ذلك هو عبد الله بن وهب المصري صاحب كتاب

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٢٤

(٢) فتوح مصر لابن عبد الحكم

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ١٧١

« الجامع في الحديث » . وقد عثر على معظم هذا الكتاب حديثاً في مدينة ادفو ، ويعود من أقدم المخطوطات العربية في جميع مكاتب ومتاحف العالم ، إن لم يكن أقدمها جميعاً ، وهذه النسخة مكتوبة على ورق البردى الذي عرفت به مصر منذ القدم ، ويرجع تاريخ كتابتها إلى القرن الثالث الهجري . أما مؤلفه ، فهو أبو محمد عبد الله بن وهب ابن مسلم القرشي بالولاء ^(١) . وقد شهد ابن وهب هذا العصر الذي ابتدئ فيه تدوين الحديث والفقه والتفسير ، فقد كان العلماء قبل ذلك العصر يتكلمون عما حفظوه ، وقد يدونون ما سمعوه في صحف مبعثرة متفرقة ولم تكن لهم كتابات مرتبة . ولكن جاء بعض الأئمة والمجتهدين ودونوا ما رأوه وما روه ، فكتب مالك كتابه الموطأ بالمدينة وكتب الأوزاعي مذهبه بالشام ، وصنف ابن اسحق في المغازي ، وكتب ابن وهب في مصر كتابه « الجامع في الحديث » فهو بذلك من أول الذين جمعوا الحديث ، والغريب أن هذا الرجل على ما هو عليه من فضل وعلم ليس معروفاً عند كثير من المؤرخين والكتاب وذلك في أغلب الظن لأن « جامع » كان مفقوداً ، وقد يكون هذا الكتاب هو الأثر الوحيد الذي يدلنا على فضل هذا الرجل ، ولعل رأى العلماء والمؤرخين في هذا المحدث يتغير بعد أن كشف عن جزء من كتابه ، كما نرجو أن تعمل الهيئات العلمية على طبع هذا الكتاب .

ولد ابن وهب بمصر في ذى القعدة من سنة أربعين أو خمس وعشرين ومائة من الهجرة ، وكان كغيره من متعلمي هذا العصر ، يرحل في طلب

العلم إلى الحجاز والعراق، فوفد على المدينة سنة ثمان وأربعين ومائة هـ ،
وهناك أخذ عن مالك ، وما زال يقيم معه ، حيناً ، ويفترق حيناً آخر ،
إلى أن توفي مالك سنة ١٩٧ هـ ، ويقول ابن خلكان إن مالكا كان
يكتب إلى ابن وهب « إلى عبد الله بن وهب الملقى ولم يكن يفعل هذا
مع غيره ^(١) » فهذا يدل على أن مالكا كان يعترف بفضل ابن وهب
ومنزلاته فلقبه بالملقى ، ويروى ابن خلكان أيضاً قصة عنه فيقول
« كتب الخليفة أبو جعفر المنصور إلى عبد الله بن وهب في قضاء
مصر ، فخبأ نفسه ، ولزم بيته ، فاطلع عليه أسد بن سعد وهو يتوصاً
في صحن داره ، فقال له « ألا تخرج إلى الناس فتقضى بينهم بكتاب
الله وسنة رسوله » فرفع له رأسه ، وقال « إلى هنا انتهى عقلك !! أما
علمت أن العلماء يحشرون مع الأنبياء ، وأن القضاة يحشرون مع
السلطين ^(٢) . فإن صحت هذه الرواية فهي تحدثنا عن عقيدة ابن
وهب وإيمانه ، وقيل إن سبب موته أنه قرى عليه كتاب الأهوال
من « جامعه » ، فأخذه شيء كالغشى ، فحمل إلى داره ، فلم يزل كذلك
إلى أن قضى نحبه ، في شعبان سنة سبع وتسعين ومائة من الهجرة ^(٣) .

أخذ ابن وهب أكثر مادة كتابه عن مصدرين هما : مالك بن أنس
وعبد الله بن لهيعة المصري ، وليس لنا أن نتحدث عن الإمام مالك لأنه
لم يكن مصرياً في شيء ، وإن كان مذهبه قد دخل مصر وكثر تلاميذه
الذين كانوا يدرسون مذهبه في المسجد الجامع ، وكان ابن وهب من

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٢) شرحه

(٣) شرحه

أجل تلاميذه في مصر ، وعنه أخذ كثير من المصريين ، حتى أن السيوطي حين عقد فصلاً عن كان بمصر من الفقهاء المالكية ، كان يذكر ابن وهب كأستاذ لمعظم هؤلاء الفقهاء ، مثل عبد الحكم بن عبد الله الذي كان أكبر أولاد ابن عبد الحكم وأفقهم ، وأجل أصحاب ابن وهب ^(١) ، ولم يكن ابن وهب وحده هو أستاذ المدرسة المالكية في مصر ، بل نجد كثيراً غيره ، أمثال : أشهب بن عبد العزيز العامري فقيه ديار مصر ، وكانت إليه الرياسة بها ، وبلغ من العلم درجة كبيرة ، حتى قال الشافعي « ما أخرجت مصر أفقه من أشهب لولا طيش فيه » ^(٢) ، وكان ثقة في روايته ، حتى قيل إن أشهب ما كان يزيد في سماعه حرفاً واحداً ^(٣) ، وكان أساس المدرسة المالكية هو رواية الموطأ وهذا الكتاب كغيره من الكتب الإسلامية التي ألقت في هذا العصر يقوم على الرواية ، ولكن ابن وهب لم يشأ أن يقبل الروايات كما هي في الموطأ ، بل كان يدقق في اختيار الأحاديث ، ولعل هذا هو السبب الذي جعل المحدثين جميعاً يشقون به .

أما المصدر الثاني الذي أخذ عنه ابن وهب أكثر مادة كتابه ، فهو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمي الغافقي ^(٤) ولد سنة ست وتسعين هجرية من أصل عربي ، وكان والده لهيعة من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث بمصر ^(٥) ، ونشأ ابنه عبد الله

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٥٤

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٦

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥

(٤) أنظر النووي ، ج ١ ، ص ٣٦٤ والسمعاني ، ص ٤٠٥

(٥) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥

محباً للحديث ، جامعاً له ، فكان يرحل في طلبه^(١) ، وكان ابن لهيعة يكنى أبا خريطة ، وذلك أنه كانت له خريطة معلقة في عنقه ، فكان يدور بمصر ، فكلما قدم قوم كان يدور عليهم ، فإذا رأى شيخاً سألته من لقيت وعمن كتبت ؟^(٢) . وابن لهيعة هذا تلميذ يزيد بن أبي حبيب ، الذي وصفه الليث بن سعد بقوله « هو سيدنا وعالمنا »^(٣) ، وقيل إن يزيد هذا أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحرام والحلال ، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب والملاحم والفتن^(٤) ، لهذا كان يزيد بن أبي حبيب أحد الثلاثة الذين جعل عمر بن عبد العزيز اليهم الفتيا في مصر ، وهم جعفر بن ربيعة وهو عربي ، وعبد الله بن أبي جعفر ، ويزيد بن أبي حبيب ، وهما من الموالي ، ولكن العرب أنفوا أن تكون الفتيا إلى الموالي فأجابهم عمر بقوله « ما ذنبى إن كانت الموالي تسمو بأنفسها صعدا ، وأنتم لا تسمون »^(٥) ، ولا تقف شهرة يزيد بن أبي حبيب عند الفقه أو الحديث ، بل نراه من الذين اعتمد عليهم عبد الرحمن بن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر ، والكندي في كتابيه الولاية والقضاة ، والطبري في تاريخه وغيرهم وذلك لكثرة علمه بالفتن والحروب ، وخاصة ما يتعلق منها بمصر وشؤونها وحكامها ، كان يزيد أستاذ ابن لهيعة وأستاذ عالم مصرى آخر هو الليث بن سعد ، ولكن

(١) تاريخ الاسلام للذهبي

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ١٧٥

(٣) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٣

(٤) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٣٠٨

(٥) خطط المقريزى ، ج ٤ ، ص ١٤٣

ابن لهيعة اختلف عن أستاذه ابن أبي حبيب ، وعن قرينه الليث ، فلم يكن حذرا في قبول الروايات الكثيرة التي كانت تصل اليه ، ولم يحتط في إسناد الأحاديث والأخبار إلى الثقة ، لهذا قل من يثق بأحاديثه وأخباره ، مع كثرة ما نقل عنه ، يقول ابن خلكان : إن ابن لهيعة كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ، وكان يُقرأ عليه ما ليس من حديثه فيسكت ، ف قيل له في ذلك فقال : ما ذنبى إنما يحيئونى بكتاب يقرؤنه على ويقومون ، ولو سألونى لأخبرتهم أنه ليس من حديثى ^(١) وأظن أن هذا هو السبب الذى جعل ابن سعد يقول عنه : « إنه كان ضعيفا » ^(٢) ومن يدرى لعل هذا الرجل كان سببا في اختراع هذه الأخبار الكثيرة التى رواها ابن عبد الحكم والكندى وغيرهما ، وأخذها عنهما غيرهما من المؤرخين ، إذ أن أكثر ما ورد عن مصر مروي عن طريقه .

روى ابن وهب كثيرا عن ابن لهيعة ، ولست أدري كيف يأخذ ابن وهب عنه ، وهو الذى يدقق فى كل رواية . فقد قيل إن ابن وهب روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مائة ألف حديث ما جرح فى حديث واحد ^(٣) .

أما زملاء ابن وهب فى نشر مذهب مالك بمصر فنستطيع أن نقول إن خاصة أصحاب مالك كانوا مصريين كابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٢) الطبقات الكبرى لابن سعد ، ص ٢٠٤ ، طبعة ليدن سنة ١٣٣٨ هـ

(٣) الكواكب السائرة فى ترتيب الزيادة لابن الزيات ، ص ٤٥ (مطبعة بولاق

أما ابن القاسم فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن القاسم العتقى ينسب إلى جماعة العتقاء الذين وفدوا على مصر منذ الفتح ، واختطوا بالفسطاط كما ذكرنا ، ولد سنة ١٢٨ هـ وصحب مالكا وروى عنه مسائله كلها ، وكان يقول : رجلان أقتدى بهما في ديني مالك بن أنس في العلم وسليمان في الورع ^(١) ، وكان يفرع على أصول مذهب مالك وصارت إليه رئاسة المالكية بمصر إلى أن توفي سنة ١٩١ هـ ، وخلفه منافسه وزميله أشهب ابن عبد العزيز بن داود القيسي ، تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد والفضيل بن عياض ^(٢) ، وكان من أكثر الناس علما وجمالا ، وقد وصفه ابن وهب بقوله : كان أشهب فقيها في علوم شتى ، ما سئل عن شيء إلا أجاب ^(٣) ، وقال الشافعي : ما رأيت أفقه من أشهب لولا طيش فيه ^(٤) ، وكان ينافس ابن القاسم في رئاسة المالكية ، حتى انتهت إليه بعد وفاة ابن القاسم ، وقد انتصر لأشهب بعض المصريين أمثال محمد بن عبد الله بن عبد الحكيم الذي كان يفضل أشهب على ابن القاسم وتوفي أشهب سنة ٢٠٤ من الهجرة ^(٥) .

ويروى السيوطي أن أول من أدخل مذهب مالك في مصر هو عثمان بن الحكيم الجذامي المتوفى سنة ١٦٣ هـ .

(١) الكواكب السيارة ، ص ٣٩

(٢) الديباج لابن فرحون ، ص ٩٨ (طبعة السعادة سنة ١٢٩٣)

(٣) الكواكب السيارة ، ص ٣٧

(٤) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٧٨

(٥) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٦

الليث بن سعد

وما دمنا نتحدث عن هؤلاء العلماء والفقهاء الذين كان لهم أثر في مصر ، لا بد لنا من وقفة قصيرة عند عالم مصرى شهيد له بالعلم والفقه ، حتى قيل عنه إنه إمام أهل مصر في الفقه والحديث ، ذلك هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن ، لم يكن عربياً أصيلاً في عروبته ، ولم يكن مصرياً عريقاً في مصريته ، بل كان فارسياً من أصبهان ، وكان مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر الفهمي ، ولد الليث في قرية من قرى مصر هي قلقشنده ، ويقول الليث إن بعض أهله حدثوه أنه ولد سنة اثنتين وتسعين للهجرة ، ويوقن هو أن ولادته كانت سنة أربع وتسعين للهجرة ، ولكن السمعاني يقول إنه ولد سنة أربع وعشرين ومائة ، ويقول السيوطي إنه ولد سنة أربع وتسعين^(١) ويقول غيره إنه ولد سنة ثلاث وتسعين^(٢) ، نشأ بمصر وتثقف على علمائها أمثال يزيد بن أبي حبيب ، وجعفر بن ربيعة وخير بن نعيم وغيرهم ، ثم لم يقنع بهذا كله ، فتراه يطوف ببعض البلدان طلباً للعلم ، فذهب إلى مكة للحج سنة ثلاث عشرة ومائة ، وهناك أخذ عن نافع مولى عبد الله بن عمر وعطاء بن أبي رباح وهشام بن عروة وقتادة وغيرهم ، وزار بيت المقدس سنة تسع وثلاثين ومائة هـ ، وزار بغداد سنة تسع وخمسين ومائة^(٣) ففي هذه الزيارات كلها قابل عدداً كبيراً

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ١٣٨

(٣) يراجع ما كتبه الأستاذ Guest في مقدمة كتاب الولاة للسكندی عن الليث

من التابعين وأخذ عنهم الحديث ورووا عنه ، ونرى له شأنا آخر من الناحية الفقهية فقد كان الليث فقيها مبرزاً ، حتى أن الشافعي كان يقول « الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به » (١) فهذا حكم إمام من أئمة الفقه لليث بن سعد ، كذلك نجد ابن خلكان يروى أن ابن وهب كان يُقرأ عليه مسائل الليث ابن سعد فمرت به مسألة ، فقال رجل من الغرباء : أحسن والله الليث كأنه كان يسمع مالكاً يجيب فيجيب هو فقال ابن وهب للرجل : بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب هو ، والله الذي لا إله إلا هو ، ما رأينا أحداً قط أفقه من الليث (٢) ويروى السيوطي أن ابن بكير قال « مارأيت أحداً أكمل من الليث ، كان فقيه النفس ، عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث (٣) والشعر ، حسن المذاكرة » (٤) وقال سعيد بن أيوب : لو أن مالكاً والليث اجتمعا كان مالك عند الليث شبه أبكم ولباع الليث مالكاً فيمن يريد (٥) وكان مالك يقول : حدثني من أَرْضَى من أهل العلم يريد به الليث (٦) ومن تلاميذ الليث : عبد الله بن المبارك وأبو النضر هاشم بن القاسم ويونس بن محمد المؤدب وعبد الله بن وهب وأشهب وأكثر هؤلاء من شيوخ ابن حنبل . وسعيد

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

(٢) شرحه

(٣) فى السكواكب السياره فى ترتيب الزيارة (يحسن القرآن والفقه والنحو

والطب والشعر)

(٤) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٤

(٥) كتاب الرحمة الغيثية للعسقلاني ص ٦ (طبع بولاق سنة ١٣٠١ هـ)

(٦) شرحه ص ٨

ابن عفير وعبد الله بن صالح كاتب الليث وعبد الله بن يونس التنيسي
وقد روى البخارى عن أكثرهم ، كما أخذ عنه قتيبة بن سعد
من هذا كله نستطيع أن نعرف مكانة الليث بن سعد فى نفوس
المصريين المعاصرين له ، حتى قيل إن القاضى والوالى كانا من تحت
أمره ومشورته ، لا يقطعان أمرا إلا بعد أن يرى هو فيه ريه (١) ،
واضطر أحد الشعراء من خصوم الليث إلى أن يرسل إلى الخليفة أبى
جعفر المنصور يقول :

لعبد الله عبد الله عندى نصائح حكمتها فى السر وحدى
أمير المؤمنين تلاف مصرأ فإن أميرها ليث بن سعد
وكان الليث ثريا كريما ، ومع فقهه وتدينه كان يأخذ بنصيبه فى
الحياة الدنيا التى لم يحرمها الله ، وقد كتب مالك إليه يقول « بلغنى أنك
تأكل الرقاق ، وتلبس الرقاق ، وتمشى فى الأسواق » فأجابه الليث بن
سعد « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق
الح الآية » (٢) وقيل إن مالكا أهدى إليه صينية فيها تمر ، فأعادها مملوءة
ذهباً . . . كما كان يتخذ لأصحابه الفالودج ويعمل فيها الدنانير فمن أكل
أكثر من صاحبه ناله دنانير أكثر (٣)

كان الليث على حظ كبير من المال ، وقسط وافر من العلم ، وكان
يساجل مالكا بالمراسلة ، ويأخذ عليه أموراً لا يراها هو ، وقد عثرنا
على إحدى هذه الخطابات التى أرسلها الليث إلى مالك مدونة فى كتاب

(١) النجوم ، ج ٢ ، ص ٨٢

(٢) النجوم الزاهرة ، ج ٢ ، ص ٨٢

(٣) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

«اعلام الموقعين» لا بن قيم الجوزية، وفي هذه الرسالة نرى بعض المسائل الفقهية التي لا تعيننا في بحثنا هذا، ولكننا نستطيع أن نتخذ هذه الرسالة مثلاً للكتابة الدينية في هذا العصر.

تدلنا الرسالة على أن لغة التأليف التي كانت عربية ساذجة قد دخلها شيء من الصعوبة والتعقيد، ليس معنى هذا أن اللغة أصابها الفساد، بل خرجت عن سهولتها الأولى، وصارت لغة تأليف على بعد أن كانت لغة مخاطبة وحديث، واللغة لا بد لها من تغيير حتى تحتل هذا التجديد الذي طرأ على العقلية العربية، من ذلك كله نجد شيئاً من الغرابة في هذه الكتب العلمية والدينية. ونجد ضعفاً في تأليفها، ولكن عربيتها صحيحة في الغالب، فلم يبق إلا أن المؤلفين لم يتمكنوا من تأدية المعنى الذي قصدوا إليه في قالب عربي صحيح إلا بمشقة وجهد، ولهذا لا تستطيع أن تفهم هذه المتون الدينية التي كتبها المؤلفون في هذا العصر وما بعده إلا بعد شرح أو إطالة نظر. لم يشأ الليث في رسالته هذه أن ينمق كتاباته أو يزخرها بالزينة اللفظية، لأن هذه الألوان من الزينة لم تكن قد انتشرت بعد، لهذا استعمل الأسلوب العربي القديم الذي نراه في كتب الحديث وغيرها، والذي نجده في رسائل صدر الإسلام. فهو يبدأ بالسلام وحمد الله على طريقة المتقدمين ثم يدعو الله للمخاطب ولنفسه وبعد هذا كله يتعرض لموضوع الرسالة.

«سلام عليك، فإني أحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو (بعد) عافانا الله وإياك وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة، قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني، فأدام الله ذلك بكم، وأتمه

بالعون على شكره ، والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك ، وإقامتك إياها ، وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك ، فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها ، وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندي موضع وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا ، إلا أني لم أذاكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندهم ، وإني يحق عليّ الخوف على نفسي ، لاعتماد من قبلي على ما أفيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة ، وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تحب ، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ، ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ، ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني ، والحمد لله رب العالمين لا شريك له »

ثم نراه بعد ذلك يحدثه في أمور فقهية خالصة ، ويفتي له فيها . ومن هذا الخطاب يظهر لنا أثر ثقافة الليث ، فهي ثقافة عربية خالصة ، وثقافة دينية إسلامية تمثلها هذه المسائل الفقهية التي يتحدث عنها ، ثم إننا لا نجد أثرا لهذه الجمل المسجوعة ، ولا التكرار والحشو ، ولا ذلك الاطناب الذي نراه في الرسائل التي تكلف أصحابها الزينة البديعية فهذا خطاب ديني كتب بأسلوب علمي ، هو هذا الأسلوب الذي نراه في كتب الفقه . ثم نراه يختم خطابه بالدعاء لمالك ، والسؤال عنه وعن

آله وحاله « وأنا أحب توفيق الله إياك ، وطول بقائك ، لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك ، مع استئناسي بمكانك ، وإن نأت الدار ، فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلى بخبرك ، وحالك ، وحال ولدك وأهلك ، وحاجة إن كانت لك ، أو لأحد يصل لك ، فأني أسر بذلك . كتبتُ إليك ونحن صالحون معافون ، والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا ، وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليكم ورحمة الله » (١)

هذا هو إمام مصر الذي أسف الشافعي على فوات لقيّته (٢) ، ولو كان تلاميذ هذا الإمام عنوا بعلمه وفقهه لكان له شأن آخر غير هذا الشأن ، ولما أهمله الفقهاء وعلما المسلمين لاسيما هؤلاء المصريين الذين كان لهم أن يفخروا بعالمهم ، ويحتفظوا بعلمه ، ولكن كانت المالكية مستأثرة بنفوس المصريين أو كما قال الليث « إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة » ثم إن الليث لم يصنف من الكتب كغيره من الفقهاء ، ولم يدون أصحابه المسائل عنه ولهذا قال الشافعي ضيعه أصحابه (٣)

ومن أكبر تلاميذ الليث بن سعد ، إسحق بن الفرات صاحب مالك وقاضى مصر والذي قال الشافعي عنه « ما رأيت بمصر أعلم منه

(١) نص هذا الخطاب في كتاب اعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، ج ٣ ، ص ٨٢

(طبع فرج الله زكى سنة ١٣٢٥ هـ)

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٣٨

(٣) الرحمة الغيثية للعسقلاني ص ٩

باختلاف الناس»^(١) وقال ابن عُسَيبَةَ « ما رأيت ببلدكم أحدا يحسن العلم إلا ابن الفرات »^(٢) وتوفي سنة ٢٠٤ هـ . وكذلك إسحق بن بكر بن مضر المصري وكان يجلس في حلقة الليث ويفتي بقوله وتوفي سنة ٢١٨ هـ^(٣) وأحمد بن يونس بن عبد الأعلى الصدفي وكان وكيل الليث ومحدثا عنه^(٤) . ونستطيع أن نقول إن أكثر فقهاء مصر الذين عاصروا الليث أمثال عبد الله بن وهب وعبد الله بن عبد الحكم وأولاده قد تفقهوا بالليث بن سعد ولكنهم كانوا يؤثرون مذهب مالك على مذهبه .

المدرسة الشافعية .

قويت المدرسة المالكية في مصر كما رأينا ، ولكن وفد الشافعي على مصر وأقام بها ، فاجتمع له المصريون ، ومنهم كثير من أنصار مالك مثل محمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيره ، فانقسم المصريون بعد أن كادوا يجمعون على آراء مالك ، فلما وجد بعض وجوه المصريين اختلاف التعاليم الشافعية عن المالكية رموا الشافعي بأشياء كثيرة ، من ذلك ما يرويه ابن خلكان عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم أنه قال « كنت أتردد إلى الشافعي ، فاجتمع قوم من أصحابنا إلى أبي — وكان على مذهب الإمام مالك — فقالوا له يا أبا محمد ، إن محمدا ينقطع إلى هذا الرجل ، ويتردد إليه ، فيرى الناس أن هذا رغبة عن مذهب أصحابه فجعل يلاطفهم ، ويقول هو حدث ، ويجب النظر في اختلاف أقاويل

(١) حسن المحاضرة ، ص ١٦٦

(٢) الكندي ، ص ٣٩٣

(٣) حسن المحاضرة ، ص ١٦٧

(٤) الكواكب السيارة ، ص ٨٣

الناس ومعرفة ذلك ، ويقول لى فى السر يابنى إلزم هذا الرجل (١) .
ويحدثنا الكندى أن عيسى بن المنكدر — الذى تولى قضاء مصر
من سنة ٢١٢ إلى سنة ٢١٤ هـ — كان يصيح بالشافعى ويقول له :
يا كذا دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد ، ورأينا واحد ، ففرقت بيننا
وألقيت بيننا الشر ! فرّق الله بين روحك وجسمك « (٢) ويحدثنا
ياقوت أن رجلا من أتباع مالك يسمى فتيان كان يناظر الشافعى كثيراً
فيظهر الشافعى عليه ، فضاق فتيان بذلك ، وشتم الشافعى شتماً قبيحاً ،
فلم يرد عليه الشافعى ، وتعصب قوم لفتيان ، فقصدوا حلقة الشافعى
حتى خلت من أصحابه ، وبقي وحده ، فهجموا عليه وضربوه ضرباً
مبرحاً ، فحمل إلى منزله ولم يزل فيه عليلًا حتى مات (٣) .

وهكذا انقسم المصريون بين فقه المالكية والشافعية ، واشتد
النزاع بين المدرستين ، حتى أدى الأمر إلى وقوع مناقشات عنيفة بل
إلى قتال أحياناً ، فقد جاء فى كتاب المغرب « وفى سنة ٣٢٦ هـ عاد أصحاب
مالك والشافعى إلى القتال فى المسجد الجامع العتيق ، وكان فى الجامع
للمالكيين خمس عشرة حلقة ، وللشافعية مثلها ، ولأصحاب أبى حنيفة
ثلاث حلقات ، فلما زاد قتالهم أرسل الأخشيد ونزع حصرهم ومساندهم
وأغلق الجامع ، وكان يفتح فى أوقات الصلوات ، ثم سئل الأخشيد
فيهم فردهم « (٤) .

(١) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٤٥٦

(٢) الكندى ، ص ٤٣٨

(٣) معجم الأدباء ، ج ٦ ، ص ٣٩٥

(٤) المغرب فى أخبار المغرب ، ج ٤ ، ص ٢٤

من ذلك نستطيع أن نقول إن المدرسة الشافعية استطاعت أن تنافس المدرسة المالكية بمصر ، وقد هيأت الشافعية جواً جديداً في العلم لم تعهده مصر من قبل ، إذ استطاعت أن تناقش المذاهب الأخرى وأن تناظرها ، فابتدأت أذهان المصريين تتنبه لهذه المجادلات العنيفة والمناظرات الشيقة . ونحن إذا قرأنا كتاب الرسالة الذي بين أيدينا وهو كما يقول المؤرخون مكتوب في مصر ، نجد الشافعي يستعمل فيه أحياناً طريقة المناظرة ، فيتخيل شخصاً يعارضه في تفسير نص أو فتوى ، فيجيبه ويفند آراءه حتى يلزمه الحجة ، ويقنعه برأيه ، وطريقة المناظرة هذه لم تعرف قبله في مصر ، ولم نجد لها أثراً قبل الشافعي ، بل هي من آثار دراسة الشافعي في العراق والحجاز ، حيث كثر المتكلمون وأصحاب المذاهب ، وتشعبت الآراء ، وكثر الجدل بين الطوائف الإسلامية وغيرها من المذاهب الدينية الأخرى ، كمناظرة الشافعي ومحمد بن الحسن الشيباني ، والشافعي وابن علية ، ونجد الخلفاء العباسيين ووزراءهم يحضرون هذه المناظرات و يقيمونها عندهم ، أما في مصر فقد رأينا كيف كاد المصريون يعتنقون مذهباً واحداً ، ولم تكن بمصر مناظرات كثيرة تشغل العلماء ورجال الدولة كما كان في العراق ، ونرى بعض أمراء مصر لا يحبون أن تقام مناظرات بين العلماء أمامهم ، فقد قيل إنه تنازع أبو بكر بن الحداد الفقيه وبكر بن محمد القاضي المالكي وعبدالله بن الوليد ، وجرى بينهم لغط كثير في حضرة الأخشيد ، فلما انصرفوا قال « يجرى هذا في مجلسي كدت والله أن آمر بأخذ عمائمهم »^(١) ، ومهما يكن من شيء فالشافعي هو الذي شجع روح

المناظرة العلمية في مصر ، فكان يناظر بعض المصريين ليستفيد من علمهم ، كالذى يرويه السيوطى أن الشافعى كان يقول للربيع بن سليمان ياربيع أَدع لى سرجا — يريد سرج الغول وهو رجل من أهل مصر عالم باللغة ولا يقول أحد شيئاً من الشعر إلا عرضه عليه — فيأتى به ، فيذاكره وينظره ، ثم يقوم سرج الغول فيقول الشافعى ياربيع ، نحتاج أن نستأنف طلب العلم^(١) . كما كان يناظر مخالفيه من الفقهاء ، كالذى يرويه صاحب تاريخ بغداد أن صالح بن أبى صالح كاتب الليث بن سعد قال : كنا مع الشافعى فى مجلسه فجعل يتكلم فى تثبيت خبر الواحد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فكتبناه وذهبنا به إلى إبراهيم بن إسماعيل المعروف بابن علية — وكان أحد المتكلمين وممن يقول بخلق القرآن وكانت له مع الشافعى مناظرات ببغداد ، وكان مجلسه بمصر عند باب الضوال — فلما قرأنا عليه جعل يحتج لابطاله فكتبنا ما قال ابن علية ، وذهبنا به إلى الشافعى فنقضه الشافعى ، ثم كتبنا ما قال الشافعى ، وذهبنا به إلى ابن علية ، فجعل يحتج بابطال ما قال الشافعى فكتبناه ، ثم جئنا به إلى الشافعى فقال إن ابن علية ضال قد جلس عند باب الضوال يضل الناس^(٢) . وكان من أثر مناظرات الشافعى مع ابن علية أن وضع ابن علية وعيسى ابن أبان كتاباً عن الشافعى والرد عليه ، ورد عليهم ما دأبوا على الأصهبانى^(٣) وهكذا أخذ المصريون يؤلفون كتباً فى المذاهب والدفاع عنها ، وأخذوا عن الشافعى طريقته فى الكتابة العلمية إذ كان يأتى بالآية

(١) بغية الوعاة ، ص ٢٥٢

(٢) تاريخ بغداد ، ج ٦ ، ص ٢٠

(٣) شرحه ، ج ٦ ، ص ٢٢

أو الحديث ويشرحه ، ثم يستنبط منه ما ينتهي إليه رأيه ، وكان يختار من الألفاظ الجياد الدقيقة ما تلائم المعاني ، وجاء تلاميذ الشافعي فحولوا العبارة إلى نصوص علمية ، محذوفة السند ، كالمى نراها في مختصر المزني مثلاً ، فقد أخذ كلام الشافعي وفهمه وكتبه على طريقة أستاذه دون أن يأتي بالأسانيد ، فوجدت بذلك روح الكتابة عند المؤلفين المصريين .

وكان كتاب « الأم » مثلاً يحتذى رجال المدرسة الشافعية في كتاباتهم ، وهذا الكتاب ليس كتاباً واحداً ، بل هو مقسم إلى عدة كتب ، وفي كل كتاب موضوع خاص . وكما قلت كان يأتي بالآية أو الحديث فيفسره ، ويعلق عليه بجمل قصيرة متينة التركيب والأسلوب ، وفي مقدمة الرسالة نجد الشافعي يبدأ قوله بالحمد ، ويكرر في ذلك ، وهذه الطريقة لبست مصرية ، بل هي طريقة عبد الحميد الكاتب ، واستعملها كتّاب العراق في رسائلهم المطولة ثم نراه بعد ذلك يستطرد في الموضوع الواحد ، فبينما هو يحمد الله يذكر آية أو نصاً ويفسرها ، ثم يعود الى الحمد مرة أخرى ، ويكرره بالعطف ، وقد أكثر من الاستطرد وأطال ، ثم يصلى ويسلم على النبي في الديباجة ، وهذه الصلاة وذلك التسليم لم يوجد في الرسائل والكتب ، حتى جاء الرشيد فاستعمل ذلك في رسائله ، حتى عُدّت من مناقب الرشيد وقد اتبعها الكتاب بعده .

والشافعي كان فصيحاً في تعبيراته وألفاظه ، فكان لذلك أثره في تلاميذه الذين أخذوا ما كتب ورووا عنه ما قال حتى اختلف الكتاب

أخيراً في كتاب «الأم»، أهو للشافعي أم للبويطي تلميذ الشافعي (١)، والذي أراه أن تلاميذ الشافعي رووا ما في الأم عنه، وجمع البويطي ما رواه عن الشافعي، وسماه الأم، فالشافعي نفسه — في أغلب الظن — لم يسم كتابه الأم، بل كان يملئ على تلاميذه دروساً مقسمة إلى الكتب أو النصوص التي يتكون منها الأم فسمها البويطي الأم. كذلك كان الأمر في كتاب الأصول لأبي حنيفة، فإن أبا الحسن الشيباني هو الذي جمع ما في الأصول وسماه بهذا الاسم، ولكننا نلاحظ أن الشافعي كتب بعض فصول الأم بنفسه، وروى الربيع بعضها عنه وإذن فالشافعي هو صاحب الكتاب وتلاميذه هم الذين جمعوه ورتبوه حتى أخذ مظهره الحالي.

وكما أثار الشافعي في المصريين تأثيراً محسوساً، كذلك نراه يتأثر بالحياة المصرية نفسها، فالشافعي كان من مدرسة الحديث أي من تلاميذ مالك، وقد هاجم مدرسة الرأي — أي مذهب أبي حنيفة — أثناء زيارته للعراق، ولكننا نجد في مصر يهاجم مدرسة الحديث ممثلة في مذهب مالك، ويكون مذهبه الجديد في مصر. كذلك نراه قد كتب الرسالة مرتين كتبها أولاً في العراق، ثم أعاد كتابتها في مصر بعد أن غير فيها بعض التغييرات التي تلائم الحياة المصرية، وكذلك نقول عن مذهبه فقد كتبه مرتين، كتب في العراق مذهبه القديم، وكتب في مصر مذهبه الجديد، ويستطيع رجال الفقه أن يفرقوا بين المذهبين لو قدر للمذهب القديم البقاء.

(١) راجع بحث الدكتور زكي مبارك عن كتاب الأم (مطبعة حجازي بمصر

أما تلاميذ الشافعي الذين كان لهم الفضل في حفظ مذهبه ونشره.
فقد عدّهم الحافظ السلفي في قصيدة نظمها هي (١).

فعليك يا من رام دين محمد

بالشافعي وما تلاه وقالوا

أعنى محمدا بن إدريس الذي

فاق البرية رتبة وكلا

وأجب كذا عن صحبه وأحبهم

وأجلهم لله جل جلاله

فأجلهم شيخ الأئمة أحمد (٢)

فيما رواه من الحديث وقالوا

والأعني (٣) ويونس الصدفي (٤) والـ

مزني (٥) آخر من إليه مالا

(١) السكواك السيار في ترتيب الزيارة لابن الزايت ، ص ١٥١

(٢) يقصد الامام أحمد بن حنبل صاحب المذهب المعروف

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الكريم بن أعين بن ليث ولد سنة اثنتين وثمانين ومائة وتوفي سنة ٢٦٨ سمع من ابن وهب وأشهب ثم صحب الشافعي وتفقه به وحمل في محنة خلق القرآن إلى القاضي بن أبي دؤاد ببغداد ثم رد إلى مصر وانتهت إليه رئاسة المالكية بعد وفاة أبيه والشافعي وله كتاب السنن على مذهب الشافعي .

(٤) يونس بن عبد الأعلى بن موسى الصدفي المصري روى عن ابن عينة وتفقه على الشافعي وقرأ على ورش وتصدر للأقراء والفقه ولد سنة ١٧٠ ومات سنة ٢٦٤ وروى عنه مسلم والنسائي وابن ماجه وكان الشافعي يقول عنه ما رأيت بمصر أعقل من يونس بن عبد الأعلى (ابن خلكان ، ج ٢ ص ٤١٨)

(٥) أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق المزني يعتبر إمام الشافعيين وأعرفهم بطرق الشافعي وفتاويه صنف كتباً كثيرة في مذهب الشافعي منها الجامع =

وكذلك حرملة^(١) بن يحيى والـ

ـبويطى^(٢) الذى قد أعجز الاشكالا

واذكر أبا ثور^(٣) فقيهه عراقه

وفريدها والحارث البقالا

=الكبير والصغير والمختصر ومختصر المختصر والمنثور والمسائل المعتمدة وغيرها وكتابه المختصر أصل الكتب المصنفة في مذهب الشافعى وعلى مثاله كتب المؤلفون أو فسروا ما فيه (ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٧١ والفهرست ، ص ٢٩٨ — ٢٩٩) ويقول السيوطى إن الشافعى قال فى المازنى إنه لو ناظر الشيطان لغلبه (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٨) ولد سنة ١٧٥ وتوفى سنة ٢٦٤ .

(١) حرملة بن يحيى بن عبد الله التجيبى أبو حفص المصرى كان له مذهب لنفسه وصنف المبسوط والمختصر وروى عن مسلم وابن ماجة ولد سنة ١٦٠ ومات سنة ٢٤٣ (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٨)

(٢) بو يعقوب يوسف بن يحيى المصرى البويطى سمع من عبد الله بن وهب والشافعى وسمع منه كثيرون منهم أبو إسماعيل الترمذى وإبراهيم بن إسحق الحربى وفى تاريخ بغداد أن الشافعى لما مرض مرضه الذى مات فيه جاء محمد بن عبد الحكم ينازع البويطى فى مجلس الشافعى فاحتكما إلى أبى بكر الحميدى فقال لهما إنه سمع الشافعى يقول ليس أحد أحق بمجلسى من يوسف بن يحيى (يعنى البويطى) وليس أحد من أصحابى أعلم منه ، وجلس البويطى فى مجلس الشافعى (ابن خلكان ، ج ٢ ، ص ٣٤٦) وكان ابن أبى الليث الحنفى قاضى مصر يحسده ، فسعى به إلى الوائق بالله أيام محنة خلق القرآن فأمر بحمله إلى بغداد مغلولاً مقيداً وأريد منه القول بذلك فامتنع فحبس فى بغداد إلى أن مات فى القيد والسجن يوم الجمعة من رجب سنة إحدى وثلاثين ومائتين (حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٦٧) وللبويطى كتاب المختصر الكبير والصغير وكتاب الفرائض (ابن النديم ، ص ٢٩٨)

(٣) أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبى اليمان الكلبى الفقيه البغدادى صاحب الامام الشافعى وناقل الأقوال القديمة عنه له الكتب المصنفة فى الأحكام جمع فيها بين الحديث والفقه وكان أول اشتغاله بمذهب أهل رأى حتى قدم الشافعى العراق فاختلف اليه واتبعه ولكنه خالفه فى أشياء وأحدث لنفسه مذهباً اشتقه من مذاهب الشافعى وله مبسوط =

ثم الربيعان (١) اللذان تفننا
في فقهه وتحملا الأثقالا

والزعفراني (٢) الصدوق ورهطه
في كل قطر واعرف الأبطال

وأول قاض شافعي ولي مصر هو أبو زرعة محمد بن عثمان بن
إبراهيم الثقفي ولي القضاء سنة ٢٨٤ هـ ولما عزل رجع إلى دمشق ، وكان

== على ترتيب كتب الشافعي وأكثر أهل أذربيجان وأرمينية يتفقهون على مذهبه
[الفهرست ص ٢٩٧] وتوفي سنة ٢٤٠ هـ

(١) هما الربيع بن سليمان المرادي والربيع بن سليمان بن داود الأزدي الجيزي .
أما الربيع المرادي فهو أبو محمد الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي
المؤذن المصري وهو الذي روى أكثر كتب الشافعي وقال الشافعي في حقه (الربيع
راوي) [ابن خلكان ج ١ ص ١٨٤] وكان الربيع المرادي أقدم أصحاب الشافعي
بمصر محبة وأمههم محبة له [السكواك السيارة ص ١٢٢] روى عنه أصحاب السنن
الأربعة والطحاوي وأبو زرعة وغيرهم وكان يعلى الحديث بجامع ابن طولون وهو أول
من أملى به وتوفي سنة ٢٧٠ [حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٦]

أما الربيع الجيزي فهو أبو محمد الربيع بن سلمان بن داود بن الأعرج الأزدي
الجيزي صاحب الامام الشافعي ولكنه كان قليل الرواية عنه وأكثر روايته عن
عبد الله بن عبد الحكم وروى عنه أبو داود والنسائي وغيرهما وتوفي سنة ٢٥٦
بالجيزة وهو الذي ينسب اليه جمع الأم وترتيبه بعد البويطي ونلاحظ أن اسم الربيع تكرر
كثيراً في كتاب الأم فيلتبس الأمر على القارئ من من الربيعين هو المقصود وقد وفق
الأستاذ زكي مبارك إلى التفرقة بين الربيع المرادي والربيع الجيزي في بحثه عن كتاب
الأم ص ٧٣ .

(٢) أبو عبد الله الحسن بن محمد بن الصباح روى المبسوط عن الشافعي على ترتيب
ما رواه الربيع وخالف في شيء يسير ولذا لا يعتمد عليه الفقهاء بل يعتمدون على ما رواه
الربيع وقد ضاع أكثر كتب الزعفراني وتوفي سنة ٢٦٠ هـ [الفهرست ص ٢٩٧]

الغالب على أهلها قول الأوزاعي ، فأبو زرعة هو الذى أدخل مذهب الشافعى دمشق ، وتبعه من بعده كثير من القضاة^(١) ، وقيل إن أبا زرعة شرط لمن يحفظ مختصر المزنى مائة دينار يهبها له^(٢) .

وهناك قاض آخر كان له أثره فى الأدب والفقه هو أبو عبيد على بن الحسين بن حرب المعروف بحربويه وهو من أهل بغداد ودخل مصر فى شعبان سنة ثلاث وتسعين ومائتين من الهجرة وظل قاضيا على مصر إلى أن عزل سنة إحدى عشرة وثلثمائة فخرج من مصر إلى بغداد حيث توفي سنة تسع عشرة وثلثمائة من الهجرة . حدث عن النسائي ، وتفقه على أبي ثور صاحب الشافعى ، وحدث فى زمن ولايته ، فلما صرف أملى على المصريين وكتبوا عنه مجالس ، وروى عنه أبو جعفر الطحاوى وأبو بشر الدولابى ، وكان له مركز قيم فى مصر حتى أنهم أخذوا أقواله أمثالا كقوله « إن البغاث بأرضكم يستنسر » قال الطحاوى كنت أذكر عنده ابن أبي عمران الحنفى فقال لى « إلى كم تقول ابن أبي عمران ، قد رأيت هذا الرجل بالعراق ، إن البغاث بأرضكم يستنسر » قال فصارت هذه الكلمة بمصر مثلاً^(٣) . وقال الطحاوى أيضا كان أبو عبيد يذاكرنى بالمسائل ، فأجبتة يوماً فى مسألة ، فقال لى ما هذا قول أبى حنيفة ، فقلت له أيها القاضى أو كلما قاله أبو حنيفة أقول ،

(١) الكندى الفضاة والولاة ص ٥٢٣ ورفع الإصر عن فضاة مصر لابن حجر

نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٢) تاريخ الاسلام للذهبي نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٣) الكندى ص ٥٢٩

قال : ما ظننتك إلا مقلداً ، فقلت له : وهل يقلد إلا عصبي فقال لي أو غبي ، فطارت هذه الكلمة بمصر حتى صارت مثلاً ^(١) . وكانت توقيعات أبي عبيد تخرج معنونة مختومة وكتبت بمصر الفاظه ، وجمعت توقيعاته وكانت محشوة فقها وبلاغة ^(٢) ولكن فقدت كل هذه التوقيعات ولم يبق منها شيء .

المدرسة الحنيفة

وضع الإمام أبو حنيفة النعمان مذهبه متأثراً بما كان في العراق من مذاهب المتكلمين وأهل الرأي ، وقد رأينا المصريين لا يقبلون من المذاهب والآراء إلا ما كان صادراً من المدينة أو مكة ، فلا نجد مصريين اهتموا كثيراً بمذهب أبي حنيفة في أول الأمر ، إنما نقل المذهب إلى مصر القضاة الذين كانوا يعينون من العراق ، ولعل أول قاض تولى مصر ممن دان بمذهب أبي حنيفة هو إسماعيل بن اليسع الكندي ^(٣) الذي ولى سنة ١٦٤ هـ ، وقد كرهه المصريون لأنه كان يذهب بمذهب أبي حنيفة ، ولم يكن أهل مصر يعرفون هذا المذهب ^(٤) حتى أن الليث بن سعد كتب إلى الخليفة يطلب عزل هذا القاضي ، ويقول « إنك وليتنا رجلاً يكيد سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

(١) الكندي ص ٢٨٥

(٢) رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر

(٣) ذكر في حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٣ إسماعيل بن سميع

(٤) الكندي ، ص ٥٧١

بين أظهرنا ، مع إنا ما علمناه في الدينار والدرهم إلا خيراً » فاضطر
الخليفة إلى عزل القاضي (١) .

وأشهر قضاة مصر الحنفيين في ذلك الوقت ، هو القاضي بكار بن
قتيبة بن عبيد الله بن أبي بردعة من نسل ابن أبي بكره الثقفي مولى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه . ولد بكار بمدينة البصرة
وأخذ الفقه عن هلال بن يحيى ، وعيسى بن أبان وغيرهما من مشايخ
البصرة ، وروى عنه أبو داؤد السجستاني ، وابن خزيمة ، وأبو عوانه
وأكثر عنه إلا ما الطحاوى فقيه الحنفية بمصر وغيرهم . ولى قضاء مصر
من قبل المتوكل ، فدخلها سنة ست وأربعين ومائتين من الهجرة ، وكان
يحدث في المسجد الجامع ، وكثيراً ما كان أحمد بن طولون أمير مصر
يجيء إلى بكار وهو على الحديث فما يشعر به بكار إلا وهو جالس إلى
جنبه (٢) . ويذكر ابن حجر عن ابن زولاق أنه كان لبكار انساس في
العلم والمناظرة ، ولما رأى مختصر المزنى ، وما فيه من الرد على أبي
حنيفة شرع هو في الرد على الشافعى ، فقال لشاهدين من شهوده
إذهبا إلى المزنى فقولوا له سمعت الشافعى يقول ما في هذا الكتاب ،
فمضيا وسمعا المختصر كله من المزنى ، وسالاه عما إذا كان هذا كلام
الشافعى ، فرد بالاجاب ، فعادا إلى بكار فأخبراه بذلك ، فقال : الآن
استقام لنا أن نقول قال الشافعى ثم صنف الرد المذكور (٣) .

(١) تاريخ الاسلام للذهبي

(٢) رفع الاصر

(٣) شرحه

وكان بكار يشتهي أن يسمع كلام المزني ، فاجتمعوا يوما في جنازة ، فأشار بكار الى أبي جعفر التل — وكان حنفيا أيضا — أن يسأل المزني عن مسألة ، فقال التل : ما رأيت أعجب من أصحابنا الشافعيين ، لهم أحاديث في تحريم قليل النبذ ، ولنا أحاديث في تحليله فمن جعلهم أولى بأحاديثهم منا بأحاديثنا ؟ فقال المزني : ليس يخلو أن يكون أحاديثكم قبل أحاديثنا أو بعدها ، فإن كانت قبلها فهكذا نقول إنها كانت محله ثم حرمت ، فما نحتاج إلى أحاديثكم ، وإن كانت أحاديثكم بعد أحاديثنا فهذا لا يقول أحد أنها كانت حلالا ثم صارت محرمة ثم حلت !! فأعجب بكار بقول المزني ، وقال سبحانه الله أن يكون كلام أدق من الشعر فهو هذا ^(١) وكان بكار يخالف أصحابه في تحليل قليل النبذ ويذهب إلى تحريمه .

ظل بكار قاضيا على مصر ، ويحدث المصريين بمذهب أبي حنيفة حتى دعاه ابن طولون إلى خلع الموفق ولعنه ، فرفض بكار فحبسه ابن طولون ، ولما طال حبسه طلب أصحاب الحديث إلى الأمير أن يأذن لهم في السماع منه ، فأذن لهم ، فكان بكار يحدثهم من طاق في السجن إلى أن توفي سنة ٢٧٠ هـ .

أما الطحاوي فهو يعد إمام المصريين ، في مذهب الحنفية لكثرة تلاميذه وخصب نتاجه ، ولد سنة ثمان وثلاثين ومائتين من الهجرة ، وصحب المزني الشافعي وتفقه به ثم ترك مذهب الشافعي وصار حنفيا ، وكان كاتباً للقاضي بكار ، وسمع الحديث منه ومن خلق من المصريين ، ومن الغرباء

القادمين ، وتوفي سنة ٣٢١ هـ ، بعد أن ترك عدة كتب في الفقه ، أولع الناس بها لا سيما كتابه « المختصر في الفقه » الذي وضع له الفقهاء شروحاتها عدة .

واشتد تنافس المذاهب في مصر فإذا قلنا قاض شافعي كاد لأصحاب المذاهب الأخرى ، كالقاضي إسماعيل بن عبد الواحد المقدسي الذي ولي سنة ٣٢١ فقد تحدث مع الأمير تكيين فبعث صاحب الشرطة فأقام من كان بالجامع الكبير من المالكيين والحنفيين ^(١) . ويروى ابن حجر عن ابن زولاق أن الأخشيدية كلها كانت تكره ابن الحداد الفقيه لكرهتهم في الشافعية ^(٢) . وأمر القاضي الحارث بن مسكين بإخراج أصحاب أبي حنيفة من المسجد وأصحاب الشافعي وأمر بنزع حصرهم ^(٣) . وروى الكندي أن القاضي ابن أبي الليث انتهز محنة خلق القرآن فأوقع بأصحاب مالك والشافعي ومنع فقهاءهم من الجلوس في المسجد ومدحه الشاعر الحسين الجمل الأكبر بذلك ^(٤)

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحركة الدينية بمصر كانت حركة كبيرة قوية ، وأخرجت مصر عدداً كبيراً من القراء والمحدثين والفقهاء ، بجانب هذه الحركة الأدبية التي سنتحدث عنها في الفصل القادم

(١) الكندي ص ٥٤٤

(٢) رفع الاصر . والكندي ص ٥٥٥

(٣) الكندي ص ٤٦٩

(٤) الكندي ص ٤٥٠

الفصل الثاني

اللغة والتاريخ

النحاة واللغويون

رأينا كيف قامت بمصر مدرسة دينية خالصة ، استمرت منذ الفتح في نشاط ودأب ، ولم نر في القرن الأول أثراً لهذه الدراسات الأدبية واللغوية التي كلف بها العراقيون وغير العراقيين من الشعوب الإسلامية ، ولكننا نجد تطوراً في القرن الثاني الهجري ، إذ قامت بمصر دراسات أدبية ونحوية ولغوية ، واطرد نمو هذه الدراسات حتى غمرت مصر وفاضت على غيرها من بلدان المغرب ، ونبغ عدد كبير من علماء المصريين ، وكثرت المؤلفات العلمية التي أفادت المصريين كما استفاد منها غير المصريين .

فمن النحاة الذين كان لهم أثر محمود في مصر بنو ولاد ، وأشهرهم الوليد بن محمد التميمي النحوي المشهور بولاد . كان الوليد نحويًا مجوداً ، روى عن القنبي وأبي زرعة المؤذن كُتِبَت اللغة والنحو ، وأصله من البصرة ، ونشأ بمصر ، ودخل العراق ، ولم يكن بمصر شيء من كتب النحو واللغة قبله ، وأخذ عن المهلب تلميذ الخليل بالمدينة ثم عن الخليل نفسه (١) . وتوفي سنة ثلاث وستين ومائتين من الهجرة ومحمد بن ولاد التميمي الذي أخذ عن الدينوري النحو والأدب ، ثم رحل إلى العراق ، وأخذ عن المبرد وثلعب ، وكان يؤدب ابن صاحب

خراج بغداد^(١)، ولـكنه عاد إلى مصر يعلم الناس ، ووضع كتابه « المنمق في النحو » توفي سنة ثمان وتسعين ومائتين من الهجرة وقد بلغ الحسين من عمره . ثم رحل ولده أبو العباس أحمد بن محمد بن ولاد إلى العراق ، وأخذ النحو عن الزجاج ، وعاد إلى مصر وألف كتابه « المقصور والممدود » بها ؛ وكان الزجاج يعرف فضل أحمد هذا ، ويثني عليه عند كل من قدم من مصر إلى بغداد ، فكان يقول لهم : لي عندكم تلميذ من صفته كذا وكذا . فيقال له : أبو جعفر النحاس ؟ فيقول : بل أبو العباس بن ولاد^(٢) . وتوفي سنة اثنين وثلاثين وثلثمائة من الهجرة وأبو العباس هذا أستاذ أبي عبد الله الرباحي النحوي الأندلسي .

ووضع أحمد بن جعفر الدينوري بمصر كتابه « المهذب في النحو » وصدره بالكلام عن الخلاف بين البصريين والكوفيين ، وعزى كل مسألة إلى صاحبها^(٣) . ولم يكن نحويًا فقط بل كان أديباً يدرّس هذا النوع من العلم ، فقرأ كتب ابن قتيبة كلها على المصريين . وقد استفاد الأندلسيون من هذا الرجل ، كما استفاد منه المصريون ، فقد روى السيوطي أن محمد بن موسى بن هاشم المعروف بالأفشين القرطبي رحل إلى المشرق ، ولقي بمصر أبا جعفر الدينوري ، وأخذ عنه كتاب سيبويه رواية^(٤) ، وكان الدينوري قد أخذ كتاب سيبويه بالبصرة عن المازني وتلميذ للبرد^(٥) وتوفي سنة تسع وثمانين ومائتين .

(١) شرحه ص ١١٢

(٢) شرحه ١٦٩

(٣) معجم الأدباء ، ج ١ ص ٣٨٢

(٤) بقية الوعاة للسيوطي ص ١٠٨

(٥) شرحه ص ١٣٠

✓ أما أبو جعفر النحاس أحمد بن محمد بن إسماعيل فقد نبغ في النحو واللغة ، وحقق القرآن وما يتعلق به ، وألف في ذلك كتباً كثيرة ، نذكر منها « كتاب معاني القرآن ومنسوخه » كما ألف في النحو واللغة والأدب نذكر من ذلك كتبه « المبتهج في اختلاف البصريين والكوفيين » و « أدب الكتاب » و « شرح المعاني السبع » و كتاب « طبقات الشعراء » ويروى ابن خلكان أن أبا جعفر النحاس فسر عشرة دواوين وأملأها على تلاميذه بمصر^(١). وكان في مصر محمد بن حسان النحوى الذى روى النحو عن أبي زرعة المؤذن وروى عن عبد الملك بن هشام مغازى ابن اسحق ومات سنة اثنتين وسبعين ومائتين^(٢).

وكذلك نسمع عن محمد بن اسحق بن أسباط الكندى أبى النضر المصرى النحوى ، أخذ عن الزجاج وله كتاب في النحو سماه « العيون والنكت » وقال ياقوت : إنه نزل أنطاكية ثم صار إلى مصر وكان شيخ أهل الأدب بها ، وله تقدم في المنطق وعلوم الأوائل وله « المغنى في النحو^(٣) ». وكذلك محمد بن عبد الله بن محمد بن سلم وهو المعروف بالملطى وكان نحويّاً يعلم أولاد الملوك النحو ومات سنة ثلاث وثلثمائة^(٤).

وبجانب هؤلاء الأدباء والعلماء المصريين الذين رحلوا في طلب العلوم العربية ، نجد علماء العراق وغير العراق يزورون مصر ويروون بها علومهم ، وكان من أثر ذلك أن وجدت في مصر نهضة أدبية علمية ، جعلت لها مركز الزعامة في القرون التالية ، فقد جاء مصر

(١) ج ١ ، ص ٢٩

(٢) بغية الوعاة ، ص ٣٨٧

(٣) بغية الوعاة ، ص ٢١

(٤) شرحه ، ص ٦٠

أبو محمد عبد الملك بن هشام صاحب السيرة وتوفي بمصر سنة ٢١٨ هـ ونراه في السيرة قد تأثر بمصر فقد روى عن علماءها أمثال ابن وهب وابن لهيعة وكان ابن هشام إماماً في اللغة والنحو ، وقد اجتمع به الشافعي حين ورد مصر وتناشدا كثيراً من أشعار العرب (١) . ووفد عليها أبو العباس الناشيء الأكبر « وكان نحوياً عروضياً متكلماً متبحراً في عدة علوم من جملتها المنطق ، وكان بقوة علم الكلام قد نقض علل النحاة ، وأدخل على قواعد العروض شبهها ، ومثلها بغير أمثلة الخليل » (٢) . وتكسب بعلومه هذه في مصر كما سنرى في حديثنا عنه شاعراً .

وجاء مصر محمد بن موسى الواسطي ، وكان من أهل العلم باللغة وتفسير القرآن ومات بمصر سنة ٣٢٠ هـ (٣) . ويموت بن المزرع قدم مصر مراراً كان آخرها سنة ثلاث وثلثمائة (٤) ولعله في إحدى زياراته أوفى هذه الزيارات كلها روى بمصر كتب خاله أبي عثمان الجاحظ . وكذلك زار مصر محمد بن زيد بن يضحويه بن الهيثم البردعي وروى عنه بمصر ابن يونس المؤرخ وأبو القاسم الطبراني ، وأصله من أذربيجان نزل مصر فاستوطنها ، وكان كثير العلم متفنناً في الأدب واللغة والشعر وكان ثقة أميناً (٥) .

ويحدثنا ياقوت أن المصريين ما كانوا يعرفون شيئاً من شعر

(١) حسن المخاضره ، ص ١ ص ٣٦

(٢) ابن خلكان ، ج ١ ، ص ٢٦٣

(٣) بغية الوعاة ، ص ١٠٩

(٤) الأنساب للسمعاني ، ص ٢١

(٥) بغية الوعاة ، ص ٤٣

الطرماح بن حكيم ، فلما قدم ابن جرير الطبرى مصر سأله على بن سراج المصرى أن يملئ شعر الطرماح ، فجلس ابن جرير عند بيت المال يملئه ويفسر غريبه . (١)

وفي سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة جاء مصر أحمد بن عبد الله بن مسلمة بن قتيبة ، فدخل عليه أصحاب الحديث يسألونه أن يحدثهم ، فقال : ما معى إلا كتب أبى وأنا أحفظها فإن شئتم سردها عليكم . فلما عرف الناس ذلك قصدوه ، فصار مجلسه غاصاً بفنون الناس ممن يطلب العلوم والآداب ، وقصده أبو جعفر النحاس وابن ولاد وأبو مخاضم المظفر بن أحمد ووجوه البلد (٢) .

كذلك وفد على مصر محمد بن أحمد بن على من ولد المهلب بن أبى صفرة المعروف بالمهلبى النحوى ، قال عنه الزبيدى : إنه كان عالماً نحوياً لغوياً ثقة (٣) ومات بمصر سنة ٣٤٩ هـ .

وهنا أتساءل هل استطاع هؤلاء العلماء أن يتخذوا لأنفسهم مذاهب نحوية تختلف عن مذاهب الكوفيين والبصريين والبغداديين ؟ وهل هناك فرق بين آراء النحويين المصريين والنحويين فى العراق ؟ أستطيع أن أجيب على هذا كله بأنه كان للمصريين آراء تختلف بعض الشيء عن آراء العراقيين . وأترك تفصيل ذلك كله إلى البحث الذى سأنشره قريباً عن « مدرسة النحو فى مصر » .

(١) معجم الأدباء ج ٦ ص ٤٣٣

(٢) رفع الاصر عن قضاة مصر لابن حجر (نسخة خطية رقم ١٠٥ بدار الكتب المصرية)

(٣) بنية الوعاة ، ص ١٤

المؤرخون

ظهر في مصر عقب الفتح لون من الدراسات الإسلامية وإن شئت فهو من العلوم العربية ، وهو القصص ، فظهر القصص الديني بمصر سنة تسع وثلاثين هجرية ، وكان أول من قص بمصر هو سليم بن عتر التجيبي الذي تولى القضاء بمصر مدة طويلة ^(١) كان هذا القصص سببا في موضوع آخر هو التاريخ ، وقد عني المسلمون منذ الفتح بأمر تاريخ مصر ، لأنها ذكرت كثيرا في القرآن الكريم ، كما روى عن النبي أحاديث كثيرة عن مصر وأهلها ، والمسلمون يعلمون أن إحدى زوجات النبي كانت مصرية ، وأن بعض الأنبياء والرسل كان لهم شأن في مصر ، عرف المسلمون هذا كله ، ورأوا بعد الفتح أشياء لم يروا مثلها كالحرم والمقابر الأخرى التي عرفت بمصر باسم « البرابي » وكان عند العرب هذا القصص الذي يحدّثهم عن القدماء فشغفوا بالتاريخ وروايته ، وزخرفوا أقوالهم بشيء كثير من القصص الخيالية التي تثير الضحك أحيانا ، ووضعوا من عندهم أخبارا بعيدة كل البعد عن الصحة ، وكانت هذه الأخبار كلها أساسا لكتب التاريخ ، التي ظهرت بمصر ، وغذى هذه الحركة بمصر وجود عدد من الأخباريين وأصحاب المغازي مثل محمد بن إسحق صاحب السيرة ، وعبد الملك ابن هشام راويها ومحمد بن أبي الليث الذي كان وراقا على باب الواقدي ^(٢) ثم وفد عليها ابن جرير الطبري مرتين ، والمسعودي ، وعن مؤرخي مصر

(١) الولاة والقضاة للكندي ، ص ٣٠٧

(٢) الكندي ص ٤٤٩

نقل ابن جرير كثيرا في كتابه وابن هشام في السيرة . وغيرهما من المؤرخين . ووضعوا عن مصر كتباً عديدة .

ولعل أكثر الكتب القديمة تضليلاً وتخبطاً هو كتاب « فتوح مصر » الذى يسنده بعض المؤرخين إلى ابن إسحق الأموى ، ويسنده بعضهم الآخر إلى الواقدي ، وإن كنت أرجح أن للواقدي كتاباً غير الكتاب الذى ينسب إلى ابن إسحق . ويتجلى ذلك فى الاختلاف الذى بين الكتابين .

كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم :

وهناك كتاب آخر لمؤلف مصرى له قيمته وأثره . إذ لا أكاد أعرف مؤرخاً كتب عن مصر دون أن يذكر هذا الكتاب ، أو يأخذ عنه ، لهذا كان كتاب « فتوح مصر » مصدراً هاماً من مصادر تاريخ مصر منذ الفتح ، كما أنه يمثل لنا ناحية أخرى من نواحي التأليف العلمى بمصر فى هذا العصر ، فقد رأينا الحركة العلمية والنشاط الفكرى كانا متجهين إلى العلوم الدينية فى أول الأمر ، ثم أضيف إليها العلوم العربية الخالصة ، كما اتجه المصريون إلى القصص والعلوم التاريخية ، وقد لعبت يد الخيال فى هذه الأخبار التاريخية ، فأخرجتها عن جادة الحق ، ولكنها تمثل لنا عقلية العرب الذين كانوا يأخذون كل ما يروى لهم دون أن يحاولوا تحقيقه .

هذا النوع من العلوم كان عربياً خالصاً ، اهتم به الجاهليون والمسلمون ، وأخذ به بعضهم عن بعض حتى دون فى القرن الثالث الهجرى ، ومن أوائل المدونين للتاريخ ابن عبد الحكم المصرى صاحب « فتوح مصر » .

اختلف في اسم كتابه ، فصاحب كشف الظنون يقول إن اسمه « فتوح مصر والمغرب »^(١) والأستاذ تورى ناشر الكتاب يقول إنه « كتاب فتوح مصر وأخبارها » ، وابن خليكان يقول إنه « فتوح مصر »^(٢) فقط . ووافقه على ذلك أبو المحاسن في مواضع كثيرة من كتابه « النجوم الزاهرة » ، ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فإن الكتاب وضع في فتح مصر مع ذكر شيء من أخبارها كما سنرى .

أما مؤلف الكتاب فهو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم بن أعين بن ليث بن رافع القرشي ، فهو عربي قرشي ، ولعل أهله جاءوا مصر أيام الفتح وحلوا بها ، حتى تمصروا فلقب كل منهم بالمصري . كان لأسرة بني عبد الحكم شأن كبير في مصر في القرن الثالث الهجري ، إذ استطاعوا أن يؤثروا في الحياة السياسية المصرية ، كما كان لهم أثر كبير في الحياة العلمية ، فقد كان ^{أبو} عبد الله بن عبد الحكم (١٥٥ — ٢١٤ هـ) ممن نالهم وفرة من المال ، ونصيب كبير من العلم ، وصار رئيسا للمدرسة المالكية بمصر ، وقد اعترف المالكيون له بالفضل والعلم والرئاسة ، وقد ساعد هذا الرجل الإمام الشافعي حين قدم مصر ، فأعطاه ألف دينار من ماله الخاص ، وجمع له ألفين من بعض وجوه مصر^(٣) ، وأخذ ابنه محمد بن عبد الله الفقه المالكي عن أبيه وعن أشهب وصار أحد علماء مذهب مالك ، ولما أتى الشافعي مصر لزمه محمد ، وكان الشافعي يعجب به ويقربه ،

(١) كشف الظنون ، ج ٤ ، ص ٣٩٦

(٢) ابن خليكان ، ج ١ ، ص ٢٤٩

(٣) ابن خليكان ، ج ١ ، ص ٢٤٨

قال المزني : كنا نأتي الشافعي نسمع منه ، فنجلس على باب داره .
ويأتي محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فيصعد ويطلب المكث وربما
تغدى معه ، ثم نزل فيقرأ علينا الشافعي ، فإذا فرغ من قراءته ، قرّب
إلى محمد دابته فركبها ، وأتبعه الشافعي بصره ، فإذا غاب شخصه قال
« وددت أن لي ولداً مثله ، وعلى ألف دينار لا أجد لها قضاء » (١)
وكان محمد يطمع في رئاسة المدرسة الشافعية ، ولكنها انتقلت منه إلى
البويطي ، فنحول هو عن الشافعية وخلف أباه في رئاسة المدرسة
المالكية ، كذلك نقول عن عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم ،
وسعد بن عبد الله بن عبد الحكم ، فقد كان لهما شأن في الدراسات
الدينية بمصر

أما عبد الرحمن بن عبد الله صاحب كتاب فتوح مصر فكان
من أهل الحديث والرواية ، وشغف بالقصص والأخبار ، وكلف
بالتاريخ ، فكان من أثر هذا كله أنه وضع كتابه « فتوح مصر »
وهكذا كانت هذه الأسرة مجدة في التحصيل والدرس ، جادة في
التأليف والرواية ، ولكنهم أصيبوا بكوارث طوحت بهم ؛ ففي سنة
٢٢٧ هـ جدد الخليفة الواثق أمر محنة خلق القرآن ، وحُمل محمد بن عبد الله
إلى بغداد كي يمثل أمام القاضي أحمد بن أبي دؤاد الأيادي ، ويقر
أمامه بخلق القرآن ، ولكن محمداً رفض ذلك ، فأهين وعذب ، حتى
أعيد إلى مصر ، وفي سنة ٢٣٧ هـ ورد كتاب المتوكل بأخذ بني عبد الحكم
وغيرهم في أموال عبد العزيز الجروي الذي ثار بمصر ، فحكم على بني

عبد الحكم بألف ألف دينار ، ونادى المنادى فى أموال الجروى هذه وكشفها ؛ فمن كتمها ضرب خمسمائة سوط ، وهدمت داره ، فأقر عبد الحكم بن عبد الله بمال عنده ؛ فبعث به إلى منزله فلم يُخرج شيئاً ، فعذب حتى مات فى السجن محتقناً من دخان كثيف سلط عليه فى السجن ، واستقصيت أموال بنى عبد الحكم ، ونهبت منازلهم ، حتى جاء أمر المتوكل بإطلاقهم^(١) . ولكنهم ظلوا بعد ذلك مضطهدين لا يسمع لهم قول ولم نعد نسمع عنهم ذكراً .

بعد عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم من أقدم مؤرخى الإسلام فى مصر الذين وصلت إلينا كتبهم . كان كلفاً برواية الأخبار من ثقات المصريين أمثال والده عبد الله ، ويحيى بن بكير ، وعثمان بن صالح كاتب الليث ابن سعد ، وغيرهم ، وعنه أخذ القاسم بن حبيش ، وأبوسلمة التجيبى ، وابن قديد وغيرهم . وإذا عرفنا أن ابن قديد أحد رواة ابن عبد الحكم كان من أهم المصادر الذين استقى عنهم الكندى كتابيه «الولادة» و«القضاة» أدركنا بسهولة السبب الذى من أجله نرى فى كتاب الكندى مقطوعات كثيرة مذكورة فى «فتوح مصر» مع أننا نعلم أن الكندى كان يحاول أخذ الأخبار من نفس المصادر التى استقى منها عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم ، ومع ذلك فالكندى اتخذ كتاب فتوح مصر أساساً لكتابيه ، لاسيما فى الفصل الذى عقده ابن عبد الحكم عن القضاة فى مصر .

كان ابن عبد الحكم معاصراً لمؤرخين من أشهر وأقدم مؤرخى الإسلام ، ولكننا نرى ابن عبد الحكم يمتاز عن معاصريه بأنه أوجد

فإنّ أجديداً في التاريخ الإسلامي هو فن « الخطط والأخاذه » وهذا النوع من التاريخ لم يكتب فيه أحد قبل المصريين ، ولا نعرف أحداً كتب فيه قبل ابن عبد الحكم ، ولم يوفق المقرئ في قوله « إن أول من رتب خطط مصر وآثارها وذكر أسبابها في ديوان جمعه هو أبو عمر محمد بن يوسف الكندي ، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي كتابه المنعوت « بالمختار في ذكر الخطط والآثار » ومات في سنة سبع وخمسين وأربعمائة قبل سني الشدة فدثرأ أكثر ما ذكر » (١) لم يوفق المقرئ في هذا القول لأن ابن عبد الحكم في كتابه فتوح مصر سبق الكندي في الحديث عن الخطط .

ولعل أول ما يلفت النظر إلى كتاب ابن عبد الحكم أنه مقسم حسب الموضوعات ، فقد جعله المؤلف سبعة أبواب ، وأدرج تحت كل باب ما قيل في الموضوع الذي خص له ، فاختلف بذلك عن الطبري والمبرد والجاحظ وغيرهما من الأدباء ، فهؤلاء لم يحاولوا أن يقسموا كتبهم إلى فصول أو أبواب بل خلطوا كتبهم ، وجمعوا فيها كل شاردة وواردة ، زعماء منهم أن الأديب عليه أن يأخذ من كل شيء بطرف ، فأودعوا كتبهم كل شيء دون أن يحاولوا ترتيب هذه الموضوعات ، وقد غلب هذا النوع من التأليف على علماء العراق ، حتى كان ابن قتبية فابتدأ بترتيب كتبه ، أما في مصر فكان المؤلفون يقسمون كتبهم ، ويرتبون موضوعاتها ، حتى أن الفارابي عند ما دخل مصر ومعه كتابه « المدينة الفاضلة » ، سأله بعض الناس أن يجعل له فصولاً تدل على

قسمة معانيه ، فعمل هذه الفصول بمصر سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة^(١) .
ليس لنا أن نتحدث عما في كتاب « فتوح مصر » من أخطاء تاريخية
كان مصدرها جهل العرب والمصريين بتاريخ مصر القديم ، ورغبة
بعض الرواة في وضع أخبار عن مصر من المحقق أنها بعيدة عن
الصواب ، وقد يطول بنا الأمر لو ناقشنا هذا كله ، ويكفي أن أقول
إن أكثر هذه الخرافات في القسم الأول من الكتاب ، وهو القسم
الذي ذكر فيه فضائل مصر وتاريخها من أول أمرها إلى أن فتحها
العرب ، وأقول خرافات لأن علم الدراسات المصرية القديمة أثبت
ما يخالف ما جاء في هذا الكتاب ، ثم لهذه المبالغت التي لا يكاد
يتصورها عقل ، كوجود أشعار عربية قالها قدماء المصريين وحفروها
على آثارهم !!!

أما القسم الثاني من الكتاب ، فهو يتحدث عن فتح العرب لمصر
فذكر المؤلف شيئاً عن علاقة مصر ببعض أفراد من العرب قبل الإسلام
وعن كتاب النبي إلى المقوقس ، وجواب هذا إلى النبي عليه السلام ،
ثم ذكر الفتح العربي ، وتحدث عن مسألة اختلف فيها المسلمون منذ
القرن الأول الهجري ، وهي هل فتحت مصر عنوة أم صلحاً ، فبسط
روايات الطرفين ، دون أن يذكر رأيه ، فقد كان راوياً كغيره من
المحدثين والمؤرخين ، وفي الباب الثالث يذكر الخطط والأخاند والقطائع
وهو الفن الذي لم يسبقه غيره إليه ، وفي الرابع يتحدث عن الإدارة
في عهد عمرو وابن أبي سرح وعن فتح الفيوم وبرقة وطرابلس ، وفي

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ، ج ٢ ، ص ١٢٨ — ص ١٣٩

الخامس يذكر غزو شمال أفريقيا والأندلس ، وفي السادس يسرد أسماء قضاة مصر حتى سنة ٢٤٦ هـ ، أى قبل وفاة المزلف بعشر سنين ، وفي السابع يروى الأحاديث التى حفظها الصحابة الذين جاءوا مصر ، وقد بلغ عددهم اثنين وخمسين ، فيروى لكل منهم أحاديثه التى سمعها من النبي وكان ابن عبد الحكم يعتمد على طريقة الرواية فإن تعاليمه كانت دينية كباقي أسرته ، ولكنه اتجه إلى التاريخ والحديث مخالفاً فى ذلك باقى أسرته الذين مالوا إلى الفقه ، فكان لهذا أثره فى كتابته للتاريخ ، إذ جاءت أخبار الكتاب فى جمل قصيرة فى الغالب ، فهو لم يعالج موضوعاً يحتاج إلى فكر عميق ، وانثناء لألفاظ مخصوصة تصلح لما يكتب فيه بل كان يعتمد على الرواية والحافظة ، لهذا جاءت كتابته طبيعية سهلة لا تكلف فيها ولا مغالاة .

وما يحسن الإشارة إليه أن قبر بنى عبد الحكم ، الذى دُفن فيه هذه الأسرة العلمية بجوار قبر الامام الشافعى ، فقبة ضريح الشافعى تجمع قبر الشافعى وقبر بنى عبد الحكم ، وهكذا كان الشافعى صديقاً لهم فى حياته ، فأصبح جوارهم فى مماته .

ابن الداية وكتاب المكافأة

كنت أود أن أعرض لغير ابن عبد الحكم من المؤرخين المصريين أمثال عمار بن وسيمة المصرى المتوفى سنة تسع وثمانين ومائتين صاحب التاريخ على السنين ، وأحد تلاميذ مدرسة الليث بن سعد^(١) وابن يونس صاحب تاريخ مصر^(٢) والكندى المؤرخ المعروف وغيرهم

(١) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ ، ومروج الذهب ، ج ١ ، ص ٤

(٢) حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣١٩ وغيرها وتاريخ الطبرى فى مواضع متعددة

كالذين ذكرهم المسعودى فى مقدمة كتابه « مروج الذهب » والذين روى عنهم ابن جرير الطبرى فى تاريخه وتفسيره ، ولاكنى أترك ذلك كله لمن يتوسع فى دراسة الحياة العقلية فى هذا العصر .

ولاكن أرى أن أتحدث عن مؤرخ مصرى آخر ، عاش فى هذا العصر واتصل ببعض الأمراء المصريين ، وبمختلف طبقات الشعب ، ووضع كتباً عن هؤلاء الأمراء ، ثم تحدث فى كتب أخرى عن هذا الشعب وحاله . ذلك هو الكاتب المعروف بابن الداية . وإذا تحدثنا عن ابن الداية فسنحدث عن كتابه « المكافأة » لأنه مصدر من مصادر التاريخ والأدب ، ونستطيع منه أن نعرف حالة سكان مصر فى هذا العصر واتجاه عقولهم .

جمع الكتاب عدة قصص خلقية ، ولاكنها لم تكن خيالية ، بل هى حوادث واقعية حدثت للمؤلف ، أو لوالده ، أو لغيرهما من المعاصرين ، أو غير المعاصرين ، ويتحدث فى كل واقعة من هذه على مكافأة قدمت نظير عمل أو معروف ، فالكتاب من هذه الناحية يستحق التقدير والبحث .

ومؤلف الكتاب هو أحمد بن أبى يعقوب يوسف بن إبراهيم المعروف « بابن الداية » فإن والده يوسف بن إبراهيم كان ولد ظئر إبراهيم بن المهدي ، وأخاً للخليفة العباسى المعتصم^(١) بالرضاة فهو لم يكن مصرى الأصل ولا أدرى تماماً إذا كان عربى الأصل أم أعجمياً ، وإن كنت أرجح أنه من أبناء إماء الخليفة .

نشأ يوسف بن إبراهيم في دار الخلافة ببغداد ، وصار مع إبراهيم ابن المهدي طول حياته وتولى كتابة إقطاعاته ، حتى توفي إبراهيم في أواخر سنة ٢٢٤ هـ في خلافة المعتصم ، وأخذ قواد الخليفة من الأتراك يضيقون الخناق على العرب ومواليهم ، لم يستطع يوسف البقاء في سر من رأى ، فتركها إلى دمشق سنة خمس وعشرين ومائتين ، وهناك نزل على عيسى بن حكم الطبيب النسطوري^(١) ، ولكنه لم يشأ أن يبقى في الشام طويلا ، بل وفد على مصر ، ولما أن علم المصريون بوجوده أقبلوا عليه . لأنهم سمعوا عن علمه وأدبه ، وصادقوه فعاش بينهم ولقب بيوسف بن إبراهيم المصري ، وكان بينه وبين أحمد بن المدبر في العراق عهد صداقة ومودة ، ولكن لما تولى ابن المدبر أمر خراج مصر ، ورأى حسن ظاهر يوسف . ظن أن ذلك عن أموال جملة لديه ، فطالبه ببعض بقايا عقود انكسرت عليه ، فحبسه طويلا حتى أنقذه أبو الفوارس مزاحم بن خاقان وكانت أم زوج يوسف قد تولت تربيته مزاحم هذا^(٢) .

كان يوسف فيما يروى عنه يحب العلم والعلماء ، ويحرص على اقتناء المؤلفات المختلفة ، كما أنه وضع عدة كتب منها : كتاب « أخبار إبراهيم ابن المهدي و » كتاب الطايخ^(٣) ويحدثنا ابنه أحمد أن الأمير أحمد ابن طولون حبس يوسف بن إبراهيم ، ولا ندري سبباً لذلك ، ثم يقول إن بعض وجوه المصريين كلهم الأمير في أمر يوسف فأفرج

(١) عيون الأنباء ، ج ١ ، ص ١٢١

(٢) المكافأة ، ص ١٠٧

(٣) المكافأة ، ص ١١٥

عنه^(١) ، ولعل هذه القصة تدلنا على ما كان ليوسف من المكانة في نفوس المصريين ، كذلك كان يوسف على سعة من الرزق فقد كان يجرى بعض المال على بعض الأشراف المقيمين في مصر^(٢) .

أما مؤلف الكتاب أحمد بن يوسف ، فقد عرف عنه شغفه بالعلم ، وكلفه بالأدب ، ويروى ياقوت عن ابن زولاق « كان أبو جعفر رحمه الله في غاية الافتنان ، أحد وجوه الكتاب الفصحاء ، والحساب ، والمنجمين ، مجسطى ، اقيدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر^(٣) » ، لذلك كان أحد خواص بني طولون ، حتى عرف بكايتهم ، وقد ألف هذا الرجل جملة كتب في التاريخ والأدب نذكر منها كتاب « سيرة أحمد بن طولون » وسيرة ابنه « أبي الجيش » ، ويقول ابن زولاق « كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبي الجيش ، وأنشدا في الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه ، مع غيرهما من مصنفاته ، ثم عملت أنا ما فاتته من سيرتهما »^(٤) وله كتاب « أخبار غلمان بني طولون وكتاب « حسن العقبي » وكتاب « أخبار الأطباء » و« كتاب المكافأة » ، ولعلك تدرك من أسماء هذه الكتب أن جلها كتب تاريخ وأخبار ، ولم تكن ككتاب ابن عبد الحكم ، بل هي مجموعة أخبار وقصص تمثل الحياة التي يتحدث عنها أصدق تمثيل .

(١) شرحه ، ص ٢٥

(٢) شرحه ، ص ٤٨

(٣) معجم الأدباء ج ٢ ، ص ١٥٧

(٤) المغرب ، ص ٤

لم يكن ابن الداية كاتباً فحسب ، بل كان شاعراً ايضاً ، وروى عن نفسه فقال « كان أبو الفياض سوار بن شراعة الشاعر صديقاً لي ، ومائلاً إليّ ، فلما اعتزم على الرجوع إلى العراق سألتني أن أكتب له شيئاً من شعري ، فكتبت له مقدار خمسين ورقة ، وكان يستحسنه ويعجب به ، فصار إلى بغداد ، وعرضه على جماعة الأحرار ، وأحسن وصفي لهم بسلامة مذهبه وطهارة نيته . ودخل محمد بن سليمان مصر وقد رد البريد بها إلى أبي عبيد الله أحمد بن صالح ، فسأل عند دخوله إياها عن أحمد بن يوسف ، فأحضر أحمد بن يوسف — وكان كاتباً لأحمد بن وصيف ثم لابن الجصاص التاجرين — فقال له : تعرف أبا الفياض ؟ قال : لا . فقال لهم : ليس هذا الرجل الذي طلبت ، فأحضرت ، فلما رأني استشرف إليّ وقال : تعرف أبا الفياض ! فقلت ذكرك الله وإياه بكل صالحة ، نعم أعرفه ، وكان خلا لي . فقال : هل أنشدك من شعره

ظلمنا بها نستنزل الدن صفوه فينزل أقباسا بغير لبيب
قلت : لا ياسيدي ، ولكني أنشدته إياه من شعري ، فضحك وقال :
« والله لقد اشتقت إلى الدخول إلى مصر من أجلك » ثم يقول
ابن الداية « وكان والله أفضل عون لي على أموري » (١) .
كذلك كان شعر ابن الداية سبباً في قيام بعض القيسية على خدمته
وخفره دون مقابل (٢) ،

(١) المكافأة ، ص ٤٤ — ٤٥

(٢) المكافأة ص ٢٠

نستطيع — كما قدمت — أن نقول إن كتاب المكافأة هذا كتاب في أدبي لما فيه من طرائف ومكانبات وأشعار ، ونستطيع أن نتخذه في ككتاب قصصى لما فيه من حوادث واقعية ، وأن نتخذه ككتاب في الأخلاق لما فيه من موعظة حسنة ، ومكافأة قدّمت نظير عمل الخير . ونرى مؤلفه يقسمه إلى أبواب وفصول ، فيجعل قسما للمكافأة على الحسن أو مكافأة على معروف صنعه ، وختم هذا القسم ببند عن أفلاطون ، أما القسم الثانى فهو الجزء على ما يبدر من الإساءة ، ثم أردف ذلك بفصل عمّن ابتلى فصبر ، فكان ثمرة صبره حسن العقبي ، وختم هذا الفصل بطائفة من كلمات مأثورة لبعض الحكماء من الفرس واليونان ، مما يدل على أن ابن الداية كان يلم ببعض الآداب الفارسية واليونانية ، ويحفظ كثيراً من كلمات الفرس واليونان ، ويستعمل ألفاظا غير عربية في كتابانه كقوله « إن ديوانيان خالد » بمعنى كتاب الديوان ، ولفظ « تليس » بمعنى الحقيقة ، وهو في هذا يشارك غيره من الكتاب والأدباء فقد نقلت الكتب اليونانية والفارسية إلى العربية ، واستطاع المسلمون أن يعرفوا شيئاً من الآداب والعلوم الأجنبية ، ويمزجوا بين هذه الآداب والعلوم الدخيلة والآداب والعلوم العربية ، فكان كتاب المسلمين يزينون كتاباتهم باقتباس حكم الفرس واليونان ، وهذا ما نراه واضحاً في الكتب العربية أمثال كتب الجاحظ وابن قتيبة وابن الداية وغيرهم .

نرى ابن الداية يبدأ كتابه بالدعاء فيقول « سدد الله فكرك ، وأحسن أمرك ، وكفأك مهمك » وإذا رجعنا قليلاً إلى كتب الجاحظ

في « البيان والتبيين » و « الحيوان » وغيرهما وجدناه يتبع هذه الطريقة في ابتداء الكتب ، وهي أيضا الطريقة الشائعة عند كتاب العراق في ذلك العصر ، ولعلها نقلت إلى مصر فعرفها المصريون كغيرها من الفنون التي أخذها المصريون عن العراقيين ، ولكن كان ابن الداية يختلف عن معاصريه من الكتاب ، فإنه لم يعتمد السجع ، ومع ذلك فقد كان يتفنن في الكتابة ، حتى جاءت بعض جملة مثالا للأسلوب العربي كقوله « إني سر من أسرار والدي كتمه عن سائر الناس ، وأفضى به إليك ، وراك أهلا لستره عليه ، فلا تخفر ظنه فيه ^(١) » . وبجانب هذه الجمل المتينة التركيب نجد جملا ضعيفة غامضة لا تستقيم كتابتها مع قواعد النحو مثل قوله « وكانت أشفق النساء وأضبطهم وأحسنهم تدبيرا فيما تتولاه » ^(٢) بدلا من « وأضبطن وأحسنهن » ، وقوله « جزاء ما قدمتيه ما تسمعيه مني » ^(٣) بدلا من « جزاء ما قدمته ما تسمعيه مني » على أننا لا نقطع بأن هذا الخطأ وقع من الكاتب نفسه ، وقد يكون من خطأ النساخ أو المطبعة .

ومع هذا فالكتاب هو البقية الباقية من الكتب الأدبية التي ألقت في هذا العصر إذ لم نعثر على كتاب كامل غير هذا الكتاب .

* * *

نستطيع أن نقول إن الحياة العلمية بمصر نقلت إليها من العراق

(١) المكافأة ص ٥١

(٢) شرحه ، ص ٥٢

(٣) المكافأة ، ص ٥٢

وعاشت مصر على ما أنتجه العراقيون أو ما أخرجه المصريون تلاميذ العراقيين، كما كان للكتب التي تنقل من العراق إلى مصر قيمة خاصة يحدّثنا ابن الداية أنه عقب وفاة والده يوسف بن إبراهيم، أرسل أحمد ابن طولون من يهاجم داره، ويحضر كل صناديقه عساه يجد شيئاً من كتب العراق (١).

ومع أن مصر كانت موطن العلم والعلماء قبل الإسلام، وفيها اجتمعت ثقافات البلاد المختلفة، فإننا نجد مصر في هذا العصر الذي نؤرخه لا تعنى بشيء سوى هذه العلوم الدينية الإسلامية، ثم هذه العلوم العربية الخاصة، من نحو وصرف ورواية الأشعار، ولم تساهم مصر في العلوم الدخيلة القدر الذي ساهم به العراقيون مثلاً، ولم تنشط في مصر حركة الترجمة كما نشطت في الأقطار الأخرى، ولكن مما لا شك فيه أن المصريين كان لهم نصيب في حركة الترجمة وعلى الأخص كتب الطب والكيمياء وقد ذكرنا شيئاً من ذلك فيما قبل، كما ترجم في مصر التوراة إلى اللغة العربية، فقد روى المرحوم جورجى زيدان أن نزاعاً نشب في مصر بين طائفتين من طوائف الدين الإسرائيلى هما طائفة الربانية وطائفة القرائين، فأفادت هذه المجادلات اللغة العربية، إذ نرى رجلاً من كبار رجال الدين والعلم اليهودى هو سعيد الفيومى الإسرائيلى ينقل من العبرية إلى العربية كتب موسى الخمس وسفرى أشعيا وأيوب (٢).

(١) المكافأة لابن الداية، ص ٤٨

(٢) تاريخ التمدن الاسلامي، ج ٢، ص ٧٥

أما الكتب الفلسفية والمنطقية وغيرها وعلوم الفرس والهند فلم
ينشط لها المصريون في هذا العصر بالقدر الذي وجد في العراق، ولكنها
وصلت إليهم بعد أن نقلت إلى العربية في الأقطار الشرقية ، فتقبلها
المصريون بعد ذلك وساعدتهم في العصور التي تلي عصرنا هذا على أن
ينبغ بينهم عدد كبير من الكتاب والمفكرين .

الباب الثالث

كتاب الرسائل والانشاء

الفصل الأول

قبل الطولونيين

ظلت مصر — من الفتح الإسلامي إلى أن وليها أحمد بن طولون سنة ٢٥٤ هـ — تحت إمرة وال يعينه الخليفة ، ويساعد هذا الوالى فى تنظيم شئون البلاد عدد غير قليل من الموظفين ، وطبيعى أن تكون هناك مكاتبات بين الوالى فى مصر والخليفة فى عاصمة الخلافة ، ولابد أن تكون هناك مراسلات بين الوالى والموظفين الآخرين فى مصر ، وهذه المكاتبات لم يصلنا شىء منها ، وإن كنا نقول إنها كانت أشبه شىء بأوامر ولوائح يصدرها الخليفة أو الوالى ، وكان يكتب هذه الرسائل فى مصر كتب اب الولاية . يقول المقرئزى «لما كانت مصر إمارة ، كان بها ديوان البريد ، ويقال لمتولىه صاحب البريد ، وإليه مرجع ما يرد من دار الخلافة على أيدي أصحاب البريد من الكتب ، وهو الذى يطالع بأخبار مصر ، كما كان لبعض أمراء مصر كتب اب ينشون عنهم الكتب والرسائل» (١) ولم ينشأ فى مصر بعد ديوان الانشاء «ولم

(١) خطط المقرئزى ، ج ٣ ، ص ٣٦٨ .

يكن ديوان الإيـشاء بالديار المصرية في مدة الخلفاء ، إذ كانت الخلافة يومئذ في غاية العز ، ورفعة السلطان ، ونيابة مصر بل سائر النيابات مضمحلة في جانبها ، والولايات الصادرة عن النواب في نياباتهم متصاغرة متضائلة بالنسبة إلى ما يصدر من أبواب الخلافة من الولايات ، فلذلك لم يقع مما كتب منها ما تتوفر الدواعي على نقله ، ولا تنصرف الهمم لتدوينه ، مع تطاول الأيام وتوالي الليالي » (١) .

إذن نحن مضطرون إلى أن نمر بهذا العصر الطويل الذي يقدر بنحو قرنين دون أن نطيل الحديث عن هذه الرسائل التي كتبت إبانها ، فإن هذه الرسائل فقدت ، ولم يبق منها إلا شيء يسير جداً كهذه المكاتبات التي كانت بين عمرو بن العاص وبين الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكننا مضطرون إلى أن نتحدث عن هذه الرسالة التي يزعم بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص كتبها إلى عمر بن الخطاب ، فقد قيل إن الخليفة أرسل إلى الوالي يسأله أن يصف مصر بعد أن أتم فتحها ، فأجاب « ورد كتاب أمير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ، يسألني عن مصر ، أعلم يا أمير المؤمنين ، أن مصر تربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر ، يكنفها جبل أعبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ، ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه ذبابه ، تمدد عيون الأرض وينابيعها ، حتى إذا ما اصلختم عجاجه ، وتعظمت أمواجه ، فاض على جانبيه ، فلم يمكن التخلص من القرى

بعضها إلى بعض إلا في صغار المراكب، وخفاف القوارب، وزوارق كأنهن في الخايل ورق الأصائل، فاذا تكامل في زيادته، ونكص على عقبيه، كأول ما بدأ في جريته، وطما في درته، فعند ذلك تخرج أهل ملة محقورة، وذمة مخفورة، يحرثون بطون الأرض، ويبدرون بها الحب، ويرجون بذلك النماء من الرب، لغيرهم ما سعوا من كدهم، فناله منهم بغير جد هم، فاذا أصدق الزرع وأشرق، سقاه الندى، وغذاه من تحته الثرى، فبينما مصر — يا أمير المؤمنين — لؤلؤة بيضاء، إذا هي عنبرة سوداء، فاذا هي زمردة خضراء، فاذا هي ديباجة رقشاء، فتبارك الله الخلاق لما يشاء. والذي يصلح هذه البلاد وينميها، ويقر قاطنيتها فيها، ألا يقبل قول خسيسها في رئيسها، وألا يستأدى خراج ثمرة إلا في أوانها، وأن يصرف ثلث ارتفاعها في عمل جسورها وترعها، فاذا تقرر الحال مع العمال في هذه الأحوال، تضاعف ارتفاع المال، والله تعالى يوفق في المبدأ والمآل» (١).

ثم نجد المؤرخين يقولون إنه لما ورد الكتاب على عمر بن الخطاب قال «لله درك يا ابن العاص! لقد وصفت لي خبراً كأنى أشاهده» (٢) هذا ما يقوله المؤرخون والأدباء ولسكننا نشك في نسبة هذا الخطاب إلى عمرو بن العاص، لأننا إذا قارنا بين هذه الرسالة وبين ما رواه الأدباء والمؤرخون من أحاديث عمرو، يتبين لنا أنها لم تصدر عنه، ثم هناك ناحية فنية خالصة، ذلك أن كتاب هذا العصر اعتادوا

(١) النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٣٢

(٢) شرحه

أن يبدأوا رسائلهم بحمد الله ، أما في هذه الرسالة فشذ الكاتب عن هذه القاعدة ، ولم يحمد الله ، ثم نرى كاتب الرسالة يبدؤها بالدعاء لأمير المؤمنين ، وهذا لم نره في رسائل هذا العصر أيضا ، بل جاء الدعاء للخليفة في الرسائل متأخرا جدا ، وقد رأينا هذه الرسالة تشتمل على فقرات قصيرة مسجوعة ، يظهر فيها أثر الصنعة الفنية ، التي لم يعرفها العرب في صدر الإسلام أو أيام الأمويين ، بل جاءت نتيجة لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، وامتزاجهم بغيرهم من الشعوب الأخرى ، فاختلقت الكتابة العربية بدخول الثقافات الأجنبية في العربية .

حقيقة عرف عمرو بن العاص بالفصاحة والذكاء ، حتى أن عمر ابن الخطاب كان إذا رأى رجلا يتلجلج في كلامه يقول « خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد » ^(١) ولكن هذا كله لا يجعلنا نقول إن عمرا هو الذي كتب هذه الرسالة ، ولعل أسطع دليل نستطيع أن نقدمه لتدعيم حجتنا ، هو أن نورد صورة خطاب يقول ابن عبد ربه في العقد الفريد ^(٢) إن عمرا أرسله إلى الخليفة عمر بن الخطاب وهذا نصه :

« من عمرو بن العاص إلى عبد الله ، أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإنني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد ، فإنه أتاني كتاب أمير المؤمنين يذكر فيه ما فشالي ، وإنه يعرفني قبل ذلك لا مال ، وإنني أعلم أمير المؤمنين أنني بأرض السعر فيه رخيص ، وإنني أعالج من

(١) النجوم الزاهرة ، ج ١ ، ص ٦٤

(٢) ج ١ ، ص ٢٦

من الحرقة والزراعة ما يعالج أهله ، وفي رزق أمير المؤمنين سعة ،
والله لو رأيت خيانتك حلالاً ما خنتك ، فأقصر أيها الرجل ، فإن لنا
أحساباً هي خير من العمل لك ، إن رجعنا إليها عشنا بها ، ولعمري أن
عندك من تدم معيشته ، ولا تدم له ، فأني كان ذلك ، ولم يفتح قفالك
ولم نشرحك في عملك .

من هذا الخطاب نستطيع أن نلمس الفرق بين كتابته وكتابة
الخطاب الأول ، مما يجعلنا نرجح أن الخطاب الوصفي لم يكتبه عمرو
ابن العاص .

ويزعم بعض المؤرخين أن ديوان الإنشاء والرسائل وجد في
مصر منذ أن أنشئ بها الديوان أي منذ الفتح العربي ، وأن هذا الديوان
كان يكتب بالقبطية ثم نقل إلى العربية ، ومن يدعي ذلك لم يدرك تماماً
ماهية هذا الديوان الذي أنشئ في مصر منذ الفتح ، كما أنشئ في غير
مصر من الأقطار الإسلامية . هناك فرق بين كتابة الدواوين وكتابة
الرسائل ، فالدواوين ماهي إلا ضرب من ضروب الحساب ، وثبت يكتب
فيه أسماء القبائل والعشائر والبطون ، وما يخص كل فرد من الفئ ، لهذا
لا نستطيع أن نتخذ هذه السجلات ككتابة فنية يتعمدها الكاتب ويزينها ،
ويظهر فيها صنعتته الفنية ، فإن كتابة الديوان لا تحتاج إلى شيء من ذلك
وقد عن كتاب الخراج وكتاب المقياس ما قلناه عن كتاب
ديوان الجند .

الفصل الثاني

ديوان الإيـشاء في العصر الطولوني والإخشيدي

كان للطولونيين مطامع سياسية واسعة ، عملوا على تحقيقها ، حتى أدركوا شطرا منها فاتسعت بذلك دائرة أعمالهم ، واضطروا إلى أن يصطنعوا عددا كبيرا من الكتاب يساعدونهم في القيام بهذا العبء الثقيل ، لهذا اضطروا لولونيون إلى أن يؤسسوا ديوان الإيـشاء بمصر « فأحمد (يعني أحمد بن طولون) أول من أخذ في ترتيب الملك ، وإقامة شعار السلطنة بالديار المصرية ولما شـمخ سلطانه ، وارتفع بها شأنه ، أخذ في ترتيب ديوان الإيـشاء ، لما يحتاج إليه في المكاتبات والولايات » (١)

وأول من تولى ديوان الإيـشاء بمصر هو أبو جعفر محمد بن أحمد ابن مودود المعروف بابن عبدكان ، ولم يصلنا عن حياة هذا الرجل شيء ، وكل الذين ذكروه اكتفوا بمدحه وذكر كفايته ، فابن النديم يقول « كان بليغاً مترسلاً فصيحاً » (٢) ويقول القلقشندي « كان ممن اشتهر من كتّابهم (أي كتاب الطولونيين) بالبلاغة وحسن الكتابة ، أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود ابن عبدكان كاتب أحمد بن طولون

(١) صبيح الأعشى ، ج ١١ ، ص ٢٨

(٢) الفهرست ، ص ١٩٧

وكان مبدأ الكتاب المشهورين بها^(١) ، وفي مكان آخر يقول « واستكتب ابن عبدكان ، فأقام منار ديوان الإيـشاء ، ورفع مقداره »^(٢)

إذن تكاد تجمع النصوص التي وصلتنا عن ابن عبدكان أنه كان ماهرا في صناعته ، بليغا في كتابته ، حتى أن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبدكان ، يعنى كاتب الإيـشاء لابن طولون ويقولون بمصر كاتب ومحرر ليس للأمير المؤمنين بمدينة السلام مثلهما^(٣)

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة ، فإنه يدل على أن رئيس ديوان الإيـشاء بمصر في العصر الطولوني كانت له شهرته في فن الإيـشاء . ولا ندرى من أين استقى ابن عبدكان علومه التي ساعدته على أن يكون زعيم الكتاب في مصر ، ولا ندرى تماما أين نشأ ، ولكننا نستطيع أن ندرك أن رجلا يشغل هذا المنصب الرفيع الذي شغله ابن عبدكان لا بد أن يكون ملما بثقافة واسعة ، تؤهله لهذا المنصب ، لا سيما أن الأمير أحمد بن طولون كان على جانب عظيم من العلم ، ولعل ابن عبدكان كان أحد الذين يصدق فيهم قول ابن خلدون « إن صاحب هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة والحشمة منهم ، وزيادة العلم ، وعارضة البلاغة ، فإنه معرض للنظر في أصول العلم ، لما

(١) صبح الأعشى ، ج ١ ، ص ٩٥

(٢) صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٢٨

(٣) صبح الأعشى ، ج ٣ ، ص ١٧

يعرض في مجالس الملوك ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك ، مع ما تدعو إليه عشرة الملوك من القيام على الآداب ، والتخلق بالفضائل مع ما يضطر إليه في الترسيل . وتطبيق مقاصد الكلام من البلاغة وأسرارها» (٤)

ولا أشك أن عددا كبيرا من الكتاب اطلعوا على رسالة عبد الحميد الكاتب ، التي وضعها نصيحة للكتاب تعيينهم في مهمتهم ، فهو يقول عن العلوم التي يجب أن يحيط بها الكاتب «فتنافسوا يامعشر الكتاب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ، والفرائض ، ثم العربية . فإنها ثقاف ألسنتكم ، ثم أجيّدوا الخط ، فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار . واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم ، وأحاديثها وسيرها فإن ذلك معين لكم على ما تسموا إليه هممكم» (١)

لكن هذه العلوم التي تحدث عنها عبد الحميد هي العلوم العربية التي كانت في عصره . إذ لم توجد بعد العلوم الإسلامية التي سميت بالعلوم الدخيلة التي كانت سببا في تطور الحياة الأدبية العربية . ففي العصور التي تلت عصر عبد الحميد نجد الكتاب يأخذون بمحظوظ مختلفة من العلوم الأجنبية . التي نقلها المترجمون إلى العربية . وأقبل المسلمون على تفهمها والأخذ منها . فقلّ أن تجد كاتباً لم يلم بالثقافة الفارسية أو الثقافة اليونانية وظهر أثر هذه الثقافات في الكتابة . ويقول الأستاذ الدكتور

(٤) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٥

(١) مقدمة ابن خلدون ، ص ٢١٦

طه حسين بك : فالكتابة في العراق وفي الحجاز نشأت عربية خالصة دعت إليها الحاجة . وكان تطورها نتيجة طبيعية لتطور العرب . ولتأثر العرب بالفرس واليونان . ولوجود هؤلاء الموالى الذين أخذوا بحظ من علوم بلادهم . ولكنهم تعلموا العربية . وكتبوا بها . فاضطروا إلى أن يدخلوا على العربية كثيراً مما ورثوه عن قوميتهم ، ومن تأمل في كتاب الدولة العباسية وجدهم جلهم من الموالى ،^(١)

أما مصر فكان لها شأن آخر فقد كانت يونانية العلم قبل الإسلام . وانتشر بها الأدب اليونانى ، والفلسفة اليونانية ، ولا أشك أن هذه الدراسات تركت أثراً قوياً في العقلية المصرية ظل عدة قرون ، فاستقر بمصر ، ولا يمكن أن يمحى إلا مع الزمن الطويل ، قد لا نجد بين المصريين من نقل من كتب اليونان الفلسفية ما نقله غيرهم ، ولم تلق كتب الفلسفة في مصر الإسلامية الاقبال الذى كان في غير مصر ، ولكن المصريين منذ عهد البطالسة كانوا يذكرون الأدب اليونانى بما فيه من شعر ونثر وقصص ، والفلسفة اليونانية بما فيها من طبيعيات وإلهيات ، وعن اليونان أخذ المصريون نظم الكتابة ، وعن المصريين أخذ العرب الذين استقروا بمصر ، فاذا كان بعض كتاب العراق تأثر بالفارسية ، وبعضهم تأثر باليونانية ، فكتاب مصر لم يتزودوا من الثقافة الفارسية إلا من كان منهم عراقى أو فارسى النشأة ووفد على مصر بعد تمام تكوينه

وكانت مصر الإسلامية تسير نحو الأخذ بحظ وافر من العلوم ، فازداد عدد المشتغلين بها يوماً بعد يوم ، فكان ذلك من الأسباب

(١) محاضرات الاستاذ الدكتور طه حسين بك سنة ١٩٣١ عن النثر العربى

التي وجهت الكتابة العربية في مصر إلى ناحية خاصة ، هي الناحية الفنية التي يتكلفها الكاتب ، ويتعمد تجميلها وزخرفتها ، وهذا ما نراه عند الكتاب الذين ظهروا في العصر الطولوني وما بعده ، كما كان ذلك سببا في أن كتاب مصر في هذا العصر كانوا يشبهون في كثير من الأحوال كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، فرسائل ابن عبد كان مثلا كانت تشبه رسائل العراقيين ، إذ ظهر في أسلوبه جنسيات غير عربية ، كما تجد ذلك في رسائل العراقيين ، لهذا تستطيع أن تلمس التغيير الواضح في هذه الرسائل التي كتبها ابن عبد كان عن هذه الرسائل القديمة التي كتبت في صدر الإسلام ، فإنك تجد في كتابة ابن عبد كان شيئا من الفن الذي يحدث لذة عند القراء وعند السامعين ، لن تجدها في كتابة المتقدمين التي لم تكتب إلا لتؤدي معنى خاصا دون مراعاة تنسيق اللفظ .

قسم ابن عبد كان رسائله إلى أجزاء أو فصول ، مثله في ذلك مثل تلاميذ مدرسة الجاحظ من كتاب العراق الذين تأثروا بالثقافة اليونانية ، كذلك يتفق الجاحظ وابن عبد كان في أن كتاباتهما تميل دائما إلى الإطناب والتطويل ، ولكنه ليس إطنابا مملا ثقيل ، بل هو فن وقدرة على الكتابة ، كما كان ابن عبد كان يدخل الدعاء حشا معترضا في كلامه ، ويتوجه إلى المخاطب بصيغة المفرد دائما ، أما جملة فقصيرة يزينها بالسجع غالبا ، ففي الخطاب الذي كتبه ابن عبد كان عن أحمد بن طولون إلى العباس بن أحمد بن طولون — حين ثار على أبيه — تتجلى صورة الكتابة العربية السليمة ، التي تأثرت بما كان

فى مصر من آثار الثقافة اليونانية وآثار الثقافة الأجنبية التى نقلت إلى العربية وهذا نص الخطاب :

من أحمد بن طولون ، مولى أمير المؤمنين ، إلى الظالم لنفسه ،
العاصى لربه ، الملم بذنبه ، المفسد لكسبه ، العادى لظوره ، الجاهل
لقدره ، الناكص على عقبه ، المركوس (١) فى فتنته ، المنجوس من
حظ دنياه وآخرته . سلام على كل منيب مستجيب ، تائب من
قريب ، قبل الأخذ بالكظم ، وحلول الفوت والندم . وأحمد الله
الذى لا إله إلا هو حمد معترف له بالبلاء الجميل ، والطول الجليل ،
وأسأله مسألة مخلص فى رجائه ، مجتهد فى دعائه ، أن يصلى على محمد
المصطفى ، وأمينه المرتضى ، ورسوله المحتبى ، صلى الله عليه وسلم
(أما بعد) فإن مثلك مثل البقرة تنثر المديّة بقرنيها ، والنحلة يكون
حتمها فى جناحيها ، وستعلم هبلتك (٢) الهوايل ، أيها اللاحق الجاهل ،
الذى ثنى على الغى عطفه ، وأغتر بضجاج المواكب خلفه ، أى موردة
هلكة بإذن الله توردت ، إذ على الله جل وعز تمردت وشردت ، فانه
تبارك وتعالى قد ضرب لك فى كتابه مثلاً « قرية كانت آمنة مطمئة ،
يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله ، فأذاقها الله
لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون » وإنا كنّا نقربك إلينا ،
وننسبك إلى ييوتنا ، طمعاً فى إنابتك ، وتأميلاً لفيئتك ، فلما طال فى
الغى إنهماكك ، وفى غمرة الجهل ارتباكك ، ولم نر الموعدة تلين

(١) الرّكس هو رد الشئ مقلوباً وقلب أوله على آخره

(٢) هبلته نكاته

كيدك ، ولا التذكير يقيم أودك ، لم تكن لهذه النسبة أهلا ، ولا
لاضافتك إلينا موصعا ومحلا ، بل لا نسكنى بأبي العباس إلا تسكرها
وطمعا بأن يهب الله منك خلفا نقلده اسمك ، ونسكنى به دونك ،
ونعدك كنت نسيا منسيا ، ولم تك شيئا مقضيا ، فانظر — ولا نظر
بك — إلى عار نسبته تقلدت ، وسخط من قبلنا تعرضت ،
واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ،
والعسا كر بحمد الله قد أتتك كالسيل في الليل ، تؤذن بحرب وبويل ،
فاننا نقسم — ونرجو أن لا نجور ونظلم — أن لا نثني عنك عنانا ،
ولا نؤثر على شأنك شأننا ، ولا تتوقل ذروة جبل ، ولا تلج بطن واد
إلا جعلناك بحول الله وقوته فيهما ، وطلبناك حيث أممت منهما ، منفقين
فيك كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى
تستمر من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت
حين لا دافع بحول الله عنك ، ولا مزحزح لنا عن ساحتك ، وتعرف
من قدر الرخاء ما جهلت ، وتود أنك هبلت ، ولم تكن بالمعصية عجلت
ولا رأى من أضلك من غواتك قبلت ، فحينئذ يتفرى بك الليل عن
صبحه ، ويسفر لك الحق عن محضه ، فتنظر بعينين لا غشاوة عليهما ،
وتسمع بأذنين لا وقر فيهما ، وتعلم أنك كنت متمسكا بجبال غرور ،
متهاديا في مقابح أمور ، من عقوق لا ينام طالبه ، وبغى لا ينجو هاربه ،
وعذر لا ينتعش صريعه ، وكفران لا يودى قتيله ، وتقف على سوء
رويتك ، وعظم جريرتك ، في تركك قبول الأمان ، إذ هو لك مبذول
وأنت عليه محمول ، وإذ السيف عنك مغمود ، وباب التوبة إليك

مفتوح ، وتتلطف والتلطف غير نافعك ، إلا أن تكون أجبت إليه مسرعا ، وانقدت إليه منتصحا .

وإن مما زاد في ذنوبك عندي ، ماورد به كتابك علىّ بعد نفوذى على الفسطاط من التوبيهات والأعاليل ، والعِـات بالأباطيل ، من مصيرك بزعمك إلى إصلاح ما ذكرت أنه فسد علىّ ، حتى ملت إلى الإسكندرية ، فأقمت بها طول هذه المدة ، واستظهرارا عليك بالحجة ، وقطعا لمن عسى أن يتعلق به معذرة علم بأن الأناة غير صادة ، ولا أنه خالجنى شك ، ولا عارضنى ريب ، فى أنك أردت النزوح والاحتيال للهرب ، والنزوع إلى بعض المواضع التى لعل قصدك إياها يؤوديك ، ولعل مصيرك إليها يكفينيك ، ويبلغ إلى أكثر من الإرادة فيك ، لأنك إن شاء الله لا تقصد موضعا إلا تلوتك ، ولا تأتى بلدا إلا قفوتك ، ولا تلوذ بعصمة تظن أنها تنجيك إلا استعنت بالله عز وجل فى جد حبلها ، وفصم عروتها ، فان أحدا لا يؤوى مثلك ، ولا ينصره إلا لأحد أمرين من دين أو دنيا . فأما الدين : فأنت خارج من جملة لمقامك على العقوق ، ومخالفة ربك وإسقاطه . وأما الدنيا فما أراه بقى معك من الحطام الذى سرقة . وحملت نفسك على الإيثار به ، ما يتهيا لك مكثرتنا بمثله ، مع ما وهب الله لنا من جزيل النعمة التى نستودعه تبارك وتعالى إياها ، ونرغب إليه فى إنمائها ، إلى ما أنت مقيم عليه من البغى الذى هو صارعك ، والعقوق الذى هو طالبك .

وأما ما منيتهناه من مصيرك إلينا فى حشودك وجموعك ، ومن دخل فى طاعتك ، لإصلاح عملنا ، ومكافحة أعدائنا ، بأمر أظهروا فيه

الشهادة بنا ، فما كان إلا بسبك ، فأصلح أيها الصبي الأخرق أمر نفسك قبل إصلاحك عملنا ، واحزم في أمرك قبل استعمالك الحزم لنا ، فما أحوحنا الله وله الحمد إلى نصرتك ومؤازرتك ، ولا اضطررنا إلى التكثير بك على شقاقك ومعصيتك « وما كنت متخذ المضامين عضدا » .

وليت شعري على من تهول بالجنود ، وتمخرق بذكر الجيوش ، ومن هؤلاء المسخرون لك ، الباذلون دماهم وأموالهم وأديانهم دونك ! دون رزق ترزقهم إياه ، ولا عطاء تدره عليهم ، فقد علمت — إن كان لك تمييز ، أو عندك تحصيل — كيف كانت حالك في الواقعة التي كانت بناحية أطرابلس . وكيف خذلك أولياؤك والمرزقة معك حتى هزمت فكيف تغتر بمن معك من الجنود الذين لا اسم لهم معك ، ولا رزق لهم على يدك ؟ فإن كان يدعوهم إلى نصرتك هيبتك والمداواة لك والخوف من سلطانك ، فانهم ليجذبهم أضعاف ذلك منا ، ووجودهم من البذل الكثير والعطاء الجزيل عندنا ما لا يجدونه عندك ، وإنهم لأحرى بخذلك . والميل إلينا دونك . ولو كانوا جميعاً معك ، ومقيمين على نصرتك ، لرجونا أن يمكننا الله منك ومنهم ، ويجعل دائرة السوء عليك وعليهم ، ويجرينا من عادته في النصر وإعزاز الأمر على ما لم يزل يتفضل علينا بأمثاله ، ويتطول بأشباهه . فما دعاني إلى الإرجاء لك ، والتسهيل من خناقك ، والاطالة من عنانك ، طول هذه المدة إلا أمران : أغلبهما كان على احتقار أمرك واستصغاره ، وقلة الاحتفال والاكتراث به ، وإني اقتصرت من عقوبتك على ما أخلقته بنفسك من الإبقاء إلى أقاصى بلاد المغرب شريداً عن منزلك وبلدك ، فريداً

من أهلك وولدك — والآخر أنى علمت أن الوحشة دعتك إلى الانحياز
إلى حيث انحزت إليه ، فأردت التسكين من نفارك ، والطمأنينة من
جأشك ، وعملت على أنك تحن إلينا حنين الولد ، وتتوق إلى قربنا توقان
ذى الرحم والنسب ، فإن فى رفقنا بك ما يعطفك إلينا ، وفى تأخيـ^{نا}
إياك ما يردك علينا ، ولم يسمع منا سامع فى خلاء ولا ملاء انتقاصا
بك ، ولا غضا منك ، ولا قدحاً فيك ، رقة عليك واستهماً ليد عندك ،
وتأملاً لأن تكون الراجع من تلقاء نفسك ، والموفق بذلك لرشدك
وحظك ، فأما الآن مع اضطرارك إياى إلى ما اضطررتى إليه من
الانزعاج نحوك ، وحبسك رسلى النافذين بعهد كثير إلى ما قبلك ،
واستعمالك المواربة والخذاع فيما يجرى عليه تدبيرك ، فما أنت بموضع
للصيانة ، ولا أهل للابقاء والمحافظة ، بل اللعنة عليك حالة ، والذمة
منك برية ، والله طالبك ومؤاخذك بما استعملت من العقوق والقطيعة ،
والإضاعة لرحم الأبوة ، فعليك من ولد عاق شاق لعنة الله ولعنة
اللاعنين والملائكة والناس أجمعين ، ولا قبل الله لك صرفاً ولا عدلاً ،
ولا ترك لك منقلباً ترجع إليه ، وخذلك خذلان من لا يؤبهله ، وأثـ^ك
ولا أمهلك ، ولا حاطك ولا حفظك ، فوالله لأستعملن لعنك فى دبر
كل صلاة ، والدعاء عليك فى آناء الليل والنهار ، والغدو والآصال ،
ولا كتبن إلى مصر وأجناد الشامات والشغور ، وقنسرين والعواصم
والجزيرة والحجاز ومكة والمدينة كتباً تُقرأ على منابرها فيك باللـ^{عن}
لك ، والبراءة منك ، والدلالة على عقوقك وقطيعتك يتناقلها آخر عن
أول ، ويأثرها غابر عن ماضٍ ، ويخلد فى بطون الصحائف ، ويحملها

الركبان ، ويُتحدث بها في الآفاق ، وتلحق بك وبأعقابك عارا ما اطرده الليل والنهار ، واختلف الظلام والأنوار . فحينئذ تعلم — أيها المخالف أمر أبيه ، القاطع رحمه ، العاصي ربه — أى جناية على نفسك جنيت ، وأى كبيرة اقترفت واجتنبيت ، وتتمنى لو كانت فيك مُسَكَّة ، أو فيك فضل إنسانية ، إنك لم تكن ولدت ، ولا فى الخلق عرفت ، إلا أن تراجع من طاعتنا والإسراع إلى ما قبلنا ، خاضعا ذليلا كما يلزمك ، فنقيم الاستغفار مقام اللعنة . والرقعة مقام الغلظة والسلام من سمع الموعدة فوعاها ، وذكر الله فاتقاه ، إن شاء الله تعالى (١) .

..

ونجد فى رسائل المصريين شيئا جديدا لم نعهده عند القدماء ، وكان له نظير عند كتاب العراق منذ القرن الثالث الهجرى ، ذلك أن المصريين كانوا يفتتحون رسائلهم بالدعاء غالبا ، فدعاء بصلاح الدنيا وغبطة الآخرة ، أو الدعاء بكبت العدو ، أو بطيب الحياة إلى غير ذلك من الأمور التى تتنوع بتنوع حال المرسل اليه ، كقول أحد الكتاب المصريين داعيا « أطال الله بقاءك فى إطالته حياة الأنام ، وأنس الأيام والليالى ، وأدام عزك ، ففى إدامته دوام الشرف ونمو المعالى ، وأتم نعمته عليك ، فإنها نعمة حلت محل الاستحقاق ، ونزلت منزلة الاستيجاب ، ووقفت على من لا تكون الآلاء مكانه ولا تنكر الفواضل محله ... الخ » (٢)

وقد نجد بعض الكتاب يكتب مطر حا الدعاء بدوام النعمة لتقيدها

(١) صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٥ ، وما بعدها

(٢) صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ١٦٠

بموجباتها، كقول أحد الكتّاب «قد كفى الله عز وجل مؤنة الدعاء لنعمته
بالنماء، لأنها توخت لديك محلمها، فحلت بفنائك سارة، مطمئنة قارة،
تستوثر مهادها قبلك، وتستهنىء مواردك عندك، ولم تزل تائقة إليك،
متطلعة نحوك، بما استجمع لها من لطيف السياسة، وحسن الاحتمال
لأعباء المغارم، فهناً كما الله متصلة البقاء، بطول مدة بقائك، ومتحلية
بحسن فنائك، فلا زلت لعوارف النعم مستدعيها، وللشكر بالزيادة
فيها بمتمريا، وبدوام الحمد لردفها مستمريا» (١)

وقد لانجد هذا ولاذاك، إذ يهجم بعض الكتاب على موضوعه
دفعه واحدة، ويكتب رسائله مفتتحا بقوله «كتابى إليك» أو «كتبت
إليك».

أما في إجابة هذه الخطابات فنراهم يبتدئون بقولهم «وصل كتابك»
ويختتمون بقولهم «إن رأيت أن تفعل كذا وكذا» أو «فرايك
في كذا وكذا» وقد أفرد القلقشندى في كتابه «صبح الأعشى» بابا عن
هذه المكاتبات التى كانت بين الأصدقاء أيام الطولونيين أو ما قاربها
وقد أتى بصور كثير من الفنون المختلفة التى ذكرنا بعضها (٢)

ومن المكاتبات التى هى من خصائص مصر، المكاتبة بالبشارة بوفاء
النيل، والبشارة فى الركوب بفتح الخيلج. ولا يشارك مصر فى ذلك
غيرها من الممالك ولا يزال القائلون بالأمر فى مصر من قديم الزمان
يكتبون بذلك إلى ولاية الأعمال (٣)، ولكن لم يصلنا شيء من المكاتبات

(١) صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٦١

(٢) صبح الأعشى، ج ٨، ص ١٦٠ — ١٦٦

(٣) صبح الأعشى، ج ٨، ص ٣٢٨

التي صدرت في العصر الذي نؤرخه عن ذلك .

ظهر عدد كبير من الكتاب أيام الطولونيّين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق كاتب موسى بن طولون ، وكان هذا الكاتب فيما يقال يعرف زيچ السندهند ، وعنده علم بالنجوم^(١) ، وجعفر بن عبد الغفار المصري ، وأحمد بن أيمن وكان كاتباً للعباس بن خالد البرمكي في حديثه^(٢) وكثير غيرهم ، وقد ذكر بعضهم ابن الداية في كتابه المكافأة . لم يكن هؤلاء الكتاب جميعهم من مصر بل كان أغلبهم من العراق فأبو يوسف يعقوب بن إسحق كان من سرمن رأى ، وابن الداية أصله من بغداد ، والحسين بن مهاجر كان من الرقة^(٣) ولكن كان ابن طولون يفضل أن يتخذ كتابه من المصريين مع قصورهم عن العراقيين ، فقد قيل إن ابن طولون استكتب جعفر بن عبد الغفار المصري ، ولكن هذا الكاتب لم يستطع أن يؤدي عمله كما يجب ، ومع ذلك احتمله ابن طولون ، وقد سأله صديقه أحمد بن خاقان عن السر في ذلك فقال له الأمير « أنا أحتمله لأنه مصري ! » فقال ابن خاقان « أراك أيها الأمير تفضل الكاتب المصري على الكاتب البغدادي ! » قال « لا والله ، ولكن أصلح الأشياء لمن ملك بلداً أن يكون كاتبه منه ، وأن يكون شمل الكاتب فيه ، فإنه يجتمع له في ذلك البلد أمور صالحة ، منها أن تكون بطانة الكاتب وحاشيته في ذلك البلد ، فيعود مرفقه على فريق من أهله ، ومنها رغبته في اعتقاد المستغلات به ، فيكون صفافاً

(١) سيرة ابن طولون لابن الداية ، ص ١٤

(٢) المكافأة ص ٩٤

(٣) المغرب في حلى المغرب ، ج ٣ ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية

لجناياته ، وهو مع هذا وشمله ظاهرون ومستقرون في خدمتي ، والكاتب العراقي ليس كذلك ، لأنه يعتقد المستغلات في بلده النائي عنه وعن ، وهو في كل وقت متطلع إلى بلده ، فهذا السبب زهدت في كتاب سر من رأى ، مع على بتقدمهم في الكتابة والرجاحة^(١).

وكان للكتاب في مصر في هذا العصر شأن كبير فيما جرى من حوادث ، وقد رأينا الكتاب الذين كانوا حول العباس بن أحمد ابن طولون من أمثال جعفر بن جدار ، وأحمد بن المؤمل ، ومحمد بن سهل المنتوف ، كانوا سبباً في قيام العباس ضد أبيه ، كما كانوا سبباً في هزيمته ، لأنهم لم يكونوا من رجال السيف ولا من رجال السياسة^(٢).

أما الذي تولى ديوان الانشاء في عهد خمارويه ، فهو علي بن أحمد المادرائي^(٣) ولكن هذا الكاتب لم يوفق إلى إرضاء خمارويه ، فتولاها إسحق بن نصير العبادي^(٤) ، ويحدثنا ياقوت أن «إسحق بن نصير الكاتب البغدادى كان كاتب الرسائل بديوان مصر بعد محمد بن عبد الله بن عبد كان»^(٥) ثم يروى عن ابن زولاق «وكان أبو جعفر محمد بن عبد الله ابن عبد كان على المكاتبات والرسائل منذ أيام أحمد بن طولون ، ومكاتباته وأجوبته موجودة إلى أن قدم عليه أبو يعقوب إسحق بن

(١) سيرة ابن طولون ص ١٥

(٢) سيرة ابن طولون ص ٥٨

(٣) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٣٧

(٤) المغرب في حلى المغرب ج ٣ مخطوط بدار الكتب ، ج ٤ ص ١٤

طبعة لندن .

(٥) معجم الادباء ج ٢ ص ٢٣٧

نصير البغدادى من العراق ، والتمس التصرف ، فقال له ابن عبد كان :
 فيم تتصرف ! فقال : فى المكاتبات والأجوبة والترسل ؛ وكان بين يدي
 أبى جعفر كتب قد وردت ، فقال له : خذ هذه وأجب عليها . فأخذها
 ومضى إلى ناحية من الدار ، فأجاب عنها ، ثم وضع خفه تحت رأسه
 ونام ، وقام أبو جعفر إلى الحجرة التى له ، فاجتاز به ، والكتب بين
 يديه ، فأخذها وقرأها ، فلما تأملها جعل يروح إسحق بن نصير حتى
 انتبه ، فقال له : عمن أخذت الكتبة ؟ وأجرى عليه أربعين ديناراً فى
 كل شهر ، فلم يزل مع أبى جعفر ، إلى أن توفى أبو جعفر وانفرد بالامر
 على بن أحمد المادرائى ، فقال لإسحق : إلزم منزلك وانصرف . فوردت
 كتب فأجاب عنها على بن أحمد ودخل على أبى الجيش خمارويه ،
 فعرضها عليه ، فقال له : ما هذه الألفاظ التى تخرج عنى ، فمضى على
 ابن أحمد وعاد إليه فما أراد أبو الجيش الجواب والاستزادة ، فخرج
 على بن أحمد وقال : هاتوا إسحق بن نصير فجيء به ، فقال : أجب عن
 هذه . فأجاب ، ودخل على بن أحمد على أبى الجيش فقرأ الأجوبة ،
 فقال : نعم هذا الذى أعرف إيش الخبر ؟ فقال له : كاتب كان مع أبى
 جعفر فاعتل وأحضرته الساعة . فقال هاتوه ! فأحضره ، فقال : كم
 رزقك ؟ قال : أربعون ديناراً ، فقال لعلى بن أحمد : اجعلها له أربعائة
 فى الشهر ، وقال لإسحق لا تفارق حضرتى . فمكث إسحق حتى صار
 رزقه ألف دينار فى الشهر ، فكان يجود بذلك ، ويفضل به على الناس
 وأرسل إلى بغداد إلى ثلاثة أنفس ، إلى أبى العباس المبرد ، وأبى العباس
 ثعلب ، وإلى وراق كان يجلس عنده ، دفعة واحدة ثلاثة آلاف دينار لكل

واحد منهم ألف دينار وتوفي هذا الكاتب سنة ٢٩٧ هـ (١)

وكان إبراهيم بن عبد الله بن محمد النجيرمي زعيم كتاب الإخشيديين ، وكان هذا الكاتب نحويًا كلفا بالعلوم العربية الخاصة ، أخذ النحو عن الزجاج (٢) وأخذ عنه بعض المصريين أمثال أبي الحسين المهلبى وجنادة اللغوى وغيرهما (٣) فكان لدراسته هذه أثر فى كتاباته ، ومن إنشائه الخطاب الذى أرسله الإخشيد إلى المانوس ملك الروم ، وكان قد ورد على الإخشيد كتاب منه ، يفخر فيه ، ويزعم أن له المنة عليه ، فلما قرىء هذا الخطاب على الإخشيد ، طلب من كتابه أن يجيبوه ، فأجاب عنه جماعة فلم يختار إلا جواب إبراهيم النجيرمي ، وكان عالماً بوجوه الكتابة (٤) وما جاء فى هذا الخطاب « من محمد بن طغج مولى أمير المؤمنين ، إلى المانوس (٥) عظيم الروم ومن يليه : سلام بقدر ما أتم له مستحقون فإننا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله ، صلى الله عليه وسلم ، (أما بعد) فقد ترجم لنا كتابك ، الوارد مع نقولا وإسحق رسوليك ، فوجدناه مفتتحاً بذكر فضيلة الرحمة ، وما نأمننا إليك ، وعمن شهننا فيها إليك ، وبما نحن عليه من

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ٢٣٧

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٦

(٣) بغية الوعاة للسيوطى ص ١٨١ ، معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨

(٤) المغرب فى حلى المغرب ج ٤ ص ١٨ طبع ليدن

(٥) هكذا فى المغرب وفى صبح الاعشى ج ٧ ص ١١ جاء إلى (ارمانوس)

وهو الامبراطور رومانوس لوكابينوس Romanus Lucapenus الذى ولى من عام ٩١٩ م

إلى عام ٩٤٤ م)

المعدلة وحسن السيرة في رعايانا ، وما وصلت به هذا القول من ذكر
 الفداء ، والتوصل إلى تخليص الأسرى ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه
 وتفهمناه . فأما ما أطنبت فيه من فضيلة الرحمة ، فمن سديد القول الذي يليق
 بذوى الفضل والنبيل ، ونحن بحمد الله ونعمه علينا بذلك عارفون ، وإليه
 راغبون ، وعليه باعثون ، وفيه بتوفيق الله إيانا مجتهدون ، وبه متواصون
 وعاملون ، وإياه نسأل التوفيق لمرشد الأمور ، وجوامع المصالح بمنه وقدرته
 وأما ما نسبته إلى أخلاقنا من الرحمة والمعدلة ، فإننا نرغب إلى
 الله جل وعلا الذي تفرد بكمال هذه الفضيلة ، ووهبها لأوليائه ، ثم
 أثابهم عليها ، أن يوفقنا لها ، ويجعلنا من أهلها ، ويسرنا للاجتهاد فيها
 والاعتصام من زيغ الهوى عنها ، وعروة القسوة بها ، ويجعل ما أودع
 قلوبنا من ذلك موقوفاً على طاعته ، وموجبات مرضاته ، حتى نكون
 أهلاً لما وصفتنا به ، وأحق حقاً بما دعوتنا إليه ، ومن يستحق الزلفى
 من الله تعالى فإننا فقراء إلى رحمته ، وحق لمن أنزله الله بحيث أنزلنا ، وحمله
 من جسيم الأمر ما حملنا ، وجمع له من سعة الممالك ما جمع لنا ، بمولانا
 أمير المؤمنين — أطال الله بقاءه — أن يبتهل إلى الله تعالى في معونته لذلك ،
 وتوفيقه وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له
 من نور » . وأما ما وصفته من ارتفاع محلك عن مرتبة من هو دون
 الخليفة في المكاتب لما يقتضيه عظم ملككم ، وأنه الملك القديم الموهوب
 من الله الباقي على الدهر ، وإنك إنما خصصتنا بالمكاتب لما تحققته من
 حالنا عندك ، فإن ذلك لو كان حقاً كانت منزلتنا كما ذكرته تقصر عن
 منزلة من تكاتبه ، وكان لك في ترك مكاتبنا غم ورشد ، لكان من

الأمر البين أن أحظى وأرشد وأولى بمن حل محلك أن يعمل بما فيه صلاح رعيته . ولا يراه وصمة ، ولا نقيصة ، ولا عيبا ، ولا يقع في معاناة صغيرة من الأمور تعقبها كبيرة ، فإن السائس الفاضل قد يركب الأخطار ويخوض الغمار ، ويعرض مهجته فيما ينفع رعيته ،

والذى تجشمته من مكاتبتنا إن كان كما وصفته فهو أمر سهل يسير ، لأمر عظيم خطير ، وجل نفعه وصلاحه وعائده تخصم ، لأن مذهبا انتظار إحدى الحسينين ، فمن كان منا في أيديكم فهو على بينة من ربه ، وعزيمة صادقة من أمره ، وبصيرة فيما هو بسبيله ، وإن في الأسارى من يؤثر مكانه من ضنك الأسر وشدة البأساء على نعيم الدنيا وخيرها لحسن منقلبه ، وحميد عاقبته ، ويعلم أن الله تعالى قد أعاده من أن يفتنه ، ولم يعذه من أن يبتليه . هذا إلى أوامر الانجيل الذى هو إمامكم ، وما توجبه عليكم عزائم سياستكم ، والتوصل إلى استنقاذ أسرائكم ، ولولا أن إيضاح القول فى الصواب ، أولى بنا من المسامحة فى الجواب ، لأضربنا عن ذلك صفحا ؛ إذ رأينا أن نفس السبب الذى من أجله سما إلى مكاتبة الخلفاء عليهم السلام من كاتبهم ، أو عدا عنهم إلى من حل محلنا فى دولتهم ، بل إلى من نزل عن مرتبتنا ، هو أنه لم يثق من منعه ، ورد ملتئمسه ، ممن جاوره ، فرأى أن يقصد به الخلفاء الذين الشرف كله فى إجابتهم ، ولا عار على أحد وإن جل قدره فى ردهم ؛ ومن وثق فى نفسه ممن جاوره ، وجد قصده أسهل السبيلين عليه ، وأدناهما إلى إرادته ، حسب ما تقدم لها من تقدم ، وكذلك كاتب من حل محلك من قصر عن محلنا ، ولم يقرب من منزلتنا فمالكننا عدة ، كان

يتقلد في سالف الدهر كل مملكة منها ملك عظيم الشأن . فمنها ملك مصر
الذي أطغى فرعون على خطر أمره ، حتى ادعى الألوهية ، وافتخر على
نبي الله موسى بذلك . ومنها ممالك اليمن التي كانت للتبابعة ، والأقيال
العباهلة : ملوك حمير ، على عظم شأنهم وكثرة عددهم . ومنها أجناد
الشام : التي منها جند حمص ، وكانت دارهم ودار هرقل عظيم الروم
ومن قبله من عظمائها ، ومنها جند دمشق على جلالته في القديم والحديث ،
واختيار الملوك المتقدمين له ، ومنها جند الأردن على جلالة قدره ، وأنه
دار المسيح صلى الله عليه وسلم وغيره من الأنبياء والحواريين . ومنها
جند فلسطين وهي الأرض المقدسة ، وبها المسجد الأقصى ، وكرسى
النصرانية ، ومعتقد غيرها ، ومجج النصارى واليهود طرا ، ومتر داود
وسليمان ومسجدهما ، وبها مسجد إبراهيم وقبره وقبر إسحاق ويعقوب
ويوسف وإخوته وأزواجهم عليهم السلام ، وبها مولد المسيح وأمه
وقبرها . هذا إلى ما تتقلده من أمر مكة المحفوفة بالآيات الباهرة
والدلالات الظاهرة ، فإننا لو لم نتقلد غيرها لكانت بشرفها ، وعظم
قدرها ، وما حوت من الفضل تؤفى على كل مملكة لأنها محج آدم ، ومجج
إبراهيم وارثه ومهاجره ، ومجج سائر الأنبياء ، وقبلتنا وقبلتهم عليهم
السلام ، وداره ^(١) وقبره . ومنبت ولده ، ومجج العرب على مر الحقب ،
ومحل أشرافها . وذوى أخطارها على عظم شأنهم ، وفخامة أمرهم ،
وهو البيت العتيق المحرم ، المحجوج إليه من كل فج عميق ، الذي يعترف

(١) نلاحظ هنا أن الضمائر لا تستقيم مع ما قبلها وأرجح أنه سقطت بعض جمل

لم تثبت في صبح الأعشى ولا في المغرب .

بفضله وقدمه أهل الشرف ، من مضى ومن خلف ، وهو البيت المعمور ،
وله الفضل المشهور .

ومنها مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم المقدسة بتربته ، وانها مهيطة
الوحى ، وبيضة هذا الدين المستقيم الذى امتد ظله على البر والبحر ،
والسهل والوعر ، والشرق والغرب ، وصحارى العرب على بعد أطرافها
وتنازع أقطارها ، وكثرة سكانها فى حاضرتها وباديتها ، وعظمتها فى
وفودها وشدتها ، وصدق بأسها ونجدتها ، وكبر أحلامها ، وبُعد
مرامها ، وانعقاد النصر من عند الله براياتها ، وأن الله تعالى أباد خضراء
كسرى ، وشرد قيصر عن داره ومحل عزه ومجده بطائفة منها

هذا إلى ما تعلمه من أعمالنا ، وتحت أمرنا ونهينا ثلاثة كراسى من
أعظم كراسيكم : بيت المقدس ، وأنطاكية ، والاسكندرية . مع ما إلينا
من البحر وجزائره ، واستظهارنا بأتم العتاد ، وإذا وفيت النظر حقه
علمت أن الله تعالى قد أصفانا بجل الممالك التى ينتفع الأنام بها ،
وبشرف الأرض المخصوصة بالشرف كله دنيا وآخرة ، وتحققت أن
منزلتنا بما وهبه الله لنا من ذلك فوق كل منزله ، والحمد لله ولى
كل نعمة .

وسياستنا لهذه الممالك قريتها وبعيدها على عظمها وسعتها بفضل الله
علينا ، وإحسانه إلينا ، ومعونته لنا ، وتوفيقه إيانا ، كما كتبت إلينا ،
وصح عندك من حسن السيرة ، وبما يؤلف بين قلوب سائر الطبقات
من الأولياء والرعية ، ويجمعهم على الطاعة واجتماع الكلمة ، ويوسعها
الأمن والدعة فى المعيشة ويكسبها المودة والمحبة .

والحمد لله رب العالمين أولا وآخرأ على نعمه التي تفوت عندنا غد العاديين ، وإحصاء المجتهدين ونشر الناشرين ، وقول القائلين ، وشكر الشاكرين . ونسأله أن يجعلنا ممن تحدث بنعمته عليه شكرا لها ، ونشرا لما منحه الله منها ومن رضى اجتهاده في شكرها ، ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها ، وكان سعيه مشكورا إنه حميد مجيد .

وما كنت أحب أن أباهيك بشيء من أمر الدنيا ، ولا أتجاوز الاستيفاء لما وهبه الله لنا من شرف الدين الذي كرمه وأظهره ، ووعدنا في عواقبه الغلبة الظاهرة ، والقدرة القاهرة ، ثم الفوز الأكبر يوم الدين ، لكنك سلكت مسلكا لم يحز لنا أن نعدل عنه ، وقلت قولا لم يسعنا التقصير في جوابه ، ومع هذا فإننا لم نقصد بما وصفناه من أمرنا مكاثرتك ، ولا اعتمدنا تعيين فضلنا نعوذ به ، إذ نحن نكرم عن ذلك ، ونرى أن نكرمك عند محلك ومنزلتك ، وما يتصل بها من حسن سياستك ومذهبك في الخير ومحبتك لأهله ، وإحسانك لمن في يدك من أسرى المسلمين ، وعطفك عليهم ، وتجاوزك في الإحسان إليهم جميع من تقدمك من سلفك ، ومن كان محمودا في أمره ، رغب في محبته ، لأن الخير أهل أن يحب حيث كان . فإن كنت إنما تؤهل لمكاتبتك ومماثلتك من اتسعت مملكته ، وعظمت دولته ، وحسنت سيرته ، فهذه ممالك عظيمة واسعة جمّة ، وهى أجل الممالك التي ينتفع بها الأنام ، وسر الأرض المخصوصة بالشرف ، فإن الله قد جمع لنا الشرف كله ، والولاء الذى جعل لنا من مولانا أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، مخصوصين بذلك إلى ما لنا بتقديمنا وحديثنا وموقعنا ، والحمد لله

رب العالمين الذى جمع لنا ذلك بمنّهِ وإحسانه ، ومنه نرجو حُسن
النسعى فيما يرضيه بلطفه ، ولم ينطو عنك أمرنا فيما اعتمدناه .

وإن كنت تجرى فى المكاتبه على رسم من تقدمك فأينك لورجعت
إلى ديوان بلدك ، وجدت من كان تقدمك قد كاتب من قبلنا من لم يحل
محلنا ، ولا أغنى غناءنا ، ولا ساس فى الأمور سياستنا ، ولا قلده مولانا
أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ما قلدنا ، ولا فوض إليه ما فوض إلينا ،
وقد كوتب أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وآخر من كوتب
تكنين مولى أمير المؤمنين ولم يكن تقلد سوى مصر وأعمالها .

ونحن نحمد الله كثيرا أولا وآخرا على نعمه التى يفوت عندنا عددها
عد العادّين ، ونشر الناشرين ، ولم نرد بما ذكرناه المفخرة ، ولسكننا
قصدنا بما عددنا من ذلك حالات : أولها ، التحدث بنعمة الله علينا ،
ثم الجواب عما تضمنه كتابك من ذكر المحل والمنزلة فى المكاتبه ، ولتعلم
قدر ما بسطه الله لنا فى هذه المسالك ، وعندنا قوة تامة على المكافأة
على جميل فعلك بالأسارى ، وشكر واف لما توليهم وتوخاه من مسرتهم
إن شاء الله تعالى وبه الثقة ، وفقك الله لمواهب خيرات الدنيا والآخرة
والتوفيق للسداد فى الأمور كلها ، والتيسير لصلاح القول والعمل
الذى يحبه ويرضاه ويشيب عليه ، ويرفع فى الدنيا والآخرة أهله
بمنه ورحمته .

وأما الملك الذى ذكرت أنه باق على الدهر لأنه موهوب لكم من
الله خاصة ، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين
وإن الملك كله لله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من

يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وإليه المصير ، وهو على كل شيء قدير .
وأن الله عز وجل نسخ مملك الملوك وجبرية الجبارين بنبوة محمد صلى الله
عليه وسلم وعلى آله أجمعين ، وشفع نبوته بالإمامة ، وحازها إلى
العترة الطاهرة من العنصر الذى منه أمير المؤمنين أطال الله بقاءه .
والشجرة التى منها غصنه ، وجعلها خالدة فيهم يتوارثها منهم كابر عن
كابر ، ويلقيها ماض إلى غابر . حتى أنجز أمر الله وعده ، وبهر نصره
وكلمته ، وأظهر حجته ، وأضاء عمود الدين بالأئمة المهتدين ، وقطع
دابر الكافرين ليحقق الحق ، ويبطل الباطل ولو كره المشركون ، حتى
يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون الخ

ولعلك تلاحظ فى هذا الخطاب هذه الصنعة الفنية التى امتاز بها
كتاب الرسائل ، فكثيراً ما كان يُستعمل التكرار ، والإسراف فى
الإطناب ، والإسهاب فى المعنى الواحد ، كما نرى هذه الجملة القصيرة
المسجوعة التى تدل على أن الكاتب أجهد نفسه فى الكتابة ، وفى
الملاءمة بين المعانى والألفاظ .

وقد أعجب النجيرمى نفسه بهذا الكتاب ، فنسخ منه نسخاً وأنفذها
إلى البصرة وأعمالها يفتخر به (١) .

ظل النجيرمى النحوى يعمل فى خدمة الإخشيديين حتى اتصل
بكافور ومدحه ، قيل إن الفضل بن العباس دخل يوماً على كافور
الإخشيدى وأبو إسحق النجيرمى عنده فقال الفضل : أدام الله أيام
سيدنا الأستاذ . ولحن فى كلامه بأن كسر الأيام ، فتبسم كافور ، فأنشد

أبو إسحق على البديهة :

لاغرو أن لحن الداعي لسيدنا

وغص من هميه بالريق والبحر

فإن يكن خفض الأيام عن دهش

من شدة الخوف لا من قلة البصر

فقد تفاءلت في هذا لسيدنا

والفأل نأثره عن سيد البشر

بأن أيامه خفض بلا نصب

وأن دولته صفو بلا كدر (١)

وقد أورد له ياقوت في معجم الأدباء بعض الأشعار ، كما نقل

الحصري في زهر الآداب كثيراً من كتاباته وأشعاره .

ونجد الكاتب محمد بن كلا يكتب للإخشيدي أيضاً (٢) ، ويسفر

بين الإخشيدي وبين ابن رائق ، وقد كان هذا الكاتب ثقة الإخشيدي

ورسوله إلى العراق ، ومع ذلك كان ممن نكبه الإخشيدي « والإخشيدي

أول من أقام الراتب ونكبه عماله وكتابه (٣) » ، قبض الإخشيدي على

ابن كلا آخر سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة ، وصادره على

ثلاثمائة ألف دينار وقبض على أهله وصادرهم ، وقبض على جماعة كانوا

في داره وصادرهم أيضاً ، ولكن ابن كلا أقسم أن لا يدفع مال المصادرة

أو يلقي الإخشيدي ويراه ، فامتنع الإخشيدي أولاً ، وأغلظ ابن كلا في

(١) معجم الأدباء ج ١ ص ٢٧٨

(٢) المغرب ص ٢٥

(٣) المغرب ص ٣٩

القسم . حتى أمر الإخشيد بدخوله عليه ، فمروا به عليلاً يتوكأ على رجلين — وكان به عرج — فنظر إلى الإخشيد ، وقال : أما أنا فقد استحيت « فأطرق الإخشيد ، وتم قبض المصادرة وأطلقه ^(١) ، ولم يصلنا عن هذا الكاتب شيء نستطيع أن نعرف قيمة كتابته . ومهما يكن من شيء فأنت ترى من ذلك كله أن النشر سهل ، واستطاع الكاتب أن يتصرف كيفما أحب ، دون أن يجد مشقة وجهداً ، كما أنا لا نجد مشقة في فهم جملة ، بل نجد استقامة في المعنى ، وخصوبة في هذه المعاني ، مما زاد في جمال الكتابة . كما أن الكتاب استطاعوا أن يعبروا عما في نفوسهم ، وما تجيش به خواطرهم بسهولة في أسلوب فني جميل يظهر فيه أثر صنعة الكاتب الفنية ، وقدرته على الكتابة في ألوان الفنون المختلفة

الباب الرابع

في الشعر

الفصل الأول

من الفتح الإسلامي إلى سقوط الدولة الأموية

وجد الشعر العربي بمصر كما وجد في غيرها من الولايات الإسلامية ، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير ، لا يكفي لأن نعرف منه خصائص الشعر المصري . ولا أن نفرق بينه وبين الشعر في الأقطار الأخرى ، قد نجد في هذه الأبيات القليلة التي وصلتنا بعض المعاني المصرية ، وبعض الحوادث المصرية ، التي تفرق الشعر المصري عن الشعر في البلاد الأخرى ويعطيه الصبغة الإقليمية المصرية ، ولكن هذه الأبيات أو المقطوعات لا تكفي لأن تدلنا على مدى تأثير الشعر العربي بالبيئة المصرية ، وإن كانت تدلنا على أنه كان بمصر شعر تأثر بالحياة المصرية ، ولكن هذا الشعر فقد ، ولم يبق منه إلا مقطوعات قليلة متناثرة في كتب الأدب والتاريخ .

وأرجح أن أسباب ضياع الشعر المصري في هذا العصر هي نفس الأسباب التي جعلت الكتابة الفنية — أي كتابة الرسائل والانشاء — تتأخر في مصر حتى قدوم أحمد بن طولون — ففي عصر الخلفاء الراشدين وعصر الأمويين والعباسيين كانت مصر ولاية ليس لها شأن

مقر الخلافة ، وإذا نبغ شاعر أو كاتب كان يُحمل إلى الخليفة أو ير حل هو إلى دار الخلافة لينال من العطاء والهبات ما كان يأخذه شعراء الخليفة أضف إلى ذلك عدم اكتراث المصريين في أول الأمر بدراسة الأدب والعلوم الأدبية ، بل كان جل اهتمامهم يكاد ينصرف إلى الدراسة الدينية الخالصة ، مما أضعف رواية الشعر ودراسته في مصر ، وسبب ضياع أكثر شعر المصريين

وإذا أردنا درس تاريخ الشعر في مصر الإسلامية في العصر الذي نؤرخه في هذا الكتاب ، فسنرى ثلاثة أدوار تطور فيها الشعر المصري تطوراََ بيّنا .

ففي الدور الأول الذي يبتدىء بالفتح إلى سقوط الدولة الأموية ، لم يصلنا في هذا العصر الذي ينوف على مائة عام إلا عدة أبيات قليلة جدا ، لا نستطيع أن نتحدث بها عن الشعر كله ، ولم تصلنا قصيدة كاملة ، إلا إذا استثنينا شعر الشعراء الوافدين على مصر ، والذين كان لهم أثر كبير في ازدياد الحياة الأدبية في مصر ، ومع ذلك فهذه الأبيات القليلة التي وصلتنا إنما تدلنا على أنه كان في مصر شعر ، وأنه لم يعن أحد روايته وحفظه ففقد .

ولعل أول قصيدة رويت في مصر هي قصيدة أبي المصعب البلوي التي هجا بها أشراف مصر ، وقد أعجب بها الخليفة معاوية بن أبي سفيان فكان إذا قدم عليه أحد من أهل مصر سأله أن ينشده هذه القصيدة (١) فالشاعر في هذه القصيدة يعيب عرب مصر أنهم حضرميون ، ليس لهم شرف ولا مجد وأنهم متكبرون ، ولست أدري سبب هذا الهجاء لكن

يخيل إلى أنه طلب نوالهم فرفضوا عطاءه .

وظلت أنادى اللكعاء قيسا ليدخلنى وقد حضر الغداء
وليس بماجد الجدات قيس ولكن حضرميات قماء
وأعرض نفحه اليربوع عنى يزيد بعد ما رفع اللواء
أشار بكفه اليمنى وكانت شمالا لا يجوز لها عطاء
أكلم عائذا ويصد عنى ويمنعه السلام الكبرياء
وجرف قد تهدم جانباه كريب ذاكم البرم العياء
وأما القحزى فذاك بغل أضرب به مع الدبر الحفاء
وهذا القصير من تجيب ولو يستطيع مانفض الخلاء (١)

يريد يزيد بن شرحبيل وقيس بن كليب الحاجب وعائد بن ثعلبة
البلوى الذى قتل بالبرلس سنة ٣٥ ، والقحزى هو عمرو بن قحزم
وكريب بن أبرهة ، وأشار بالقصير إلى زياد بن حناطة التجيبى صاحب
القصر المعروف باسمه .

ولهذا الشاعر قصيدة أخرى مدح بها عبد الرحمن بن قيسية بن
كلثوم التجيبى الذى وهب أبوه داره ليكون مسجدا بالفسطاط وقد
ضاعت هذه القصيدة ولم يبق منها سوى بيت واحد .

وأبوك سلم داره وأباحها لجنباه قوم ركع وسجود (٢)

هذا الشعر صدر من رجل لا نعرف إلا اسمه وهو قيس بن سلمة
الميكنى بأبى مصعب البلوى ، ولا ندرى أكان يقطن مصر كغيره من

(١) فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٢٣

(٢) خطط المقريزى ج ٤ ص ٥

بطون « بلى » أم وفد عليها كباقي الشعراء الذين أكثروا من الوفود على مصر لمده ولاتها .

ومن الأشعار التي وصلتنا أيضاً في تصدق عبد الرحمن بن قيسية على المسلمين بداره لبناء مسجد الفسطاط ما قاله أبو قبان بن نعيم بن بدر التجيبي .

وبابليون قد سعدنا بفتحها وحزنا لعمر الله فيئاً ومغنا
وقيسية الخير بن كاشوم داره أباح حماها للصلاة وسلمها^(١)
وفي ولاية مسلمة بن مخلد ، سنة ثلاث وخمسين من الهجرة هدم
ما كان بناه عمرو بن العاص من مسجد الفسطاط وأمر بالزيادة في المسجد
الجامع وبناء منار المساجد كلها فقال عابد بن هشام الأزدي .

لقد مدت لمسلمة الليالي على رغم العداة مع الأمان
وساعده الزمان بكل سعد وبلَّغه البعيد من الأمان
أمسَّلم فارتقى لازلت تعلو على الأيام مسَّلم والزمان
لقد أحكمت مسجدنا فأضحى كأحسن ما يكون من المباني
فتاه به البلاد وساكنوها كما تاهت بزيتها الغواني
كأن تجاوب الأصوات فيها إذا ما الليل ألقى بالحران
كصوت الرعد خالطه دوى وأرعب كل محتطف الجنان^(٢)

وكان بين الولاية من يحب الشعر ويرويه ، ومنهم من كان شاعرا كالوالى عقبة بن عامر الذي كان شاعرا ولكن منعه شدة حرصه على

(١) خطط المفريزي ج ٤ ص ٥

(٢) شرحه ج ٤ ص ٧

دينه من أن يكثر من إنشاد الشعر (١)

ولعل أكثر ولاية مصر في هذا الدور حبا للشعر والشعراء هو الأمير عبد العزيز بن مروان الذي ولى من سنة خمس وستين ، إلى أن توفي بمصر سنة ست وثمانين هجرية ، فقد اتصل به كثير من الشعراء النابهيين ومدحوه هو وآل بيته ، ولا غرو في ذلك فعبد العزيز كان إليه أمرا الخلافة بعد أخيه عبد الملك ، فكان الشعراء يقصدونه وهو على مصر حتى يكون لهم شأن بعد أن تصير إليه الخلافة ، وكان عبد العزيز جوادا يبذل العطاء لكل من يقصده فوفد عليه الشعراء ، وهؤلاء الذين جاءوا مصر لم يقيموا بها إلا لأيام معدودة ، ثم عادوا إلى مواطنهم

فمن جاء لمدح عبد العزيز بن مروان الشاعر أيمن بن خريم الأسدي أقام هذا الشاعر عند الوالى وأكثر من مدحه حتى قدم الشاعر نصيب بن رباح فأعجب الأمير بشعره ، وبينما نصيب ينشد مدحه جاء الحاجب يقول إن أيمن بن خريم بالباب فأذن له عبد العزيز فلما دخل قال له الأمير : يا أيمن كم ترى ثمن هذا العبد ؟ وأشار إلى نصيب فنظر أيمن إليه وقال « لنعم الغادى فى إثر المخاض هذا أيها الأمير أرى ثمنه مائة دينار . قال : فإن له شعرا وفصاحة . فسأل أيمن نصيبا : أتقول الشعر ؟ فاجابه نصيب نعم ! فقال : قيمته ثلاثون ديناراً ، فقال الأمير يا أيمن أرفعه وتخفضه أنت ! قال : لكونه أحق أيها الأمير ما لهذا وللشعر أمثل هذا يقول الشعر أو يحسن شعرا ! فأمر عبد العزيز نصيبا أن ينشده فأنشده فقال عبد العزيز كيف تسمع يا أيمن ، قال : شاعر أسود هو أشعر أهل جلدته

قال الأمير « هو والله أشعر منك » وكرر ذلك فغضب أيمن وقال « والله أيها الأمير إنك لمول ظرف .. قال الأمير: كذبت والله ما أنا كذلك ولو كنت كذلك ما صبرت عنك تنازعي التحية وتواكلني الطعام وتسكني على وسادتي وفرشي وبك ما بك (١) . فاغتاظ أيمن واستأذن الأمير في الخروج إلى العراق فأذن له وسار أيمن إلى بشر بن مروان وإلى العراق ومدحه بقوله :

ركبت من المقطم في جمادى	إلى بشر بن مروان البريدا
ولو أعطاك بشر ألف ألف	رأى حقاً عليه أن يزيدا
أمير المؤمنين أقم ببشر	عمود الحق إن له عمودا
ودع بشراً يقوّمهم ويحدث	لأهل الزيغ إسلاماً جديدا
كأن التاج تاج بني هرقل	جلوه لأعظم الأيام عيدا
على ديباج خدى وجه بشر	إذ الألوان خالفت الحدودا (٢)

فأنت ترى أن الشاعر هنا عرض بعبد العزيز في قوله « إذ الألوان خالفت الحدودا » فإن عبد العزيز كان بوجهه نمش .

أما نصيب بن رباح فيقول الرواة إنه كان لبعض العرب من بنى كنانة فاشترى عبد العزيز بن مروان منهم ، وقيل بل باعه عمه بعد أن مات أبوه إلى عبد العزيز ، وقيل إن نصيباً رأى في نفسه مقدرة على الشعر ، فحدث أمه أو أخته في الرحيل إلى عبد العزيز بمصر عساه يعتق أهل بيته ، فضحك هذه ساخرة منه ، ولكنه أنشدها شعراً

(١) يقصد بذلك أن أيمن بن خريم كان به وضع

(٢) الأجاني ج ١ ص ١٢٧

أعجبت به ، واطمأنت إلى قدومه مصر فحضر باب عبد العزيز ولكنه لم يستطع الدخول ، حتى رأى رجلاً حسن البزة ، فحادثه نصيب في التوسط له بالدخول على الأمير ، وعرفه أنه شاعر فاستنشد الرجل ، فلما أنشده نصيب شيئاً من شعره استملحه الرجل ، ولكنه شك أن يكون مثل هذا الشعر لمثل هذا الأسود ، فطلب إليه أن ينشد شعراً يذكرك فيه جوف مصر وبعض فضائلها ، ووعدته أن يستمع إليه في الغد ، فلما جاء الغد أنشد نصيب الرجل

سرى الهم تشنني إليك طلائعه
وبات وسادى ساعد قل لجه
بمصر وبالجوف اعترتني روائعه
عن العظم حتى كاد تبدو أشاجعه
إلى أن قال :

وكم دون ذاك العارض البارق الذي
تمشى به أفناء بكر ومذحج
له اشتقت من وجه أسيل مدا معه
إذا اكتحلت عينا محب بضوئه
وافناء عمرو وهو خصب مرابعه
وما زلت حتى قلت إني لخالع
تجافت به حتى الصباح مضاجعه
ولأئى من مولى نمثني قوارعه
وما نـح قوم أنت منهم مودتى
ومتخذ مولاك مولى فتابعه (١)

فأيقن الرجل صدق شاعرية نصيب ، وقدمه إلى الوالى ، فجرى له مع أيمن ما ذكرناه سابقاً . على أن هناك رواية أخرى تقول إن نصيباً كان يرعى إبلاً لمواليه ، فأضل منها بعيراً ، فخرج يبحث عنه حتى أتى الفسطاط ، وبه عبد العزيز ، فرغب في الاتصال به ، فاستأذن في الدخول فمنع ، وبعد لآى طلبه الأمير واستنشدته فأنشده :

لعبد العزيز على قومه وغيرهم نعم غامره
فبـابك ألين أبوابهم ودارك مأهولة عامرة
وكلك آنس بالمعتفين من الأم بالابنة الزائرة
وكفك حين ترى السائلي—ن أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاء ومنى الشاء بكل محبرة سائرة (١)

فسر به الوالى وأعطاه واشترى ولأهه، ولكنهم مع هذا كله يروون روايات كثيرة عن خروج نصيب إلى عبد العزيز ، ومهما يكن من شيء فإن الشاعر اتصل بعبد العزيز حتى لقب بمولى عبد العزيز بن مروان، ولكنه لم يقيم عند الأمير عبد العزيز بمصر، بل كان كثير التنقل متكسبا ، بشعره كغيره من شعراء العرب ، ولم يزل نصيب يتردد على مصر بين الفينة والفينة ، ويمدح عبد العزيز حتى توفى الأمير متأثراً بالطاعون ، وكان قد هرب إلى قرية في الصعيد تسمى «سكر» خوفاً على نفسه من المرض ولكنه توفى بها (٢) فلما أتى نصيب نعى الأمير أنشد:

أصبت يوم الصعيد فى سكر مصيبة ليس لى بها قبل (٣)
تالله أنسى مصيبتى أبداً ما أسمعتنى حنينها الأبل
لم يعلم النعش ما عليه من العرف ولا الحاملون ما حملوا
حتى أجنوه فى ضريحهم— حين انتهى من خليلك الأمل (٤)

(١) الاغانى ج ١ ص ١٢٩

(٢) هكذا فى الأغانى ج ١ ص ١٣٩ ولكن الكندى يقول إنه توفى بحلوان

(٣) يروى هذا البيت فى كتاب الولاة للكندى ص ٦٦ منسوباً إلى كثير فى

رثاء عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان وأبى بكر بن عبد العزيز بن مروان

(٤) الاغانى ج ١ ص ١٣٩

وقد رثاه بقصيدة رائية أخرى منها :

عرفت وجربت الأمور فما أرى

كحاض تلاه الغابر المتأخر

ولكن أهل الفضل من أهل نعمتي

يمرون أسـلافا أمامي وأغبر

فإن أبكـه أعذر ، وإن أغلب الأسي

بصبر ، فمثلي عند ما اشتد يصبر

وكانت ركابي كلما شئت تنتحي

جماحا فتقضى نحبها وهي تضمر

فقد عرّيت بعد ابن ليلى فانما

ذراها لمن لاقت من الناس منظر

ولو كان حياً لم يزل بدفوفها

مرادا لغربان الطريق ومنقر

فإن كن قد نلن ابن ليلى فإنه

هو المصطفى من أهله المتخير

وقد أعجب بهذه القصيدة الخليفة عبد الملك بن مروان وكان

يطلب من نصيب أن ينشدها أمامه (١) .

ووفد الشاعر عبد الله بن الحجاج (٢) على عبد العزيز بن مروان

بمصر ومدحه ، فأجزل عطاه ، وأمره أن يقيم عنده ، ولكن طال مقامه

(١) الاغانى ج ١ ص ١٣٩

(٢) الاغانى ج ١٢ ص ٢٩

واشتاق إلى ذويه بالكوفة ، فاستأذن الأمير في السفر فلم يأذن له ، فاضطر الشاعر إلى أن يعصى أمر الأمير ، فقد غلبه الشوق ، فرحل بدون إذن ، فاضطر الأمير عبد العزيز إلى أن يكتب إلى أخيه بشر وإلى العراق أن يمنع عطاء ابن الحجاج ، واضطر الشاعر إلى أن يعود إلى مصر مادحا عبد العزيز معذراً ، فصفح عبد العزيز عنه بعد أن استمع لقصائده التي منها :

تركت ابن ليلى ضلة وجريمة وعند ابن ليلى (١) معقل ومعول
ساحكم أمرى إذ بدا لي رشده وأختار أهل الخير إن كنت أعقل
وأترك أوطارى وألحق بامرئ تحلب كفاه الندى حين يسال (٢)
ثم أمر عبد العزيز أن يطلق عطاء الشاعر وأن يوصل وسمح له أن يقيم أنى شاء .

وجاء مصر الشاعر كثير عزة وتردد عليها مراراً يمدح الأمير عبد العزيز بن مروان ويقال إنه دخل على عبد العزيز يعودده في مرضه وأهله يتمنون أن يضحك فلما وقف عليه قال « لو أن سرورك لا يتم إلا بأن تسلم وأسقم ، لدعوت ربى أن يصرف مابك إلى ، ولكنى أسأل الله تعالى لك العافية ولى فى كنفك النعمة » فضحك عبد العزيز وسر أهله (٣) . وبينما كثير يتأهب للرحيل من مصر لقيته عزة فى طريقها

(١) كان الأمير عبد العزيز يفتبط إذا ذكر أحد الشعراء اسم والدته (ليلى) فى شعره حتى روى أنه قال « لا أعطى شاعرا شيئاً حتى يذكرها فى مدحى لشرفها » (الأغاني ج ١ ص ١٣١) وكانت من بنى كلب

(٢) الأغاني ج ١٢ ص ٣٠

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٣٣

هي وقومها إلى مصر، قيل: فحادثها طويلا ثم افترقا فقدمت هي مصر
وسافر هو إلى الحجاز على أن يلحق بها بمصر، ويحدثنا الحصري قال
وروى المداني، خرج كثير من الحجاز يريد مصر فلما قرب منها نزل
بمنزل فاذا هو بغراب على شجرة بان ينتف ريشه وينعب، فأسرع
الرحيل ومضى لوجهه، فلقيه رجل من بني نهد، فقال: يا أخا الحجاز
مالي أراك كاسف اللون. قال: ما علمت إلا خيرا. قال: فهل رأيت في
طريقك شيئا أنكرته. قال: لا والله إلا في منزلي هذا فاني رأيت غرابا
ينتف ريشه على بانه ينعب. قال: أما أنك تطلب حاجة لا تدركها.

فقدم كثير مصر والناس منصرفون من جنازة عزة فقال:

رأيت غرابا ساقطا فوق بانه ينتف أعلى ريشه ويطيره
فقلت ولو أني أشاء زجرته بنفسى للنهدى هل أنت زاجره
فقال غراب لا غراب من النوى وفي البان بين من حبيب تجاوره
فما أعيف النهدى لادر دره وأزجره للطير لا عز ناصره^(١)

ثم أتى قبر عزة فاناخ به ساعة ثم رحل وهو يقول:

أقول ونضوى واقف عند رأسها

عليك سلام الله والعين تسفح

فهذا فراق الحق لا أن تزيروني

بلادك فتلاء الذراعين صيـدح

وقد كنت أبكى من فراقك حية

وأنت لعمرى اليوم أناي وأنزح^(٢)

(١) زهر الآداب ج ٢ ص ١٦٩

(٢) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

وهكذا شاء القدر أن تدفن عزة بمصر، وأن يبكيها كثير بها، والرواة يقولون إن شعره تغير بعد موتها، وسأله أحدهم : ما بال شعرك قد قصرت فيه ؟ فقال : ماتت عزة فلا أطرب وذهب الشباب فلا أعجب ومات عبد العزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الخلال (١) وقدم جميل بن معمر إلى عبد العزيز مادحاً، فأذن له وسمع قصائده وأحسن جائزته، وسأله عن حبه لبشينة فذكر ولعه بها، وأمره الوالي أن يقيم معه في مصر وهياً له منزلاً وأجرى عليه رزقها، فما أقام إلا قليلاً حتى وافته منيته بمصر سنة اثنتين وثمانين من الهجرة ويقال إنه أنشد وهو يحتضر

بكر النعي وما كان بجميـل مشوى بمصر ثواء غير قفول
قومي بشينة فاندبى بعويل وابكى خليلك قبل كل خليل (٢)
وكذلك وفد عبيد الله بن قيس الرقيات على مصر ومدح عبد العزيز وشاد بذكر مدينة حلوان التي بناها الأمير واتخذها مسكناً له .
سقياً لحلوان ذى الكروم وما صنف من تيمنه ومن عنبه
نخل مواقير بالفناء من البرنى غلب تهـتز في شربه
أسود سـكانه الحمام فما تنفك غربانه على رطبه (٣)
ومدح عبد العزيز بأشعار كثيرة جداً نجدتها في ديوانه ، من ذلك ما قاله لما خرج عبد العزيز خرجته الثالثة إلى الإسكندرية سنة إحدى وثمانين من الهجرة .

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

(٢) شرحه

(٣) خطط المقرئ ج ١ ص ٢٠٩ وديوان قيس الرقيات والـكندى ص ٥٠

عُدُوا مِنْ مَدْرَجِ الْكَرْيُو نَ حَيْثُ سَفِينُهُمْ حُرُوقُ
فَلَمَّا أَنْ عَلَوْنَ النِّيلَ وَالرَّايَاتِ تَخْتَفِقُ
رَأَيْتَ الْجَوْهَرَ الْحَكْمِيَّ وَالِدِيَّاجَ يَأْتِلِقُ
سَفَائِنَ غَيْرِ مُقَرَّقةٍ إِلَى حُلُوانٍ تَسْتَبِقُ
مَحَلَّ مِنْ يَحِلُّ بِهِ لَذِيذُ عَيْشِهِ غَدَقُ
يَحِلُّ بِهِ ابْنُ لَيْلَى وَالنَّدَى وَالْحِلْمُ وَالصَّدَقُ (١)

ونلاحظ أن الفرزدق لم يكن يحب الوفود على الأمراء ولكنه كان
يود أن يفد على مصر وعمل شعرا في مدح عبد العزيز بن مروان ، وهم
الفرزدق أن يزور مصر ولكن جاءه نعي عبد العزيز فبقى مكانه ولم
يأت مصر .

وقد رثى الأمير كثير من الشعراء من ذلك ما قاله ذو الشامة محمد
ابن عمرو بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط يرثى عبد العزيز وابنه الأصمغ
الذي توفي سنة ست وثمانين من الهجرة قبل وفاة أبيه بنحو شهرين :
نقول غداة قطعنا الجفرا ر والعين بالدمع مغرورة
مقال امرئ كاره للفرا ق تاع البلاد وباع الرقة
أبعد الخليفة عبد العزيز وبعد الأمير كذا وأبقه
فما مصر لي بعد عبد العزيز والأصمغ الخير بالمونقه
سقى الله قبريهما والصدى وما جاورا ديمة مغدقه
فان تك مصر أشارت بها إلى الشر يوما يد موبقه
فقدما تقرر بمصر العيو ن في لذة العيش محدودقه (٢)

فأنت ترى كيف استطاع الأمير عبد العزيز بن مروان أن يجمع

(١) ديوان بن قيس الرقيات ص ٣٣٩

(٢) الكندي ص ٥٦

حوله عددا من الشعراء البارزين، وأن يجعلهم يتجشمون صعاب الطريق من بلادهم إلى مصر

وكذلك نقول عن الوالى عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذى ولى مصر سنة ست وثمانين ، فقد وفد عليه الحزین الكسنانى ، ويكنى سليمان أبا الشعثاء ومدح الوالى بقوله :

الله يعلم أن قد جبت ذا يمن ثم العراقي لا يثنى السام
ثم الجزيرة أعلاها وأسفلها كذلك سرى على الأهوال بنى القدم
ثم المواسم قد أوطأتها زمنا وحيث تحلق عند الجرة اللهم
قالوا دمشق ينبئك الخبير بها ثم انت مصر فثم النائل العمم
لما وقفت عليها فى الجوع ضحى وقد تعرضت الحجاب والخدم
حيثه بسلام غير مرتفق وضجة القوم عند الباب تزدهم
فى كفه خيزران ريحها عبق من كف أروع فى عرينه شمم^(١)

لم تعدم القبائل العربية التى قطنت مصر أن يظهر بينهم شعراء وقد هيئت الأسباب التى تدعو إلى وجود الشعراء ، تلك هى الفتن التى كانت فى مصر إذ ذاك ، كما كان الحال فى جميع البلاد الإسلامية . من ذلك أن عبد الرحمن بن جحدم ولى مصر من قبل ابن الزبير فلما أن بويع مروان ابن الحكم سنة أربع وستين من الهجرة أراد أن ينتزع مصر من الزبيريين فسير ابنه عبد العزيز إليها فحفر ابن جحدم خندقا حول القسطاط سنة خمس

(١) الأغاني ج ١٤ ص ٧٦ وقيل إن هذه القصيدة للحزین فى رثاء عبد العزيز ابن مروان . ومهما يكن من أمر هذا الاختلاف فقد قيات هذه القصيدة فى مصر وكان الحزین بها .

وستين من الهجرة، وأرسل جيشاً عليه زهير من قيس البلوى إلى ايله لينع
عبد العزيز من المسير، وسار مروان أيضاً إلى مصر ولكن هزم الجيش
المصرى وتقدمت جيوش المروانيين^(١) ففى هذه الحروب قال بعض
عرب مصر شعرا، ولكن هذا الشعر لم يصلنا منه إلا النزر اليسير من
ذلك ما قاله زرعه بن سعد بن أبي زمزمه الحشنى يمدح ابن جحدم

وما الجد إلا مثل جد ابن جحدم وما العزم إلا عزمه يوم خندق
ثلاثون ألفا هم أثاروا ترابه وخدوه فى شهر حديث مصدق^(٢)

وما زال هذا الشاعر ينتقم على الأمويين، حتى كانت ولاية عبد الله
ابن عبد الملك بن مروان، وشاءت الظروف أن ترتفع الأسعار بمصر
فتشأ المصريون بالوالى الجديد، وخرج الوالى سنة ثمان وثمانين إلى
أخيه الوليد فهجاه ابن أبى زمزمة بقوله .

إذا صار عبد الله من مصر خارجاً فلا رجعت تلك البغال الخوارج
أتى مصر والمكيال واف مغربل فما سار حتى سار والمد فالج^(٣)
فغضب عليه الوالى وأهدر دمه فاضطر الشاعر أمام هذا الوعيد
إلى أن يهرب من مصر إلى بلاد المغرب حيث كتب إلى الخليفة :

ألا لا تنه عبد الله عنى كما قد قال يجمعنى نكالا
ولم أشتم لعبد الله عرضاً ولم آكل لعبد الله مالا^(٤)

وقيل إن عبد الله طلب الشاعر ابن أبى زمزمة فهرب منه فبلغ
الوالى أن عمران بن عبد الرحمن قاضى مصر أوى الشاعر وأن القاضى
هجا الوالى بأبيات له منها :

(٢) الكندى ص ٤١ — ٤٢

(٤) شرحه

(١) الكندى ص ٤١ — ٤٢

(٣) شرحه ص ٥٩

أنا ابنُ أبي بدر بهجرة يثرب وهجرة أرض للنجاشي أفخر
أمثلي على سني وفضل أبوتي نسيت وهذا نجل مروان يذكر (١)
فغزله عبد الله عن القضاء والشرطة سنة تسع وثمانين فقال عمران
يهجو عبد الله ويعرض بالقاضي الجديد عبد الواحد بن عبد الرحمن
ابن معاوية وكان حدثاً غير أنه كان فقيهاً.

لحسنى الله قوماً أمروك ألم يروا بأعطافك التخنيث كيف يريب
أتصرفني جهلاً عن الحكم ظالماً ووليتته عجزاً فتاة تجيب (٢)
ثكلتك من وال وأيضاً ثكلته ألم يك في الناس الكثير نصيب (٣)
واستمرت الحروب التي كانت بين الزبيريين والأمويين في
مصر طويلاً وكانت تعرف هذه الحروب بأيام الخندق أو
« التراويح » (٤) لأن أهل مصر كانوا يقاتلون نوبا، يخرج هؤلاء ثم
يرجعون ويخرج غيرهم، وقتل من المصريين عدد كثير لا سيما من
« المعافر » وفي هذه الحروب قال عبد الرحمن بن الحكم وكان مروانياً

ألا هل أتاها على نايها نباء التراويح والخندق
بلغنا بفيلق يغشى الظراب بعيد السمو لمن يرتقى
وسدت معافر أفق البلاد بمرعد جيش لها مبرق
ونادى الكماة ألا فابرزوا فحتمام حتى ولا نلتقي (٥)

(١) الكندي ص ٣٢٨

(٢) أراد بفتاة تجيب القاضي عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج النجاشي

(٣) الكندي ص ٣٢٨

(٤) الكندي ص ٤٤

(٥) شرحه

وَقَامَ بَعْضُ الْمَصْرِيِّينَ بِالصِّلَاحِ بَيْنَ الْمُرَوَّانِيِّينَ وَالْمَصْرِيِّينَ وَلَكِنْ
الْمَعَاوِرَ لَمْ يَقْبَلُوا أَنْ يَبَايَعُوهُ، فَقَتَلَ مِنَ الْمَعَاوِرِ نَحْوَ ثَمَانِينَ رَجُلًا بَيْنَهُمْ
الْأَكْدَرُ بْنُ حَمَامٍ سَيِّدَ لُحْمٍ وَشَيْخَهَا فَلَمَّا عَلِمَ الْمَصْرِيُّونَ ذَلِكَ، لَمْ يَبْقَ
أَحَدٌ حَتَّى لَبَسَ سِلَاحَهُ، وَاجْتَمَعَ عَلَى بَابِ مُرْوَانَ أَكْثَرُ مِنْ ثَلَاثِينَ أَلْفًا
فَخَافَ مُرْوَانٌ وَأَغْلَقَ بَابَهُ، وَكَادَ الْمَصْرِيُّونَ يَفْتَكُونَ بِهِ لَوْ لَمْ يَجْرِهِ كَرِيبُ
ابْنِ أُبْرَهَةَ. وَفِي رِثَاءِ الْأَكْدَرِ قَالَ زِيَادُ بْنُ قَائِدِ اللَّحْمِيِّ:

كَمَا لَقِيتَ لُحْمَ مَاسَايَا بَأْكَدَرٍ، لَا يَبْعَدُنْ أَكْدَرُ
هُوَ السَّيْفُ جَرَدَ مِنْ غَمْدِهِ فَلَاقَى الْمَنَايَا وَمَا يَشْعُرُ
فَلَهْفَى عَلَيْكَ غَدَاةَ الرَّدَى وَقَدْ ضَاقَ وَرْدُكَ وَالْمَصْدَرُ
وَأَنْتَ الْأَسِيرُ بِلَا مَنَعَةٍ وَمَا كَانَ مِثْلَكَ يَسْتَأْثَرُ (١)

وَنَرَى شَاعِرًا آخَرَ لَا نَعْرِفُ اسْمَهُ يَخَاطِبُ الْخَلِيفَةَ الْوَلِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ
لَمَّا عَزَلَ أَخَاهُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَنْ مِصْرَ وَوَلَّى عَلَيْهَا قُرَّةَ بْنَ
شَرِيكَ سَنَةَ ٩٠ هـ.

عَجَبًا مَا عَجَبْتَ حِينَ أَتَانَا أَنْ قَدْ أَمَرْتَ قُرَّةَ بْنَ شَرِيكَ
وَعَزَلْتَ الْفَتَى الْمُبَارَكَ عَنَا ثُمَّ فِيلْتَ فِيهِ رَأْيَ أُمَيْك (٢)
كَذَلِكَ لَمْ يَصِلْنَا شِعْرَ الشَّاعِرِ الْمَسُورِ الْخَوْلَانِي وَقَدْ كَانَ فِي أَوَاخِرِ
أَيَّامِ الْأُمَوِيِّينَ وَوَصَلْنَا مِنْ شِعْرِهِ بَيْتَانِ مِنْ قَصِيدَةٍ يَخَاطِبُ ابْنَ عَمِّ لَهُ
يَحْذَرُهُ مِنَ الْخَلِيفَةِ مُرْوَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ الَّذِي قَتَلَ بَعْضَ أَشْرَافِ مِصْرَ لِأَنَّهُمْ
خَلَعُوهُ وَأَرَادُوا غَيْرَهُ.

فأياك لا تجنى من الشر غلظة فتودى كحفص أو رجا بن الأشيم^(١)
فلا خير في الدنيا ولا العيش بعدهم فكيف وقد أضحوا بسفح المقطم
وقال الشاعر مرسل بن حمير يبكي حفصاً وأصحابه :

يا عين لا تبقى من العبرات جودى على الأحياء والأموات
يا حفص يا كهف العشيرة كلها يأخا النوال وسائر العورات
إما قتلت فأنت كنت عميدهم والكهف للأيتام والجارات
أودى رجاء لا كمثل رجائنا رجل ، وعقبة فارح الكربات
وشبابنا عمرو ، وفهد ذو الندى وابن السليط وعامر الغارات
قتلوا ولم أسمع بمثل مصابهم سروات أقوام بنو سروات
ظلت دماؤهم فلم يُعزَج لهم بَيْنٌ ولم يطلب لهم بجناة^(٢)
ولما قدم مروان بن محمد مصر في شوال سنة اثنتين وثلاثين
ومائة من الهجرة وجد أكثر أهل مصر قد سودوا ، فعزم على تعديّة
النيل فأمر بالدار المذهبة أن تحرق ، وكانت تسمى بالدار البيضاء ،
وهي التي بناها مروان بن الحكم حين دخل مصر سنة خمس وستين
هجرية ، فبكي شعراء مصر هذه الدار فمن ذلك ما قاله عيسى بن شافع
يا طللاً أقوى وحل البلي منه لدى العلو وفي السفلى
قد كنت مغنى لعيون المها وكنت مأوى لظبي الرَّمْل
وكان أربابك ما إن لهم في الناس من نوع ولا شكل^(٣)

(١) هكذا في الكندي ص ٩١ ولكن عجز هذا البيت مكسور ولعل الصحيح
«أو رجاء بن أشيم» وحفص المذكور هو حفص بن الوليد الذي ولي على مصر مرارا
وكان رجاء عامله على الصعيد قتلها حوثة الباهلي سنة ١٢٨ هـ .

(٢) الكندي ص ٩١ ، ٩٢

(٣) الكندي ص ٩٥

وكان لبعض الولاة ولع باللهو والمجون وشرب الخمر ، كالوالى
قرة بن شريك الذى هدم الجامع العتيق بالفسطاط وأعاد بناءه ، فكان
الصناع إذا انصرفوا من البناء دعا قرة بالخمر والزمر والطبول ،
فيشرب الخمر فى المسجد طول الليل ، وهو يقول « لنا الليل ولهم النهار » (١)
وعن هذا الوالى قال السيوطى « كان قرة ظلوما عسوفاً قيل كان يدعو
بالخمر والملاهى فى جامع عمرو » (٢) ولقد أغضب هذا الوالى جماعة
العرب بمصر ، فقال أحدهم فيه الشعر الذى ذكرناه (٣) ، ويحدثنا صاحب
الأغانى أن الأبحر المغنى كان متصلاً بالخليفة الوليد بن يزيد ، فلما قتل
الوليد خرج الأبحر إلى مصر وما زال بها حتى مات (٤) ، ولكننا لا نعلم
أنه كان فى خدمة أحد من ولاة مصر وربما اضطره فنه إلى أن يطرب
المصريين ويشجيهم .

وقد فقد كل الشعر الغزلى وكل ما أنشد فى وصف حياة اللهو
والمجون فى مصر كما فقد غيره من الشعر فى هذا العصر .

(١) النجوم الزاهرة ج ١ ص ٢١٨

(٢) حسن المحاضرة ج ٢ ص ٧

(٣) ص ١٣٢

(٤) الأغانى ج ٣ ص ١١٢

الفصل الثاني

من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون

دخلت مصر في طور جديد بعد أن جاءها صالح بن علي سنة اثنتين وثلاثين ومائة من الهجرة ، وقتل بها مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، وابتنى صالح بمصر داراً للإقامة ، ومدينة لعسكره ، صار ينزلها كل الأمراء من قبل العباسيين . ولكننا نلاحظ أن ولاية هذا العصر لم يمكثوا طويلاً في مناصبهم ، بل كانوا يعزلون بعد عام ، أو بعد بعض عام ، ويستبدل بهم غيرهم ، وحدث أن ولي مصر ثلاثة ولايات في سنة تسع عشرة ومائتين من الهجرة . وبلغ عدد الولايات الذين تولوا مصر في خلافة هرون الرشيد وحده نحواً من اثنين وعشرين والياً ، فقد جرى خلفاء العباسيين على سنة تغيير الولايات ، لخوف العباسيين من أن يطمح الولايات في الاستقلال بالبلاد ، لذلك لم يتمكن الولايات من إصلاح البلاد الداخلية ، وكثرت الفتن والاضطرابات ، فكانت مصر طوال هذا العصر مرجلاً يغلي بالثورات والفتن ، ففتن قام بها المصريون ، وثورات دبرها العرب ، وخاصة قبائل قيس الذين نزحوا في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ، وثورات أخرى قام بها العلويون يطالبون بالخلافة ، كما عمل بعض الولايات للاستئثار بمصر ، كل هذه الحركات كانت سبباً في إيقاظ روح الشعر بمصر ،

وداعية لا إثارة الحمية العربية ، بل العصية القبلية ، فجرى الشعر على ألسن الشعراء متحدثين بما كان في البلاد من حوادث .

كذلك تطورت العلوم بمصر كما رأينا ، فبعد أن كانت دينية فقط أصبحت في هذا الدور دينية أدبية ، ورحل كثير من المصريين إلى العراق والحجاز في طلب العلم ، كما وفد كثير من علماء العراق والحجاز إلى مصر ، وصار علماء الدين يحفظون الشعر واللغة والأخبار ، فالليث ابن سعد مثلاً كان عربى اللسان ، يحسن القرآن والنحو ، ويحفظ الحديث والشعر^(١) ، والمحدث ابن الوزير التجيبي كان محدثاً فقيهاً من جلساء عبد الله بن وهب وكان عالماً بالشعر والأدب وأخبار الناس^(٢) ، وعبد الحميد بن الوليد المصرى المعروف بكيد والمتوفى سنة ٢٢١ هـ كان فقيهاً عالماً بالأخبار والنحو^(٣) ، والشاعر سعيد بن عفير المصرى أخذ العلوم الدينية عن مالك وغيره وتلقى العلوم اللغوية والأدبية عن من كان بمصر من العلماء كما كان حجة وثقة في علوم الحديث^(٤) ، والشاعر المصرى الحسين عبد السلام المعروف بالجلل الأكبر عرف عنه شدة اتصاله بالإمام الشافعى وكان أحد رواة^(٥) . فبكما كانت الحياة العقلية تتطور في العراق في هذا العصر تطوراً كبيراً ، وانتشرت العلوم العربية والثقافات الأجنبية في العراق ، وأنشأ المأمون بيت الحكمة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٠

(٢) » » ج ١ ص ١٥٩

(٣) » » ج ١ ص ٢٢٤

(٤) » في مواضع متفرقة .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٣٠

ليكون مركز الحركة العلمية ، وتأثر شعراء العراق والعلماء بهذه الألوان المختلفة من الثقافة ، نجد مصر تتطور أيضا ولكنها تأخذ بحظ قليل من الثقافات الأجنبية ، وبقيسط عظيم من الثقافة العربية وكان لهذا أثره في الشعر .

وبينما نجد الحياة في العراق أدت إلى تطور الشعر في العصر العباسي ، ونجد في الشعر مدرستين متميزتين إحداهما تعنى بالألفاظ المنمقة ، وتسرف في الزينة البديعية ، حتى تطرب الأذن ويلذ العقل من نغمات موسيقى الشعر وموسيقى اللفظ ، وأسرف بعض شعراء هذه المدرسة حتى أنه لا يكاد يخلو بيت من شعرهم من غير جناس أو مطابقة أو تمثيل ، إلى غير ذلك من أنواع البديع ، فأجهدوا أنفسهم في التوفيق بين زينة اللفظ وزينة المعنى ، فوفقوا حيناً ، وأخفقوا حيناً آخر حتى ذهب بعض النقاد إلى أن أبا تمام ومسلم بن الوليد ومن ذهب مذهبهما أفسدوا الشعر لكثرة البديع في أشعارهم ، أما المدرسة الأخرى فقد جددت أيضا في الشعر ، ولكنها تجديد يخالف تجديد الآخرين ، إذ رأى أصحاب هذه المدرسة أن الغرض من الشعر ليس في موسيقى اللفظ بل بما يؤديه الشعر من المعاني ، فاستعاضوا عن الألفاظ الضخمة التي نراها في شعر الجاهليين وشعر صدر الإسلام والأمويين ، بألفاظ سهلة رشيقة تلائم الحياة الناعمة المترفة التي حياها الناس في عصر العباسيين ، حتى ألف الناس النعومة واللين في كل شيء ، فتبع هؤلاء الشعراء تطور الحياة ، وجددوا في شعرهم تجديدا يلائم حياة عصرهم ، وأنشدوا شعرا استطاع أن يألفه الناس ، ويفهمه العامة ، بل نرى بعض

أصحاب هذه المدرسة قد تهكم بالقدماء وبأسلوبهم وشعرهم .

أما في مصر فكان الغالب عليهم العناية بالمعاني ، وقل أن نجد في شعرهم أنواع البديع التي نراها في شعر تلاميذ مسلم وأبي تمام ، ولم يبدع خيالهم من التشبيهات ما زينوا به أقوالهم ، فجاء شعرهم طبعيا لا تكلف فيه ، فلم يتعمد الشعراء أن يتكلفوا الشعر .

ولعل تطور الحياة في مصر ، واختلافها عن الحياة البدوية ، كان له أثر واضح في ألفاظ الشعراء المصريين فهي ليست بألفاظ شعبية كألفاظ أبي نواس والرقاشي ومن ذهب مذهبهما ، وليست جافة ضخمة كالتي نراها في شعر الجاهليين ، بل هي ألفاظ بين الضخامة واللين ، والمعاني التي نراها في الأشعار المصرية التي وصلتنا هي معاني مصرية تتحدث في حوادث مصر ، وتظهر فيها بعض الخصائص المصرية التي لا نجدها في شعر سوى الشعر المصري ، بل لا تصدر إلا عن شاعر مصري أو أقام في مصر وتأثر بها ، ولا أجد في الشعر المصري في هذا العصر ذكر الدمن والأطلال التي ملأ بها الشعر العربي ، ولا نجد في الشعر المصري تقسيم القصيدة الواحدة إلى غزل أو خمريات ، ثم وصف الدمن فالصحراء فالأبل إلى غير ذلك مما نراه في قصائد العرب . فالذي ألاحظه أن المصريين قصدوا إلى غرضهم دون تمهيد له ، وقد يكون هذا الرأي غير صحيح لأن الشعر المصري فقد ، ولم يبق منه إلا صور قليلة جدا ، لا تكفي لأن نستدل بها على حياة الشعر في هذا العصر ، ولكن حكى هو على ما وجدته ، وهو حكم لا أتشبه به ، فربما نعثر على بعض الأشعار التي نهدم بها هذا الرأي .

ومهما يكن من شيء فإن الشعر الذى وصلنا فى هذا العصر يعطينا صورة لما كانت عليه الحالة فى مصر السياسية والاجتماعية والأدبية ، ثم تدلنا على أن الشعر المصرى ابتداءً ينمو ويقوى ويتأثر بالبيئة المصرية الخاصة ، ويعبر عما كان بمصر من اتجاهات وخواطر مختلفة ، وألوان الثقافات المتعددة ، وضروب الحركات السياسية وغير السياسية ، وليس أدل على ذلك من هذه الأشعار التى قيلت فى الاضطرابات العديدة التى كانت فى مصر فى ذلك العصر .

أثر الفتن فى الشعر

نستطيع أن نقسم الفتن التى كانت بمصر فى هذا العصر إلى :

- ١ - ثورات سياسية - إن صح هذا التعبير - كان يقوم بها قبائل العرب ضد الولاة والأمراء لجور أحكامهم ، وسوء سياستهم ، من ذلك ما كان فى ولاية موسى بن مصعب الحثعمى الذى ولى فى أواخر سنة سبع وستين ومائة من الهجرة ، فقد تشدد الوالى فى جمع الخراج ، وزاد على كل فدان ضعف ما كان أولاً ، وجعل خراجاً على أهل الأسواق وعلى الدواب . وعاد إلى الرشوة فى الأحكام ، فأظهر الجند كراهته ، ولم يستطع عماله أن يدخلوا الخوف ، وتحالف القيسية والبنية على قتاله ، واتفق أهل الخوف أيضاً مع جند الفسطاط على الثورة ضد هذا الوالى ، فخرج موسى مع جنده لقتال الثائرين فانهمز جند الفسطاط عنه وقتل الوالى سنة ثمان وستين ومائة من الهجرة بعد عشرة أشهر من ولايته ، هذا الحادث كان له أثر فى الشعر ، إذ أنشد الشعراء فى ذلك مترنمين بانتصار

أهل الخوف من ذلك ما قاله سعيد بن عفير :

أَلَمْ تَرَهُمُ الْوُتَ بِمُوسَى سَيُوفِهِمْ وَكَانَتْ سَيُوفُ لَا تَدِينُ لِمُتَرَفٍ
فَمَا بَرَحْتَ بِهِ تَعُودُ وَتَبْتَدِي إِلَى أَنْ تُسْرَوِيَّ مِنْ حَمَامٍ مُدْتَفِّفٍ
فَأَصْبَحَ مِنْ مِصْرٍ مَا كَانَ قَدْ حَوَى بِمِصْرٍ مِنَ الدُّنْيَا سَلِيلًا بِنَفْنَفٍ
وَلَكِنْ أَهْلُ الْخَوْفِ لِلَّهِ فِيهِمْ ذَخَائِرُ إِذْ لَا يَنْفُذُ الدَّهْرُ تَعْرِفُ^(١)

وفي ولاية الحسين بن جميل امتنع أهل الخوف من أداء الخراج سنة إحدى وتسعين ومائه من الهجرة ، وخرج أبو الندى مولى « بلي » في نحو ألف رجل يقطع الطريق وأغار على بعض قرى الشام وساعده في ذلك رجل من جذام يقال له المنذر بن عابس وآخر يدعى سلام النوى ، فكثرت فسادهم ، وأوقعوا الرعب في نفوس المصريين جميعا ، فبعث هرون الرشيد بقائده يحيى بن معاذ لقمع هذه الحركة ولاخضاع أهل الخوف ، فتم ليحيى ذلك وقدم الفسطاط ومعه أبو الندى وابن عابس فمدح الشعراء القائدي يحيى فمن ذلك ما قاله أبو عثمان السكري :
يا قيس عيلان إني ناصح لكم أدوا الخراج وخافوا القتل والحربا
إني أحذركم يحيى وصولته فما رأيت له تَقِيًّا إِذَا غَضِبَا
وقال أيضا :

قد جبيننا قيساً ولم تك تجي فقتلنا أبا الندى وابن عابس
وتركنا لهما وحي جذام لا يطيقون رفع كيف تلامس
آمن الله بالمبارك يحيى خوف مصر إلى دمشق فبالس
وأباد الخلاع من كل أرض بعدما حاد عنهم كل فارس^(٢)

(١) الولاية للسكندی ص ١٢٧

(٢) السكندی ص ١٤٥

وقد يطول بنا الحديث عن هذه الثورات الكثيرة التي كان يقوم بها عرب مصر ضد الولاية والحكام ، ولكن أرى أن ألم بثورة الجروى التي شغلت ولاية مصر والخلافة العباسية مدة طويلة ^(١) ، فقد كان عبدالعزیز ابن الوزير الجروى صاحب الشرطة بمصر في ولاية المطلب الخزاعى سنة ثمان وتسعين ومائة من الهجرة وعزل بعد قليل ، وبعث على رأس الجيش لمحاربة أهل الخوف ، ثم أعيد إلى الشرطة سنة تسع وتسعين ومائة في ولاية العباس بن موسى ، ولكن الجند ثاروا ، وأجمعوا على تولية المطلب الخزاعى مدة أخرى فاضطر الجروى إلى الهروب إلى تنيس ، فلما تم الأمر للمطلب وأطاعه وجوه أهل الخوف ، أرسل إلى الجروى بعقده على تنيس ، وأمره بالحضور إلى القسطنطينية ، فامتنع الجروى فبعث المطلب بوال آخر على تنيس ، فلم يستطع دخولها ، وسار الجروى لمحاربة السرى بن الحكم الذى أرسله الوالى لحرب الجروى ، فأسر السرى وسجن ، وتوالت جيوش الوالى لحرب الجروى فكانت تهزم الواحدة تلو الأخرى ، وجد الوالى في أمر الجروى فأخرج الجروى السرى بن الحكم من السجن بعد أن تعاهدا على أن يخلعا الوالى ويخلفه السرى ، وبعد حروب طويلة ، أرسل الوالى في طلب الأمان من السرى على أن يسلم إليه الأمر ، ويخرج عن مصر ، وقد تم ذلك وخرج المطلب الخزاعى إلى مكة وفي هذا أشار دعبل الخزاعى بقوله :
 فكيف رأيت سيوف الجريش ووقعة مولى بنى ضبة ^(٢)
 أحجتك أسيافهم كإرها ومالك في الحج من رغبة

(١) نجد ثورة الجروى في الكندي ص ١٥٥ وما بعدها.

(٢) مولى بنى ضبة هو السرى بن الحكم .

وتم أمر مصر إلى السرى في رمضان سنة مائتين من الهجرة ،
 فطلب الوالى إلى الجروى أن يذهب لتأديب لخم بالاسكندرية ، وكاد
 الجروى يفتح حصنها فخشى السرى أن يملكها الجروى ، فأوعز إلى
 أحد رجاله أن يخالف الجروى ، فاضطر الجروى إلى أن يرجع إلى
 تنيس سنة إحدى ومائتين وفسد ما بينه وبين السرى وفى ذلك قال
 سعيد بن عفير :

ألا من مبلغ الجروى عنى مغلغلة يعاتب أو يلوم
 أقمت تنازل الأبطال حتى تميز ذو الحفيظة والسؤوم
 وصلت بهم فما وهنت قواهم وطير الموت دائرة تحوم
 ولو هجمت جموعك حين حلوا عليهم باد جمعهم المقيم
 وكيف رأيت دائرة التواني أبتك بصحو نحس لا يقيم
 أذاك وقد أمنت ونمت كيدا لصل لا ينام ولا ينيم

ثم ولى سليمان بن غالب مصر فى ربيع الأول سنة إحدى ومائتين
 فخاربه السرى بن الحكيم ، ولكن هزم السرى وأسر هو وابنه ميمون
 وسجنوا فى إخميم واستقام الأمر لسليمان فقال المعلى الطائى فى ذلك :
 إذا شن فى أرض سليمان غارة أثار بها نقعا كثير المصائب
 ألم تر مصرا كيف داوى سقيمها على حين دانت للعدو المناصب
 حماها ولولا ما تقلد أصبحت حبيسا على حكم القنا والمقانب
 ولكن أعيد السرى مرة أخرى للولاية ، وهرب سليمان إلى
 الجروى ، وانتقم السرى من كل أعدائه فأخذ يقتلهم ويصلبهم ، حتى
 قامت فتنة ابراهيم بن المهدي ببغداد ، واتصل ابراهيم بالجند فى مصر ،

وأمرهم بخلع المأمون ، والوثوب بالسرى ، فلبى دعوته جمع من المصريين منهم الحارث بن زرعة بالفسطاط والجروى بالوجه البحرى وسلامة الطحاوى بالصعيد وعبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدى ، فحاربوا السرى ، وملك الجروى الاسكندرية ، وأخرج الطحاوى عمال السرى من الصعيد ، وسار الجروى حتى التقى بجيش السرى بشطنوف فهزم السرى سنة ثلاث ومائتين وقتل ابنه ميمون بن السرى فرثاه معلى الطائى بقوله :

لو ردَّ غربَ منية بشجاعة أحد لدافع ركنها ميمون
لو كان تجريد السيوف يردها لحماه منها منصل وثمان
مازلت أطمع فى رجوعك سالما ويروغنى شفقاً عليك ظنوني
فلَيْفَجَعَنْ غداً بقتلك طاهر^(١) وليفجعن بقتلك المأمون

وقال أبو نجاد الحارثى فى ذكر هذه الحروب :

جَمَعَ رعاك يا سرى فإنها حرب تحس سعيها قحطان
قتلوا أبا حسن وجروا شلوه كالكلب جر بشلوه الصبيان
ولت تجيب وأسلته جيادها عيلان يوم تواكلت عيلان
فاستخرجوه ملبياً فأتى به يجرى ويهرج حوله السودان
أبشر فإن أفول نجمك بعده عرض السماء ونجمك الدبران
لا تبك فالعقبى لاختوته غداً أو بعده فكما تدين تدان
وأشرف الجروى على الفسطاط وأراد أن يحرقها فخرج إليه
الفقهاء وسألوه الكف عن ذلك فانصرف عنها ، ثم علم أن أهل

(١) هو طاهر بن الحسين قائد المأمون

الإسكندرية أخرجوا عامله ، ودعوا للسرى ، فسار إليهم فى رمضان سنة ثلاث ومائتين ، وثار القبط بسخا فهزمهم الجروى فمدحه المعلى الطائى بقوله يخاطب الخليفة المأمون .

فقل لأمر المؤمنين نصيحة وما حاضر شيئا كآخر غائب
لقد حاطنا عبد العزيز بسيفه ولولاه كنا بين قتل وناهب
وسار الجروى إلى الإسكندرية فقتل فى سنة خمس ومائتين واستطاع
السرى أن يهزم سلامة الطحاوى الثائر بالصعيد وفى ذلك قال المعلى
أراد الطحاوى التى لا شوى لها فأوقد نارا كان بالنار صاليا
ودب لأقطار البلاد بفتنة فجاشت بسقم لا يجيب مداويا
وراسله من كان يحفى بفاقة وأصبح ذا ميل إليه بماليا
جنت ما استحق القتل يا صاح كفه وكل امرئ يجزى بما كان جانيا

وتوفى السرى بالفسطاط بعد قتل الجروى بثلاثة أشهر وولى بعده
ابنه أبو النصر بن السرى ، وكان على بن عبد العزيز الجروى قد خلف
أباه ، فأرسل ابن السرى جيشا لمحاربة ابن الجروى ولكن هزم هذا
الجيش ، واكتفى ابن الجروى بذلك فلم يتبع الجيش المنهزم ، وحنق
بعض المصريين عليه لذلك وظهر هذا فى قول سعيد بن عفير يخاطب
ابن الجروى

ألا من مبلغ عنى عليا رسالة من يلوم على الركوك
علام حبست جمعك مستكفا «بشط ينوف» فى ضنك ضنيك
وقد سنحت لك الغفران ممن رماك بجيشه الوهن الركيك
أمن بقيا فلا بقيا لمن لا يراها عند فرصته عليمك

وفي سنة سبع ومائتين أرسل المأمون خالد بن يزيد بن يزيد
الشييباني والياً على مصر فامتنع ابن السرى من تسليمها وحاربه ، فانضم
ابن الجروى إلى جيش خالد ، واستمر القتال مدة طويلة ، فل
الجيشان الحرب ، وحدث أن ارتفع النيل في هذا الوقت فسار خالد
إلى الحوف ، فلما رأى ابن الجروى ذلك أراد أن يخرج خالد بن يزيد
عن مملكه ، فسكر به حتى أنزله « نهيا » وهناك تركه ابن الجروى في جهد
وصفه المعلى بقوله :

سلا خالدا لما انجلى عنه شكه وأسلمه في عدوة البحر خاذله
فزالت أمانيه غداة سما لنا بعارض جيش يمطر الموت وابله
فلما انكشف النيل سار ابن السرى إلى خالد وحاربه فأسر خالد
وفي ذلك قال المعلى :

ألا لا أرى خيلاً أضربه الوغى وأجبن في الهيجاء من خيل خالد
وقواده أشرار كل قبيلة تمالوا على إسلامه في الشدائد
فما أسروا منه جباناً معضداً ولكن أبا شبلين عبلاً السواعد
فإن يقتلوه يقتلوا منه سيداً شجاعاً جواداً ماجداً وابن ماجد
وإن كفّفوا عن قتله فهى منه لآل سرى في مناط القلائد

ولما رأى المأمون هذه الثورات والفتن قسم مصر بين ابن السرى
وابن الجروى فولى كل واحد منهما ما في يديه ، فأقبل ابن الجروى
على جمع الخراج ، فقاومه قوم من أهل الحوف ، وكتبوا إلى ابن السرى
يستمدونه على ابن الجروى ، فتقابل الجيشان في « بُلْقِيْنَة » واستمر

القتال طويلا حتى اضطر ابن الجروى إلى أن يفر إلى دمياط وفى ذلك قال المعلّى :

ألا هل أتى أهل العراقين وقعة لنا بحمى بلقين شيبَت الولدا
وما كان منا قتلهم عن جهالة خطاء ولكننا قتلناهم عمدا
ولما تبيّنت المنية فى القنا نكصت تنادى حين ضلّ النّدا سعدا
فوليت على ربع المحلة هارباً على أبله ما يركب الجور والقصدا
فكيف رأيت الله أنزل نصره علينا وولاك المذلة والطردا
سنهّدى إلى المأمون منا نصائحاً نضمها طيّ الصحائف والبردا
بفعل عليّ والذى كان مجمعاً عليه باظهار الخلاف الذى أبدا
وسار ابن السرى إلى تنيس ودمياط واضطر ابن الجروى إلى أن

يهرب إلى الفرما والعريش فخاطبه سعيد بن عفير بقوله

ألا يا على بن عبد العزيز إلى أين صرت تريد الفرارا
فلست بأول من كاده عدو فكّر عليه اعتكارا
وأجر مصيرك أن يسحبوا إليك فتوحا عظاما كبارا
فتدرك ثأرك من أهله وتلبس بعد الكبو والفسارا (١)

فلما سمع ذلك ابن الجروى أغار على الفرما سنة تسع ومائتين وهرب أصحاب ابن السرى من تنيس ودمياط . وسار ابن الجروى حتى قابل جيش ابن السرى بشطنوف فهزم ابن الجروى ولحق بالعريش ، فمدح المعلّى الطائى ابن السرى بقوله

ألم تر خيله صبححت عليا تدف على مناسجها النّساعا

فَوَلَّسَى عَنْ عَسَاكِرِهِ وَخَلَى عَلَى الْأَسْلِ الْمَدَائِنَ وَالرُّبَاعَا
وَلَكِنْ فَاتَ فَوْقَ أَقْبَّ نَهْدَ كَرَجَعَ الطَّرْفَ لَا يَخْشَى اصْطِلَاعَا
فَحَسْبُكَ أَنْ قَوْمُكَ مِنْ جَذَامٍ وَسَعْدَ لَا تَرَى لَهُمْ اجْتِمَاعَا
دَعْتَهُمْ طَاعَةً لَكَ فَاسْتَجَابُوا وَمِنْ عَجَبٍ لِمُثْلِكَ أَنْ يَطَاعَا
وَعَادَ ابْنُ الْجُرُوزِ مَرَّةً أُخْرَى سَنَةَ عَشْرَ وَمِائَتَيْنِ فَمَلَكَ تَنِيسَ
وَدِمِيَّاطَ وَهَزَمَ جَيْشَ ابْنِ السَّرِيِّ ، وَلَمْ تَهْدَأْ هَذِهِ الْفِتْنُ حَتَّى دَخَلَ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ مِصْرَ سَنَةَ إِحْدَى عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ وَأَخَذَهَا مِنْ ابْنِ
السَّرِيِّ ، كَمَا خَضَعَ لَهُ ابْنُ الْجُرُوزِ .

وَقَامَتْ فِي مِصْرَ فِتْنٌ أُخْرَى مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ بَيْنَ الْأُمَوِيِّينَ
وَالْعَبَّاسِيِّينَ ، وَيَحْدِثُنَا يَاقُوتُ أَنَّهُ فِي أَيَّامِ الْمُهَدِيِّ خَرَجَ دَحِيَّةُ الْأُمَوِيِّ
بِمِصْرَ وَدَعَا لِنَفْسِهِ وَاسْتَمَرَّ إِلَى أَيَّامِ الْهَادِي وَكَانَتْ الدَّوْلَةُ تَرْسُلُ إِلَيْهِ
الْجِيُوشَ فَلَمْ تَسْتَطِعْ قَهْرَهُ وَكَانَتْ تُعْطِيهِمْ أُمٌّ وَلَدَ دَحِيَّةَ تَقَاتَلُ فِي طَلِيعَةِ
الْجَيْشِ لَا سِيَّمَا فِي وَاقِعَةِ بُوَيْطَ وَفِي هَذَا قَالَ شَاعِرُهُمْ :

فَلَا تَرْجِعِي يَا نَعَمُ عَنْ جَيْشِ ظَالِمٍ يَقُودُ جِيُوشَ الظَّالِمِينَ وَيَجْتَنِبُ
وَكُرَى بَنَاتٍ طَرْدَا عَلَى كُلِّ سَانِحٍ إِلَيْنَا مَنَايَا الْكَافِرِينَ تُقَرِّبُ
كِيَوْمٍ لَنَا لَا زِلْتَ أَذْكَرُ يَوْمَنَا بِفَاوِ وَيَوْمَ فِي بُوَيْطَ عَصَبُ صَبِ
وَيَوْمَ بِأَعْلَى الدَّيْرِ كَانَتْ نَحْوُسُهُ عَلَى فِئَةِ الْفَضْلِ بْنِ صَالِحٍ تَنْعَبُ (١)

فَهَذِهِ أَشْعَارُ قِيلَتْ فِي حُرُوبِ بَيْنِ جَيْشِ الثَّائِرِينَ وَجِيُوشِ الْخُلَيفَةِ
وَلَوْ لَمْ تَحْفَظْ هَذِهِ الْأَشْعَارُ مَا كُنَّا نَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ هَذِهِ الْوَقَائِعِ فَإِنْ كَتَبَ
التَّارِيخُ الَّتِي وَصَلْتُنَا لَمْ تَذْكُرْ تَفَاصِيلَ هَذِهِ الْحُرُوبِ بَلْ أَغْفَلْتَهَا وَلَكِنْ

الشعراء يفخرون دائماً بما يحرزاه أهلهم من نصر فيسجلون الوقائع في أشعارهم .

ونلاحظ أن الشاعر استعمل في الأبيات السابقة كلمة أيام التي كان يستعملها العرب منذ الجاهلية .

من ذلك كله نستطيع أن نقول إن الحوادث السياسية المصرية ، والحروب الداخلية التي كانت في هذا العصر ، قد أثرت في الأدب أثراً كبيراً ، فقد اضطر الشعراء إلى أن يسجلوا هذه الحروب ، وأن يدافعوا عن المتحاربين ، ولكن أكثر هذا الشعر فقد ولو قدر لهذا الشعر البقاء ، لكان أصدق مرآة لهذه الحوادث الكثيرة المضطربة ، ولكن الذي وصلنا منه قدر يسير ، يعطينا صورة مصغرة مشوهة لهذه الحوادث .

ب — فتنة العصبية العربية :

ولعل أصدق صورة لعصبية القبائل في مصر هي هذه الحادثة التي ظهرت فيها العادات الجاهلية القديمة بأجلى مظاهرها . تلك هي حادثة « فرس مراد » المعروفة « بقضية جناح والزعفران » ، ذلك أن عشيرة « مراد » كان لهم فرس يفخرون بها ويسمونها الزعفران ، فأخرجت الفرس يوم الرهان ، كما أخرجت عشيرة « يحصب » فرسا لهم تسمى الجناح ، وجعل كل فريق لصاحبه الفرس المسبوق ، وجعلوا للسباق غايته ، فخرج الطائفتان ومعهم عامة أهل مصر ، فكان السابق فرس مراد في أول الأمر حتى كادت تدخل الغاية ، فخرج كمين من يحصب وضرب وجه الزعفران فتحيرت الفرس ، فسبقتها الجناح إلى

دخول الغاية . ساء مرادا ذلك واستلوا سيوفهم واقتتل الطائفتان قتالا عنيفا حتى اضطر الأمير ليث بن فضل إلى أن يخرج إليهم ويحجز بينهم وأحال أمرهم إلى القاضى عبدالرحمن العمرى الذى ولى سنة ١٨٥ هـ وقد عرف هذا القاضى بحبه للمال وأخذه الرشوة ؛ فأتت يحصب بأموال عظيمة إلى القاضى ، فحكم لهم بالفرس ودفع إليهم الزعفران ولكن استمر النزاع حتى ولى القضاء القاضى البكرى الذى ولى سنة ١٩٤ هـ فرد الفرس إلى مراد . هذا الحادث يذكرنا بصورة لها أيام الجاهليين هى قصة داحس والغبراء ، وكما كثر شعر الجاهليين فى قصتهم أنشد المصريون شعرا فى قصتهم لا سيما أن القاضى العمرى كان مكروها من المصريين ، ونقم عليه الشعراء فأخذوا هذا الحادث وسيلة إلى هجائه ، فمن ذلك قول يحيى الخولانى (١) .

إن كان مُهْرُ أَخِي زَوْفَ أَفَاتَ بِهِ رِيبَ الزَّمانِ عَلَيْهِ جُورَ زَنْدِيقِ
فَكَمْ يَدِ ابْنِي زَوْفٍ وَأَخَوْتِهِمْ فِي آلِ فَهْرٍ تُغْصِ الشَّيْخَ بِالرِّيقِ
إِنْ حَاكَمَ عَمْرَى جَارٌ فِي فَرَسٍ فَسَوْفَ يَرْجِعُهُ عَدْلُ ابْنِ صَدِيقِ

ومن الطبيعى أن نجد شعراء دافعوا عن القاضى العمرى فى هذه القضية ، فمن ذلك قول عبد الله بن بجيرة من ولد معاوية بن حديج يرد على الشاعر يحيى الخولانى

طَلَبْتَ فَمَا نَأَتْ حَسَنُ الطَّلَبِ وَرُمْتَ عَظِيماً وَلَمَّا تُصِيبِ
وَعُولِيَّتَ مَوْتَا عَلَى رَمِيهِمْ بِقَوْسِ الضَّلَالِ وَنَبْلِ الْكَذِبِ

فإن كان في فرس عتبكم
فغندى لكم فرس من قصب
وإلا فمهر كريم النجار
قليل العظام كثير العصب
فأجابه يحيى

ألا أيها الشاعر المنتدب
يحمى عن العمرى العطب
ورامى مراد وخولانها
بنبل من الجهل غير الصيب
لعمرك ما أنقص العمرى
من الناس إلا كريم الحسب
ملا الأرض جوراً بأحكامه
وأظهر فيها جميع الريب

ومن العصبية القبلية أيضاً فخر الحضارمة إذا ولى أحدهم فقى سنة
تسع وتسعين ومائة ولى القضاء طيعة بن عيسى الحضرمى فقال شاعرهم
لقد ولى القضاء بكل أرض
رجال ليس مثلهم رجال
وقال يزيد بن مقسم الصدقى

يا حضر موت هنيئاً ما خصصت به
من الحكومة بين العجم والعرب
فى الجاهلية والاسلام يعرفه
أهل الرواية والتفتيش والطلب
ح — فتن بين العرب والمصريين :

ولون آخر من ألوان العصبية العربية هو سمو العرب بأنفسهم وتعاليمهم
على غيرهم من الشعوب ، حتى على من أسلم من هذه الشعوب ، فقد كون
العرب فى مصر طبقة ارسنقراطية — إن صح هذا التعبير — لم تقبل أن
يسمو إليها المصريون ، ولذا كانت العلاقات بين العرب والمصريين سيئة
فى العصر العباسى وقام القبط بثورات عنيفة ابتغاء طلب المساواة بالعرب ،
ولكن هؤلاء استطاعوا أن يخمدوا الثورات المتوالية ، ونلح من الأشعار

التي وصلتنا عن هذه الاضطرابات كيف كان العرب يترفعون على المصريين، حتى اضطروا من أسلم منهم إلى أن يتخذ لنفسه نسباً عربياً حتى يتساوى بالعرب ولكن عرب مصر رفضوا أن ينتسب غير عربى إليهم، ولعل قضية أهل الحرس تبين علاقة العرب بالمصريين، ذلك أن جماعة من القبط أسلموا وعرفوا بأهل الحرس، ولا أدري لهم سموا كذلك، ويغلب على ظنى أنهم كانوا حرساً للامراء فعرفوا بذلك، تحرس العرب بهؤلاء القوم وأذوهم فجمع أهل الحرس نقوداً من بينهم دفعوها إلى القاضى العمرى ليثبت لهم نسباً عربياً، وخرج بعضهم إلى الرشيد ببغداد يدعون له نسباً، كما أتوا بجمع من أعراب الحوف الشرقى وبعض أعراب الشام ورشوهم بالمال فشهدوا أمام القاضى أن أهل الحرس من العرب وأن نسبتهم إلى بنى حوتكة (من قضاعة) فقبل القاضى شهادتهم إلا شهادة حوى بن حوى بن معاذ العذرى، وسجل لهم نسباً بذلك فثار عرب مصر، وقام الشعراء يهجون القاضى وأهل الحرس، من ذلك قول يحيى الخولانى فى هجاء حوى :

يا ليت أم حوى لم تلد ذكراً أوليت أن حوى كان ذا خرس
كسا قضاعة عاراً فى شهادته لله در حوى شاهد الحرس
شهادة رجعت لو أنها قبلت لأحق الزور منها العير بالفرس
وقول يحيى الخولانى أيضاً :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة من القبط فينا أصبحوا قد تعربوا
وقالوا أبونا حوتك، وأبوهم من القبط علج حبله يتذبذب
وجاءوا بأجلاف من الحوف فادعوا بأنهم منهم سفاهاً وأجلبوا
ألا لعن الرحمن من كان راضياً بهم رغماً ما دامت الشمس تغرب (١)

وقال معلى بن المعلى الطائى فى هجاء القاضى العمرى :
 كم كم تطول فى قُـرّانك والجور يضحك من صَدَـتْكَ
 تقضى نهـارك بالهوى وتبيت بين مغنياتك
 فاشرب على صَرَف الزمان بما ارتشيت من الحواتك
 إن كنت قد ألحقهم عرباً فزوجهم بناتك
 وليكشفن بما أتيت صدور قوم مَساتك
 وكأنى بمنى تسعى إليك بكف فاتك
 أفقرتـه من ماله بقضية أو لم يؤاتك
 لا تعجلان أبا الندى حتى تصير إلى وفاتك
 إن المقامع تطلقن من الجحيم إلى مماتك
 بل لو ملكك لسان أ كـشـم ما وصلت إلى صفاتك (١)

ونلاحظ أن الشاعر هنا كنى القاضى بأبى الندى وهى كنية اللص الذى
 ظهر سنة إحدى وتسعين مائة، ثم نراه قد تهكم بالقاضى إذ دعاه أن يزوج
 أهل الحرس من بناته، وهو حكم وضعى سار عليه المسلمون حتى أصبح من
 الأحكام الفقهية ذلك أن المولى لا يتزوج عربية. وبعد أن عزل القاضى
 العمرى، أرسل عرب مصر وفداً إلى الخليفة الأمين، فذكروا له ما فعل
 العمرى بأهل الحرس، فكتب الأمين إلى القاضى البكرى يأمره أن لا يمنح
 أحداً من غير العرب اللحاق بالعرب، وأن يرد أهل الحرس إلى ما كانوا عليه
 من أنسابهم، فأمر البكرى أهل الحرس بإقامة البيعة، وجمع بعض أهل القنطرة
 والعدالة من مصر فشهدوا أن أهل الحرس من القبط الذين أسلموا، فردهم
 القاضى إلى أصلهم ومزق سجلهم، ففرح عرب مصر بذلك وقال معلى الطائى :

يا بني البظراء موتوا كمدأ واستخنوا عينا بتخريق السجل
لو أراد الله أن يجعلكم من بني العباس طرا لفعل
لكن الرحمن قد صـيركم قبط مصر من القبط سفـل
كيف يا قبط تكونوا عربا ومريس أصلكم شر الجيل

وقال أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني

ولقد قععت بني الحبائث عندما راموا العلاء وتحوتكوا وتعربوا
فرددتهم قبطا إلى آباءهم ونسبت أصلهم الذي قد غيبوا
وتركتهم مثلا لكل ملصق نسباً إذا التقت المحافل يُضرب

وقال يحيى الخولاني

اشكروا الله على إحسانه فله الحمد كثيراً والرغب
رجع القبط إلى أصلهم بعد خزي طوقوه وتعـب
ودنانير رشوها قاضيـاً جائراً قد كان فينا يغتصب
أخذ الأموال منهم خـدعة وتولى عنهم ثم هرب
أبلغ البـكرى عنى أنه عادل في الحكم فراج الكرب (١)

كانت روح العصبية العربية ظاهرة واضحة أيام الأمويين والعباسيين
مما جعل القبط يشورون، وكان أشد هذه الثورات أيام المأمون، إذ اضطر
الخليفة نفسه إلى أن يحضر إلى مصر، وأن يجمع هذه الفتن بشدة وحزم
فلم يبق بعدها للمصريين قائمة، ثم أن العرب وجدوا أنفسهم في عهد
المعتصم محرومين مما كان لهم من مزايا، فخدمت روح العصبية وصار

(١) راجع قضية أهل الحرس بكتاب الولاة والقضاة للكندي ص ٣٩٧ — ٣٩٩

العرب كالمصريين سواء بسواء ، وبالرغم من أن بعض العلماء عطفوا على من أسلم من المصريين وعاملوهم كالعرب فولوا بعضهم الأعمال الهامة في الدولة ، ولاكن هذا لم يرض جمهور العرب فسخطوا ، من ذلك ما روى أن بعض من أسلم من القبط وجدوا عطفًا من القاضي لهيعة ابن عيسى ، الذي ولى قضاء مصر مرتين في عهد المأمون ، فقد فسخ هذا القاضي مجلسه للمصريين ، وألان جانبه لهم وألحق طائفة منهم في أعمال الدولة ، فأسند كتابة القضاء إلى سعيد بن تليد — وكانت كتابة القضاء في ذلك العهد من أسى ما يصبو اليه الفقهاء — كما اتخذ شهودا جعلهم بطانته منهم معاوية الاسواني وسليمان بن برد وغيرهما في نحو من ثلاثين رجلا فَتَقَوَّلَ العرب في القاضي مع علمهم بعلمه ودينه وسمو منزلته ، وقد ظهر أقوال المصريين في أشعارهم من ذلك ما قاله الشاعر أبو شبيب أنيس بن دارم

قَبَّحَ اللهُ زمانا راس فيه ابن تليد
بعد مقراض وخيط وأبيّراتٍ حديد
وأبو الزنباع خناق غراميل العبيد
بعد سيف خشبي وسهام من حديد
وابن تذرّاق الأفانين البليد بن البليد
وابن بكار كراكي — رُ — وغطاس الثريد
وأبو الروس المريسى بن دباغ الجلود
واللقيط ابن بكير نُظْفَةَ القدم الطريد
وابن سهم حارس الجية — زة — حلوان البريد

عصبة من طينة النيل ميامين الحدود
لبسوا بعد التباين نفيسات البرود
لازموا المسجد ضللاً لا من الأمر الرشيد
لحوانيت بنوها بفنا كل عمود
وتسموا وتكنوا بعد جرج وشنود
والأحوا بجباه من نطاح الحصر سود
تحت أميال طوال كبراطيل اليهود
نصبوها كالمقاعيد على روس القروود
وتراهم للوصايا وعدالات الشهود
في مرأ وجدال وقيام وقعود
وخشوع وابتهال وركوع وسجود
وعلى القسمة أضرى من تماسيح الصعيد
وأشاروا للهدايا بأبي عبد الحميد^(١)

ومن ذلك أيضاً ما روى في قضية « ابن القطاس » ، فقد كان سعيد
ابن زياد الملقب بابن القطاس ممن عرف بين المصريين بالعلم والفضل ،
وكان أحد الشهود الذين قبل بعض القضاة أمثال لهيعة بن عيسى وابن
المنكدر وغيرهما شهادته ، كما كان أحد الذين يتولون التدريس في
المسجد ، فلما ولي محمد بن أبي الليث قضاء مصر رماه ابن القطاس
بالبدعة ، ودعا عليه ، فنقل ذلك إلى القاضي ، وأتى إلى القاضي من ذكر
له أن ابن القطاس مولى لم يجر عليه عتق ، وشهد آخرون بأنه مولى
رجل من الأزديقال له ابن الأبرش ، وادعى ابن الأبرش رقبته ،

فأمر القاضي بجس ابن القطاس خمسة أيام ونودى عليه في سوق الرقيق
فاستراه القاضي بدينار وأعتقه . وفي ذلك قال الجمل الاكبر في
مدح القاضي .

وبطشت بالقَطُّوس بطشة قائم بالحق غير مقصر ومبذر
ما زلت تفحص عن أمور شهوده في السر والعلن المبين الأظهر
فربطته في رقة ومنعته وطأ الحرائر وهو غير محرر
هذا النداء ، وهذه هاد لهم إن جاء فيه بغير فـلـس أقشر
يفتى وينظر في المكاتب دائماً والعبد غير مكاتب ومدير (١)
وما لا شك فيه أن المصريين أنشدوا شعرا كثيرا جدا في علاقة
عرب مصر بالمصريين وليكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه إلا قدر
يسير قد ذكرنا أكثره .

أثر محنة خلق القرآن

أصاب مصر من فتنة خلق القرآن ما أصاب الأقطار الإسلامية
الأخرى، فقد روى الكندي أن المأمون طلب إلى أخيه أبي اسحق
المعتصم أن يكتب إلى نصر بن عبد الله كيدر أمير مصر أن يمتحن
القضاة والشهود فمن أقر منهم أن القرآن مخلوق وكان عدلا قبلت
شهادته وأقر بموضعه ، وكان القاضي بمصر إذ ذاك هرون بن عبد الله
فامتحن وأقر بأن القرآن مخلوق ، وتبعه عامة الشهود وبعض الفقهاء ،
وهرب منهم من لم يوافق ، وورد كتاب المعتصم على القاضي هرون

بحمل الفقهاء في المحنة فاستعفى هرون من ذلك، فكتب ابن أبي دؤاد إلى محمد بن أبي الليث بالقيام في المحنة، وذلك قبل ولايته القضاء، فحمل البويطي وخشنام المحدث في جمع كثير غيرهما، ولما ولي الواثق سنة سبع وعشرين ومائتين أمر أن يؤخذ الناس بالمحنة، وورد كتابه على ابن أبي الليث الذي ولي القضاء سنة ست وعشرين ومائتين، فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ولا معلم حتى أخذ بالمحنة وهرب كثير من الناس وملئت السجون بمن أنكر المحنة، كان «مطر» غلام ابن أبي الليث يأخذ قلانس العلماء أمثال هرون بن سعيد الأيلي ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وغيرهما ويسوقهم بعمائمهم، وفي هذا كله أنشد شعراء مصر، فمن ذلك ما قاله الحسين ابن عبد السلام المعروف بالجميل الأكبر وكان منقطعا إلى مدح القاضي ابن أبي الليث في ذلك العصر

فحميت قول أبي حنيفة بالهدى	ومحمد واليوسفى الأذكر
وقى أبي ليلى وقول فريقهم	زفر القياس أخى الحجاج الأنظر
وحطمت قول الشافعى وصحبه	ومقالة ابن عليه لم تضجر
والمالكية بعد ذكر شائع	أخلمتها فكأنها — لم تذكر
أعطتك السنة أتمك ضميرها	وأتمك السنة بما لم تضمهر
فأطفت بالأيلي ^(١) ينعق صائحا	في كل مجمع مشهد أو محضر
ومحمد الحكيم ^(٢) أنت أطفته	وأخاه ينعق بالصياح الأجر
كل ينادى بالقران وخلقه	فشهرتهم بمقالة لم تشهر

(١) هو هرون بن سعيد الأيلي .

(٢) هو محمد بن عبد الله بن عبد الحكم .

لم ترض أن نطقت بها أفواههم حتى المساجد خلقه لم تنكر (١)
لما أريتهم الردى متصوراً زعموا بأن الله غير مصور (٢)

وكان أحمد بن صالح قد هرب إلى اليمن في هذه المحنة ، ولزم يوسف
ابن أبي طيبة منزله ولم يظهر ، وحاول محمد بن سالم القطان الهرب
ولكن ظفر به فحمل إلى العراق ، وهرب ذو النون المصرى ثم رأى
أن يرجع فأقر بالمحنة وإلى هذا كله أشار الجمل بقوله :

أَحْجَرْتُ يَوْسُفَ فِي خَزَانَةِ بَيْتِهِ فَطَوَّاتِهِ عَنْكَ وَطَالَمَا لَمْ يَحْجِرْ
كَفَرْتُ بِكَ الْأَرْضُونَ حِينَ سَأَلْتَهَا خَبَرَ ابْنِ صَالِحِ الْخَبِيثِ الْكَافِرِ
جَحَدْتَهُ أَقْطَارُ الْبِلَادِ فَمَا عَلَى حَرَكَاتِهِ وَسُكُونِهِ مِنْ مَظْهِرِ
وَتَوَى ابْنُ سَالِمٍ خَفِيَّةً فِي بَيْتِهِ ثُمَّ امْتَطَى غِلْسَ الظَّلَامِ الْأَسْتَرِ
فَأَتَى بِهِ كَعْرِيجٍ أَوْ كَأَبَى النَّدَى وَالنَّاسَ بَيْنَ مَهْلٍ وَمَكْبَرٍ (٣)

وأخذ القاضى فى اضطهاد الفقهاء ، من ذلك أن الفقهاء وشيوخ
مصر إذ ذاك كانوا يرتدون القلائس الطوال ويبالغون فيها ، فأمرهم
ابن أبى الليث بتركها ، ومنعهم من لباسها وأمرهم أن يتشبهوا بزي القاضى
فلم يأبهوا بأمره ، فانتظر حتى أتى إليه عدد منهم وهو فى مجلس حكمه ،
فأمر غلاميه عبد الغنى ومطرا أن يضربا رؤوس الشيوخ حتى ألقوا
قلائسهم على الأرض ، وأخذها الصمبيان والرعاى يلعبون بها وفى ذلك
قال الجمل :

وَأَخَفْتُ أَيَّامَ الطَّوَالِ وَأَهَاهَا فَرَمُوا بِكُلِّ طَوِيلَةٍ لَمْ تُقْصَرِ

(١) أمر القاضى ابن أبى الليث أن يكتب على المساجد بالفسطاط « لا إله إلا الله
رب القرآن المخلوق » فالشاعر أشار فى هذا البيت إلى ذلك .

(٢) الكندى ص ٤٥٢ — ٤٥٣

(٣) شرحه

ما زلت تأخذهم بطرح طواهم والمشي نحوك بالرؤوس الحسر
حتى تركتهم يرون لباسهم بعد الجمال خطية لم تغفر
يتفزعون بكل قطعة خرقة يجدونها من أعين ومُخَبَّر
فاذا خلا بهم المكان مشوا بها وتأبطوها في المكان الأعمر
فلئن ذعرت طواهم فإطالما ذعرت ومن مرّوا بها لم يذعر
لبسوا الطوال لكل يوم شهادة ولقوا القضاة بمشية وتبختر
مالي أراهم مطرقين كأنما دمغت رؤوسهم بحمى خبير^(١)

هذا بعض ما وصلنا عن محنة الفقهاء في مصر ومن يدرى لعل
المصريين أنشدوا في ذلك شعرا كثيرا يخالفون به المعتزلة لاسيما في
مسألة خلق القرآن ، إذ كان للمعتزلة في مصر حلقة زعيمها ابن صبيح^(٢)
كانت تدافع عن خلق القرآن ، ولكن يخيّل إلى أن مذهب المعتزلة
لم يجد له مكاناً في نفوس المصريين ، حتى أن سيديويه المصري كان
يقف في جمع كثير ، وفي الحاضرين أبو عمران موسى بن رباح الفارسي
المتكلم وأحد شيوخ المعتزلة بمصر ، فكان سيديويه يصيح ويقول :
الدار دار كفر ، حسبكم أنه ما بقى في هذه البلدة العظيمة أحد يقول
القرآن مخلوق إلا أنا وهذا الشيخ أبو عمران ، فقام أبو عمران يعدو
حافياً خوفاً على نفسه حتى لحقه رجل بنعله^(٣).

بعض أغراض الشعر

لم تكن هذه كل أغراض الشعر المصري في هذا العصر بل نجد

(١) الكندي ص ٤٦١

(٢) القضاة للكندي ص ٤٥٢

(٣) أخبار سيديويه المصري لابن زولاق ، نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

بجانب ذلك شعرا قليل في المدح والهجاء والرثاء أى فى الأغراض التى لا تتصل إلا بالشاعر وعواطفه وميوله ، وليس بعجيب أن نرى هذه الأغراض فى الشعر المصرى ، فكل الشعر العربى فى جميع عصوره لم يخل منها . ففى الجاهلية نرى الشعراء يمدحون ولكن مدحهم كان أقرب إلى الواقع ، وأبعد عن المبالغة ، ثم أخذ المدح يزداد مبالغة بازدياد الحضارة والركون إلى الرخاء ، واضطر الشعراء إلى التزلف والتلق حتى ينالوا حظوة عند الأمراء والخلفاء . وفى الشعر المصرى نجد بعض الشعراء يقربون من شعراء الجاهليين فى صدق مدحهم ، ولا يسرفون فى وصف الممدوح بما ليس فيه ، فشعر سعيد بن عفير كان قريب الشبه من شعر زهير بن أبى سلمى الجاهلى كلاهما لم يمدح بقصد النوال ، وكلاهما كان يمدح خصال الرجل وخلقه أكثر من أى شىء آخر ولا لشىء ، ففى مدح سعيد لهبيرة بن هشام الذى عذب وكاد يقتل لأنه أجاز ابراهيم الطائى الشائر على الوالى المطلب الخزاعى ولم يقبل هبيرة أن يسلم ابراهيم للوالى ، نرى الشاعر قد شبه هبيرة بالسموأل بن عاديا فى الوفاء ، ومدحه بجلده على تحمل العذاب فى سبيل ذلك الوفاء .

لعمرى لقد أوفى ، وفاق وفاؤه	هبيرة فى الطائى وفاء السموأل
وقاه المنايا إذ أتاه بنفسه	وقد برقت فى عارض متهلل
فما انفك محبوسا ومطلب له	عليه قصيف بالوعيد المهول
فما زاده إلا بعداد إلا توقرا	وصبرا ولم يخشع ولم يتفكل
إلى أن تجلت عنه أيض ماجد	كريم الثنا فى المشهد المتدخل ^(١)

فسعيد هنا يمدح رجلا كريما وفيما ، ليس له سلطان ولا إمرة ،
ولم يطمع فيما كانت تصبو إليه نفوس الشعراء الآخرين . ونجد من
ناحية أخرى بين الشعراء المصريين من تكسب بشعره كالشاعر المعلى
الطائي الذي اتصل بكثير من الولاة والأمراء ومدحهم ، بل كان
لا يتخرج من أن يمدح أحدهم ثم يمدح عدوه إذا صار الأمر بيد ذلك
العدو ، من ذلك ما قيل إنه اتصل بالسرى وابنه ومدحهما ، وكانا
ثائرين على الولاة ، ثم وقف بين يدي عبد الله بن طاهر تحت المنبر
وقال له : أصلح الله الأمير أنا المعلى الطائي ، وقد بلغ مني من جفاء
وغلظ فلا يغاظن على قلبك ، ولا يستخفنك الذي بلغك ، أنا الذي
أقول :

يا أعظم الناس عفوا عند مقدرة
وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهباً
لما أشرت إلى خزن بمشقال
تغلي بما فيه رق الحمد تملكه
وليس شيء أعاض الحمد بالغالي
تفك باليسر كف العسر من زمن
إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط
ومرهف قاتل في رأس قتال

وما بثثت رعييل الخيل في بلد
إلا عصفن بأرزاق وآجال

إن كنت منك على بال مننت به

فإن شكرك من قلبي على بالي^(١)

فسر الوالى وأجزل عطاءه ، فالشاعر مدحه لجوده وطمعه في
صلاته . ولعل أكثر شعراء هذا العصر تكسبا بالشعر هو الحسين
ابن عبد السلام الشهير « بالجل الأكبر » إذ اتصل بالقاضى محمد
ابن أبى الليث ومدحه ولم يأبه لصوت المصريين الذين سخطوا على
القاضى ، لسوء معاملته — وقدما مثلاً من ذلك كله في حديثنا عن محنة
خلق القرآن — ثم نراه يتصل بأحمد بن المدبر والى خراج مصر ، ويطلب
منه العطاء كما كان يفعل مروان بن أبى حفصة مع معن بن زائدة
الشييبانى ، فقد قيل إن ابن المدبر كان من عادته أنه إذا مدحه شاعر
ولم يرض بشعره ، أمر من يحمله إلى المسجد ويأمره أن يصلى
عددا معلوماً يفرضه عليه ، فعرف الشعراء ذلك فدخل عليه الجمل
الأكبر وأنشده :

قصدنا فى أبى حسن مديحا كما بالمدح تنتجع الولاة
فقلنا أكرم الثقلين طرا ومن كفيه دجلة والفرات
فقالوا يقبل المدحات لكن جوائزه عليهن الصلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى إنما تغنى الزكاة
فاما إذ أبى إلا صلاتى وعاقبتى الهموم الشاغل

فيأمر لي بكسر الصاد منها فتصبح لي الصَّلَاة هي الصَّلَات
فيصلح لي على هذا حياتي ويصلح لي على هذا المات (١)

وظل هذا الشاعر يتكسب بالمدح حتى ولى أحمد بن طولون فأثره
بمدحه وأخذ عطاءه ، فاعتبره كثير من المؤرخين شاعر ابن طولون
ولكن المنية عاجلت الشاعر في أوائل حكم الطولونيين أى في سنة
ثمان وخمسين ومائتين .

لا نكاد نجد بين أيدينا من الشعر الذى بقى لنا من هذا العصر معانى
جديدة فى المدح بل اتخذ شعراء مصر نفس المعانى التى اتخذها غيرهم
من شعراء العرب من وصف الممدوح بالجود والكرم والشجاعة ،
ولا نكاد نجد إلا أثراً قليلاً لمصر فى هذا الشعر كالذى رأيناه فى شعر
المعلى من ذكر « النيل » ، ولعل روح الفكاهة المصرية قد أثرت أيضاً فى
شعر الشعراء كالذى نراه فى الأبيات التى رويناهما للجمل فى مدح ابن المديبر
كذلك نستطيع أن نقول عن الهجاء ، فقد رأينا كيف كان الشعراء
يهجون الولاة والقضاة فى مصر ، ويحصون مساوئهم ، وأكثر شعراء
هذا العصر هجاء هو الشاعر يحيى الخولاني الذى وقف بالمرصاد
للقاضى العمرى فرماه بالرشوة ، وكناه أبا الندى ، وهو كنية مصرية
خالصة لم يعرفها شعراء العرب . ولم يذكرها إلا المصريون ، وهجاه
أيضاً بأنه كان يحب سماع الغناء وفى ذلك يقول الشاعر يحيى

مر بنا راكب على فرس

يامن رأى هر بذا (١) على فرس

فقلت : من ذا اللعين ؟ قيل أبو

الندا غدا مسرعا إلى عرس

كيما يرى قينة ذكرت بها

تشدو بصوت يخال كالجرس

أصبح في المخزيات منغمساً

وليس في غيرها بمنغمس (٢)

كذلك الشاعر يحيى بن الفضيل الذي هجا الوالى عنبة بن اسحق الضبي، ورماه بدين الخوارج وبالجنون ، لأن الوالى كان يذهب إلى المسجد وهو ينادى فى شهر رمضان بالسحور، فلم يعجب الشاعر ذلك وأرسل إلى الخليفة يقول :

من فتى يبلغ الإمام كتابا عريماً ويقتضيه الجوابا

بئس والله ما صنعت الينا حين وليتنا أميراً مصابا

خارجياً يدين بالسيف فينا ويرى قتلنا جميعاً صوابا

مر يمشى إلى الصلاة نهراً وينادى السحور ضل وخابا (٣)

والشاعر اسحق بن معاذ بن مجاهد هجا القاضى المفضل بن فضالة

فقال :

(١) هر بذا كزبرج مفرد هرا بذا قومة بيت النار للهند وخدم نار الجوس .

(٢) الولاة والقضاة ص ٤٠٠

(٣) الكندى ص ٢٠١

خَفَ اللَّهُ وَارْقُدْ وَاتَّمِدْ يَا مَفْضَلُ
فَإِنَّكَ عَنْ فَصْلِ الْقَضَاءِ سَتَسْأَلُ
وَإِنَّكَ مَوْقُوفٌ بِهِ وَمُحْاسَبٌ
فَدُونُكَ ، فَانْظُرْ كَيْفَ فِي الْحُكْمِ تَفْعَلُ
أَفِي الْعَدْلِ أَنْ أَقْضَى وَأُخْرِجَ مُتَعَبَا
وَتَدْنِي بِفَضْلٍ مِنْكَ خَصْمِي وَتُدْخِلُ
وَيَفْتَحُ إِنْ يَدْنُو لَهُ الْبَابُ جَهْرَةً
وَيُخَلِّقُ دُونِي إِنْ دَنَوْتُ وَيَقْفِلُ
وَيَقْبَلُ مِنْهُ فِي مَغْيِبِي شَهْرَهُ
وَيَبْنِي لَيْسَتْ إِذَا غَابَ تُقْبِلُ
فَهَا أَنَذَا أَصْبَحْتُ خَصْمَكَ فِي الَّذِي
قَضَيْتَ بِهِ وَالْحَقُّ مَا لَيْسَ بِجَهْلٍ
فَاصْغِ إِلَى السَّمْعِ مِنْكَ وَأُنْبِئِي
بِأَيِّ وَجْهِ الْفَقْهِ أَصْبَحْتُ تَعْمَلُ (١)
وَقَوْلِ سَعِيدِ بْنِ عَفِيرٍ فِي هِجَاءِ الْوَالِي الْحُسَيْنِ بْنِ جَمِيلٍ سَنَةِ
تِسْعِينَ وَمِائَةً
مَا كُنْتُ أَحْسِبُ أَنَّ الْحَيْنَ يَجْمَعُ مَا
أَمْسَى بِمَصْرٍ مِنَ الْأَنْدَالِ فِي الْأَمْرِ
أَمَّا الْأَمِيرُ فَجَنَّاجٌ وَصَاحِبُهُ
عَلَى الْخُرَاجِ سَوَادِي مِنَ الْأَكْر

هذا الهنائي^(١) من الفسطاط يخلفه
 والباهلي^(٢) على أعماله الآخر
 كل لصاحبه شكل يلائمه
 فهم سواسية في اللؤم كالحر
 وما هُناة إلا ظَلَفُ ذى يمن
 والباهليون مأوى اللؤم من مضر
 فما يسوغ لنا عيش فينفعنا
 مع ما نرى لهم من رقة الخطر^(٣)

ولم يصلنا شيء من الهجاء بين الشعراء كالذى نراه بين شعراء
 الأقطار الإسلامية الأخرى ، والهجاء الذى وصلنا يكاد يكون ذما للهجو
 دون تعرض لأسرته ، فلم يسرفوا فى الهجاء كما لم يسرفوا فى المدح .

أما الرثاء ، فالمعروف أن من عادة المصريين منذ القدم الإسراف
 فى البكاء والنحيب والعيول حزنا لوفاة قريب أو صديق ، وشعراء
 العرب كانوا يسرفون فى الرثاء ويبكون ، ولكن ما وصلنا من الشعر
 المصرى فى الرثاء يختلف تمام الاختلاف عن عادة المصريين وشعراء
 العرب ، فقد قصر شعراء مصر رثاءهم على سرد مناقب الميت ، وكيف
 لاقى الموت بشجاعة وجلد ، ويتلقى الشاعر نعي الميت بصبر ، عالما أن
 هذا مصير كل حى كقول الشاعر سعيد بن عفير

(١) الهنائي هو كامل الهنائي الذى ولى الشرطة فى ذلك الوقت

(٢) الباهلي هو معاوية بن صرد الذى ولى الشرطة بعد الهنائي

(٣) السكندى ص ١٤٢ — ١٤٣

سأقت عمير إلى مصر منيته
 حتى أتته المنايا وهي ملتحف
 بأمرة لم يكن فيها بمسعود
 ثوبين من جبرات البأس والجلود
 فاذهب حميداً فلا تبعه فكل فتي
 يوما وإن كرمت أفعاله يودي^(١)

وقول سعيد أيضاً في رثاء هبيرة بن هشام بن حديج الذي قتل في
 حروبه مع السرى سنة مائتين :

لعمري لقد لاقى هبيرة حنقه
 بأفضل ما تلقى الحتوف السوارع
 بأنف حمي لم تخالطه ذلّة
 وعرض نقى لم تشنه المطامع
 عشية يستكفيه مطيب الذي
 به ضاق ذرعاً والمنايا كوارع
 فما انفك يحميه ويجعل نفسه
 له جنة حتى احتوته المصارع
 فلاقى المنايا فوق أجرد ساج
 وفي الكف ماثور من الهند قاطع
 فبينما يخوض الهول من غمراته
 وأعداؤه من حوله قد تجاشعوا
 تقطّر في أهوية عن جواده
 فصادفه حين من الموت واقع

فلم أر مقتولا أجل مصابه

على من يعادى والذين يجامع
من ابن حديج يوم أعلن نعيه
وقام به في الناس راء وسامع^(١)

وقد حفظت قصيدة في الرثاء تكاد تكون كاملة أنشدها الشاعر
المعلى الطائي يرثى جارية له قيل إنه كان يحبها لأدبها وعلمها ، وكانت
شاعرة ، وقيل أيضاً إن المعلى باعها بأربعة آلاف دينار ، فلما دخل
عليها قالت له : بعتنى يا معلى ؟ قال : نعم . قالت : والله لو ملكت منك
مثل ما تملك منى ما بعتك بالدنيا وما فيها . فاضطر المعلى إلى أن يرد
الدنانير وأن يستقيل صاحبه ويعتذر إلى صاحبتة^(٢) وتوفيت هذه
الجارية بعد ثمانية أيام من هذا الحادث فرثاها المعلى بقصيدة أرى أنها
من آيات الشعر لجمال معناها ، وسمو عاطفتها ، ورشاقة لفظها

أخذ الشاعر يناجي الموت ويعاتبه كأنه شخص ماثل أمام عينيه ،
ويتحدث إليه كما يتحدث إلى شخص يعرفه ، فهو يلوم الموت لأنه
اقتنص جاريته التي عبر عنها بشق نفسه ، فهو لا يستطيع أن يهنأ بالنصف
فقط ، وهو يلوم الموت ويستعطفه استعطافاً أملاًه عليه حزنه لفقدها ،
وحبه لها ، فقال إن الموت لم يرحم شبابها ، ثم يأخذ في وصف عظامها
اللينة ، وشعرها وعينيها ومشيتها ، ويترحم على ذلك كله وأخيراً يعاتب
الموت مرة أخرى لأنه ترك حبيبته في قبر تلعب الريح بترابه ، وتمتد
إليه يد البلى ، وأن أحداً لا يستطيع زيارة هذا القبر لأن في زيارته

(١) الكندي ص ١٦٠

(٢) العقد الفريد ٢ ص ١٧٩

الهلاك ، ثم يناشد القبر أن يبقى على محاسنها ، ويحفظ برها وظرفها .
فالشاعر في هذه القصيدة حزين حقاً ، متألم أشد الألم لفراق جاريته ،
ولكنه حزن هادئ — إن صح هذا التعبير — لم يرسل الدمع ،
ولم ينتحب ، وهو في هذا الحزن يذكر أنه سيمتقي بها يوم القيامة :

ياموت كيف سألتنسى «وصفا» قدّمها وتركتني خلفا
هـلاً ذهب بنا معا فلقد ظفرت يداك فسمتني خسفا (١)
وأخذت شق النفس من بدني فقبرته وتركت لي النصفا
فعليك بالباقي بلا أجل فالموت بعد وفاتها أعفى (٢)
ياموت ما أبقيت لي أحداً لما رفعت إلى البلى «وصفا»
هلا رحمت شباب غانية رياء العظام وشعرها الوخفا (٣)
ورحمت عيني ظبية جعلت بين الرياض تناظر الخسفا (٤)
تقضى إذا انتصفت مرابضة وتظل ترعاه إذا أغفى
فاذا مشى اختلفت قوائمه وقت الرضاع فينطوى ضعفا
متحيراً في المشى مرتعشا يخطو فيضرب ظلفه الظلفا
فكأنه «وصف» إذا جعلت نحوى تحير محاجراً (٦) وطفاً (٧)
ياموت أنت كذا لكل أخ إلف يصون بيره الإلفا

(١) الخسف : الذل والهوان

(٢) أعفاه من الأمر برأه

(٣) الوحف : الشعر الكثير الأسود

(٤) الخسف مثلثة : ولد الظبي أول ما بولد

(٥) حار يحار ويحتر واستعار . نظر إلى الشيء

(٦) محاجر جمع محجر : مدار بالعين

(٧) الوطف : كثرة شعر الحاجبين والعينين

خليتنى فرداً وبنيت بها ما كنت قبلك حاملاً و كَفَا (١)
 فتركتها بالرغم فى جدت للريح ينفث ترابه نَسْفَا
 دون المقطم لا يُلبسُها فى زينة قلبا ولا شَنَفَا
 أسكتها فى قعر مظلمة بيتا يصافح ترابه السقفا
 بيتا إذا مازاره أحدٌ عصفت به أيدي البلى عَصَفَا
 لانتقى أبدا معاينة حتى نقوم لرَبنا صَفَا
 لبست ثياب الحثف جارية قد كنت ألبس دونها الحثفا
 فكأنها والنفس زاهقة غصن من الريحان قد جفا
 ياقبر أبق على محاسنها لقد حويت البر والظرفا (٢)

فأنت ترى الشاعر عميقاً فى حزنه ، مستسلماً لما رزى به ، ولكنه لم يذكر بكاءه كغيره من الشعراء إذ لا نكاد نجد قصيدة فى الرثاء بدون دمع منهمر ، فالبكاء عند الشعراء مظهر من مظاهر الحزن وهو أيضا يدل على بساطة فى الحياة وسذاجة فى الشعور ، فكما أن الطفل الصغير يبكى إذا تألم ، والمرأة تبكى إذا أغضبها شيء ، كذلك شعراء العرب كانوا يبكون إذا رثوا ، ولا أدري لم لم يتبع شعراء مصر فى هذا العصر سُنَّة شعراء العرب أو طريقة المصريين فى المأتم .

أما حياة اللهو والمجون ومجالس الخمر والغزل فلا أكاد أجد لها ذكرا فيما وصلنا من الشعر فى هذا العصر ، ولا أستطيع أن أقول إنه لم يوجد فى مصر شعراء لهوا كما لها غيرهم ، وتغزلوا كما تغزل غيرهم ،

(١) الوكف : الأثم

(٢) العقد الفريد > ٢ ص ١٧٩

وحياة مصر وأعيادها كانت تدعو إلى أن يتحدث عنها الشعراء ،
ويكفى أن أنقل شيئاً مما ذكره المقرئى عن أعياد المصريين ، فقد قال
فى حديثه عن عيد الشهيد ، « وما كان يعمل بمصر عيد الشهيد و كان من
أنزه أفراح مصر وهو الثامن من بشنس ويكون لذلك اليوم عيد ترحل
اليه النصارى من جميع القرى ، ويركبون فيه الخيل ، ويلعبون عليها ،
ويخرج عامة أهل مصر على اختلاف طبقاتهم ، وينصبون الخيم على
شطوط النيل وفى الجزائر ولا يبقى مغن ولا مغنية ، ولا صاحب لهو ،
ولا رب ملعوب ، ولا بغى ، ولا مخنث ، ولا ماجن ، ولا خليع ،
ولا فاتك ، ولا فاسق ، إلا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم
إلا خالقهم ، وتصرف أموال لا تنحصر ، ويتجاهر هناك بما لا يحتل
من المعاصى والفسوق ، وتشورقتن ، وتقتل أناس ، ويبيع من الخمر خاصة
فى ذلك اليوم . وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرا (١)

وقد ظل هذا العيد بمصر إلى أن أمر با بطلاله الأمير بيمرس سنة ٧٠٢ هـ .
ومن هذه الأعياد أيضا عيد الغطاس وفيه يشارك المسلمون
النصارى ، وفى هذا العيد لا يتناكرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل
والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجوهر ، والملاهى
والعزف والقصف ، وهى أحسن ليلة تكون بمصر ، وأشمها سرورا (٢)
وقد شاهد المسعودى عيد الغطاس سنة ثلاثين وثلثمائة هجرية ووصفها ،
ومنع المصريون سنة سبع وستين وثلثمائة من إظهار ما كانوا يفعلونه

(١) المقرئى ١ ص ١١٠

(٢) المقرئى ٢ ص ٢٦

فى الغطاس ، ثم سمح لهم سنة ثمان وثمانين وثلثمائة . وكذلك عيد الصليب ، وفيه كان المصريون يخرجون إلى خارج القسطنطينية ، ويتظاهرون بالمنكرات والمحرمات وقد أبطل هذا العيد سنة اثنتين وأربعمائة أيام الحاكم الفاطمى (١)

من الطبيعى أنه كان بين الشعراء فى هذا العصر من شارك الناس فى لهوهم ، وعبثهم ، وأنشد شعرا فى هذه الحياة الصاخبة الماجنة ، ولكن هذا الشعر فقد ولم يبق منه ما يدل عليه ، فلم يروه الرواة ، ولم يدونه المؤرخون ، ولا أستطيع أن أعلل ذلك . وكذلك لم يصلنا شعر فى وصف الخمر مع أن الكندى يحدثنا أن العلويين خرجوا بمصر أيام الوالى يزيد بن حاتم ، فأرسل الوالى إلى أصحابه ، فيجعلوا يأتونه سكارى ، فقال لهم : إن نضو حكم الليلة لكثير (٢) . وخشى الوالى على بن سليمان عاقبة انتشار الخمر بين المصريين فأمر بمنع الملاهى والخمور فى أيامه (٣) ، ومع ذلك كله لم يصلنا شعر فى مجالس الخمر ولا فى وصفها . وكان بمصر قيان ومغنون شأنها فى ذلك شأن كل الأقطار الإسلامية ، ويحدثنا الكندى أن القاضى العمرى كان يشدو بأطراف الغناء على مغانى أهل المدينة ، ويبرز كثيراً فى مجالسه ، ولا يتحاشى أن يقول هذا غنى به ابن سريح ، وهذا به الدلال وهذا من جيد غناء الغريض ، ولم يكن بمصر مسموعة إلا ركب إليها ، وسمع

(١) المقرئى ٢ ص ٢٩

(٢) الكندى ص ١١٣

(٣) الكندى ص ١١٣

غناءها، وربما قوم ما انكسر من غنائها، ويرى ذلك من الدين^(١) وقد هجاه خصومه بذلك فقال يحيى الخولاني : —

ألا قَمَّ فاندُب العربا وَبَكََّ الدينَ والحسبا
ولا تنفك تبكى العد ل لما بان فاعتربا
لقد أحدثت قاضى السوء فى فسطاطنا عجباً
يظل نهاره يقضى بغير العدل منتصباً
ويسهر ليله لسماعه القينات والطربا
ويشربهم - معتقة عَقَاراً تشبه الذهباً
ويعجبه سماع العود والمزمار يا عجباً
فيا للناس من قاض يحب اللهو واللعبا^(٢)

نستطيع أن ندرك كيف أخذ المصريون على القاضى كلفه بالغناء واعجابه بسماع العود والمزمار، وشرب الخمر، فى حين أن خلفاء العباسيين فى بغداد كانوا يلهون ويمجنون، ويظهرون اللهو والمجون ويشاركون فى هذه الحياة الشعراء والندماء

الشعراء الوافدون

لم ينقطع فى هذا العصر أيضاً وفود الشعراء على مصر لمدح الولاة والأمراء، بل كان بين الولاة أنفسهم من أنشد الشعر، كالوالى الفضل ابن صالح المتوفى سنة ١٧٢ هـ فقد كان شاعراً فصيحاً أديباً ومن شعره

(١) الكندى ص ٣٣٩

(٢) شرحه ص ٤٠٠

عاش الهوى واستشهد الصبر وعاث في الحزن والضُرُّ
وسهل التوديع يوم نوى ما كان قد وعَّره الهجر (١)
والوالى عبد الله بن طاهر الذى ولى مصر سنة إحدى عشرة
وما تين كان بارع الأدب حسن الشعر (٢) ومن شعره ما أرسله للخليفة
المأمون وقد أمره بالزيادة فى الجامع العتيق فكتب له ابن طاهر :
أخى أنت ومولاى ومن أشكر نعماء
فما أحببت من شىء فإني الدهر أهواه
وما تسكره من شىء فإني لست أهواه
لك الله على ذاك لك الله لك الله (٣)

وكان الوالى يزيد بن حاتم الذى ولى مصر سنة أربع وأربعين
ومائة مقصداً للناس لسكرمه ، محباً للشعر وأهله (٤) ، قصده كثير من
الشعراء منهم ربيعة بن ثابت الرقى ، قيل إنه مدح يزيد ، فتشاغل هذا
عنه ببعض الأمور ، واستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :
أراني ولا كفران لله راجعا بخفى حنين من نوال ابن حاتم
فبلغ هذا القول يزيد ، فأرسل فى استدعاء الشاعر وردّه إلى مصر ،
فلما دخل عليه قال له : أنت القائل « أراني ولا كفران ؟ » قال : نعم .

(١) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٦١

(٢) شرحه ج ٢ ص ١٩٢

(٣) شرحه وقد وردت هذه الأبيات فى كتاب الولاة للكندى ص ١٨١ مع
اختلاف يسير ولكن الكندى روى أن ابن طاهر أرسل هذه الأبيات مع طلب
الامان لعبيد الله بن السرى الذى تحدثنا عنه

(٤) النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢

قال : هل قلت غير هذا ؟ . قال : لا . قال : والله لترجعن بخفي حنين
مملوءة مالا !! فأمر بخلع خفيه ، وأن تملأ له مالا ، ثم قال له : أصلح
ما أفسدت من قولك . فما قاله الشاعر في مدح يزيد لما عزل عن مصر
بكي أهل مصر بالدموع السواجم

غداة غدا منها الأغر ابن حاتم^(١)

ويذكر السمعاني أن المسهر التيمي الشاعر وفد أيضاً على ابن حاتم
ومدحه وأجزل الأمير عطاه ، كما قصده الشاعر محمد بن عبد الله
ابن مسلم المعروف بابن المولى ومدحه بقصيدة طويلة منها :

وإذا تباع كريمة أو تُشْتَرى

فسواك بائعها وأنت المشتري^(٢)

ومن قوله أيضاً في مدح يزيد :

يا واحد العرب الذي أضحي وليس له نظير

لو كان مثلك آخر ما كان في الدنيا فقير

ويحدثنا الطبري أن البطين الحمصي الشاعر وفد على مصر بصحبة

الوالي عبد الله بن طاهر^(٣) .

أبو نواس في مصر

وفي هذا العصر وفد أبو نواس على مصر ، ولمسكانة أبي نواس في

الشعر ، ولكثرة ما حفظ لنا من شعره في مصر ، رأينا أن نطيل

(٢) العقد الفريد ج ١ ص ١٥٦ . والنجوم الزاهرة ج ٢ ص ٢

(٢) النجوم ج ٢ ص ٢

(٣) تاريخ الطبري حوادث سنة ٢١٠ هـ

بعض الشيء في الحديث عنه في مصر .

حدثنا جامع أخبار أبي نواس^(١) أن الشاعر خرج إلى مصر متنكراً في زي الشطار مع سليمان بن أبي سهل ، فلما دخل على الخصيب ازدراه هذا واستخف به ، ثم أرسل أبو نواس كتباً إلى الخصيب فلم يستنشد ، فكان ينصرف مهموماً ، وعلم المصريون بوجود أبي نواس بينهم ، فهرعوا إليه ، واستمعوا إلى شعره وكتبوه ، فأنشد بعضهم هذا الشعر إلى الخصيب فاستحضره وأنشده قصيدته التي مطلعها :

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يرجي لديك عسير

وهذه الرواية لا يصدقها عاقل إذ كيف يرفض أمير أن يستمع لأبي نواس مع مكاتته في عالم الشعر إذ ذاك ؟ ففي الوقت الذي كان ينشد فيه أبو نواس الخليفة في بغداد ، وينادم ولي العهد ، يرفض أمير مصر أن يستمع إليه ! هذا ما لا أستطيع قبوله . وهناك رواية أخرى ذكرها صاحب أخبار أبي نواس أيضاً ، تحدثنا أن الخصيب هو الذي استزار أبا نواس فشرح هذا إليه وبينما هو في طريقه صادف قوماً من أهل الأدب لهم شرف وهيبة ، فأنسهم ومضوا جميعاً حتى دخلوا معه مصر ، فسار أبو نواس إلى الخصيب الذي أحسن مقابله وسأله عن خبره في رحلته واستنشده . هذه الرواية تناقض السابقة ، وهي أقرب إلى الصواب لأن أبا نواس كان معروفاً في ذلك العصر في كل البلاد الإسلامية وينشد شعره الأدباء بل نرى بعضهم قد تتبع أخبار أبي نواس وتنقلاته ، كالذي قيل إن النضر بن أمية الحمصي الشاعر

(١) أخبار أبي نواس نسخة خطية بدار الكتب المصرية

قال : إنه لما خرج أبو نواس من بغداد إلى مصر ، كتب الناس ببغداد إلى أهل الشام بذلك ، فلم يزل القوم في الشام يرقبون قدومه حتى قدم ويحدثنا السيوطي أن أهل الأدب بمصر لما عرفوا قدوم أبي نواس هرعوا إليه واستنشدوه ، فكان يجلس في المسجد الجامع والناس حوله ينشدون أشعاره وهم يكتبون ^(١) فهذا يدلنا على أن أبا نواس لم يكن بالشاعر المجهول عند المصريين وغير المصريين ، ولذلك فإنني أرجح هذه الرواية الأخيرة أما الخصيب الذي استقدم الشاعر فلا نكاد نعرف عنه شيئاً ، ولم يذكره المؤرخون بين ولاية مصر وأمرائها ، ولكن جامع ديوان أبي نواس قال : هو الخصيب بن عبد الحميد العجمي ثم المرادي أمير مصر ، وهو دهقان من أهل المزار شريف الآباء ، وكان رئيساً في أرضه فانتقل إلى بغداد وصار كاتب مهنويه الرازي ثم انتقل إلى الإمارة ^(٢) . وفي حديث المقرئ عن المدن قال : منية الخصيب ، هذه المدينة تنسب إلى الخصيب بن عبد الحميد صاحب خراج مصر ^(٣) ، ولكن كتب التاريخ لم تذكر الخصيب أيضاً بين ولاية خراج مصر ، وإذا أمعنا في دراسة ولاية مصر وأمرائها في عصر الرشيد ، نجد المؤرخين قد أهملوا ذكر صاحب الخراج في سنة ١٨٠ هـ وسنة ١٨٣ هـ وسنة ١٨٩ هـ أي أن الخصيب كان أميراً على خراج مصر في إحدى هذه السنين ، والذي أرجحه أنه كان في سنة ١٨٩ هـ إذهي السنة التي ولي فيها عبد الله بن محمد على مصر وفي سنة ١٩٠ هـ جعل على

(١) تحفة المجالس للسيوطي ص ٣٣٧

(٢) ديوان أبي نواس ص ٧٧ طبع مصر سنة ١٣٢٢

(٣) خطط المقرئ ج ١ ص ٣٣١

الشرطة أحمد بن حوى ، وعلى الصلاة هاشم بن حديج ، وقد ورد ذكر هذين الأميرين فى شعر أبى نواس ، وإذن فقد كان أبو نواس فى مصر سنة ١٩٠ هـ .

تكاد تجمع الروايات على أن أول قصيدة أنشدها أبو نواس فى مصر هى قصيدته الرائية

أجارة بيتينا أبوك غيور وميسور ما يُرْجى لَدَيْكَ عسير
وفىها يقول :

تقول التى عن بيتها خَفَّ مركبى
عزيز علينا ——— أن نراك تسير
أما دون مصر للغنى متطلب

بلى ، إن أسباب الغنى لكثير
فقلت لها واسى ——— تعجلتها بوادر

جرت فجرى فى جريهن عبير
ذرينى أكثر حاسديك برحلة

إلى بلد فيه الخصب ——— يب أمير (١)

وهو فى هذه القصيدة يصف رحلته من العراق ، ويذكر المدن التى مر بها ثم يحدثنا عن طمعه فى نوال الخصب ، بل هو فى كل شعره الذى أنشده فى مدح الخصب كان يتحدث دائما عن أمله فى العطاء الجزيل ، ويمنى نفسه بالمال الكثير

يا ابنتى أبشرى بميرة مصر وتمنى وأسرفى فى الأمانى
أنا فى ذمة الخصب مقيم حيث لا تعتدى صروف الزمان
قد علقنا من الخصب حبالا آمنتنا طوارق الحدثنان (٢)

(١) ديوان أبى نواس ص ٨٠ وأخبار أبى نواس لابن منظور ص ٢٣٧

(٢) ديوان أبى نواس ص ٧٨

وقوله أيضا:

وإني جـ — دير إذ بلغتك بالمني
وأنت بما أملت منك جدير

وفى قصيدة أخرى قال

أنت الخصيب وهذه مصر
فتدققا فكلأ كما بحر
لا تقعدا بي عن مدى أمل
شيئا فمالكما به عذر
ويحق لي إذ صرت بينكما
ألا يحل بساخي فقر
النيل ينعش مأوه مصرا
ونداك ينعش أهله الغمر (١)

فلولا هذا الطمع في المال ما أتى أبو نواس من بغداد إلى مصر
وقد ولد الأمل في نفسه ثقة بأن الخصيب سيغدق عليه العطاء فإذا
الشاعر صادق في مدحه للخصيب مغتبط بحضوره إلى مصر، عظيم الأمل
في الثروة، والخصيب كان يعطف على الشاعر ويعطيه، حتى قال
ابن منظور إن الخصيب أعطاه أول يوم ألف دينار، وأعطاه مثلها
ثاني يوم، وأعطاه ألفاً أخرى ثالث يوم، وقربه الخصيب إليه ونادمه.
وهذا المدح الذي أنشده أبو نواس للخصيب يختلف عن مدح
المتنبي لكافور الاخشيدى، إذ كان المتنبي كاذباً في مدحه، كان يصانع

كافورا ويجامله ، ويخشي نزواته ، وكان يظهر في شعره التكلف في المدح ، ومع ذلك فقد كانت نهاية أيام الشاعرين في مصر تكاد تكون واحدة ، إذ اضطر أبو نواس أخيرا إلى أن يهجو الخصيب ، وأن يرميه بالبخل ، وقيل إن سبب هذا الهجاء هو أن أبا نواس كان يكره شراب مصر ، وكان الخصيب يخص نفسه بشراب يحمل إليه ، فغضب أبو نواس وهجاه بقوله :

يخص خصيب بالشراب ويرتجى
لديه نوالا إن ذا لعجيب
وليس خصيب بالخصيب لضيفه
ولكنه وعز المحل جديب
فمن كان ذا أهل بمصر وثروة
فإني بها صفر اليدين غريب
وهجاه مرة أخرى بقوله :

نفس الخصيب جميعه كذب
وحديثه جليسه كرب
تبكي الثياب عليه معوله
أن قد يجر ذيلها كلب
وقال مرة أخرى :

خبز الخصيب معلق بالكوكب
يحمي بكل مشقف ومسطب
جعل الطعام على بنيه محرما
قوتا وحلله لمن لم يسغب

فإذا هم رأوا الرغيف تطربوا
طرب الصيام إلى أذان المغرب^(١)

وهكذا انتقل أبو نواس من مدح الخصيب إلى هجائه ، ويغلب على ظني أن الخصيب لم يف بوعده لأبي نواس ، أو أن أبا نواس كان يطمع في أضعاف ما ناله من الخصيب ، كما كان الحال بين كافور والمتنبى بعد ذلك بقرن ونصف تقريبا

ونجد في ديوان أبي نواس بعض قصائد في هجاء هاشم بن حديج الكندي ، وفي كتاب أخبار أبي نواس عدة أبيات في هجاء معاوية ابن حديج الفيلسوف ، مما يدل على أن أبا نواس كان على صلة ببني حديج الذين كان لهم شأن كبير في تاريخ مصر الإسلامية ، ومؤسس هذه الأسرة في مصر هو معاوية بن حديج التجيبي الكندي ، وفد على مصر في جيش الفتح ، وكان رسول عمرو بن العاص إلى الخليفة يبشره بفتح الاسكندرية ، وكان رابع أربعة عيّنهم عمرو على خطط الفسطاط وبعد مقتل الخليفة الثالث كان ابن حديج زعيم العثمانية بمصر ، إذ بايعه المصريون على الطلب بدم الخليفة المقتول ، فقاوم محمد بن أبي حذيفة ولكن ابن حديج اضطر إلى أن يهرب إلى دمشق ، ثم عاد إلى مصر لا تنزاعها من أيدي العلويين ، وهو الذي قتل محمد بن أبي بكر وألقاه في جيفة حمار وأحرقه . كان هذا الرجل رأس أسرة بني حديج الذين أصبح منهم بعض الأمراء والقضاة كعبد الرحمن بن معاوية بن حديج الذي خرج ببيعة أهل مصر للوليد بن عبد الملك الأموي ، وعبد الله بن

عبد الرحمن بن معاوية الذي ولى مصر من قبل أبي جعفر المنصور سنة ١٥٢ ، وفي سنة ١٩٠ — وهى السنة التى فيها كان أبو نواس فى مصر كارجحت — صرف عبد الله بن محمد العباسى عن ولاية مصر ، فخرج واستخلف عليها هاشم بن عبد الله بن عبد الرحمن ، وهو الذى هجاه أبو نواس .

أما سبب هذا الهجاء فقد ذكر جامع ديوان أبي نواس أن الشاعر مدح هاشماً فلم يعطه شيئاً فهجاه ، ونقل عن كتاب الروضة للبرد أن هاشماً أراد أن يستبقى أبا نواس عنده فى مصر فرفض هذا البقاء ، وخرج من مصر يهجو هاشماً ويهجو المصريين .

قفوا معشر الراحلين اسمعوا أنبئكم عن بنى كنده
وردنا على هاشم مصره فبارت تجارتنا عنده
رأيتك عند حضور الخوا ن شديدا على العبد والعبيده (١)

ونراه فى هذا الهجاء يعير بنى حديج بقتل محمد بن أبى بكر .

فإن حديجا له هجرة ولاكنها زمن الرده
وما كان إيمانكم بالرسول سوى قتلكم صهره بعده
وما كان قاتله فى الرجال بحمل لظهر ولا رشده (٢)

وقوله :

يا هاشم بن حديج ليس فخركم

بقتل صهر رسول الله بالسدد

(١) ديوان أبي نواس ص ١٣٨

(٢) شرحه ص ١٣٩

أدرجتم في اهاب العير جثته

فبئس ما قدمت أيديكم لغد

ولكن يخيّل الى أن هناك سبباً آخر لهجائه بنى حديج يضاف إلى ما ذكره جامع ديوان أبي نواس ، فقد كانت المنافسة التي بين أحمد بن حوى العذرى وهاشم بن حديج شديدة جداً ، وتجلت هذه المنافسة في قضية أهل الحرس التي تحدثنا عنها ، وكان أبو نواس شديد الصلة بابن حوى حتى أن الشاعر هجا كل المصريين إلا ابن حوى

دم المكارم بالفسطاط مسفوح

والجود قد ضاع فيها وهو مطروح

يا أهل مصر لقد غبتم بأجمعكم

لما حوى قصب السبق المساميح

أموالكم جمّة والبخل عارضها

والنيل مع جوده فيه التماسيح

لولا ندى ابن حوى أحمد نطقت

منى المفاصل فيكم والجواريح^(١)

وفي قصيدته السينية التي هجا بها هاشم بن حديج قال

ما منك سلبى ولا أطلالها الدرس

ولا نواطق من طير ولا خرس

يا هاشم بن حديج لو عددت أبا

مثل القلمس لم يعلق بك الدنس

إذ أصبح الملك النعمان وافده
ومن قضاة أسرى عنده حبس
فابتاعهم بإخاء الدهر ما عمروا
فلم ينل مثلها من مثله أنس
أورحت مثل حوى فى مكارمه
هيهات منك حوى حين يلتمس (١)

ومع ذلك كله فقد عاد أبو نواس إلى نفسه ، وذكر نسبه فى اليمنية
وأن اليمنية تجمع بينه وبين هاشم بن حديج ، فعاتب نفسه واعتذر إلى
هاشم عن هذا الهجاء

أهاشم خذ منى رضاك وإن أتى
رضاك على نفسى فغير ملوم
فأقسم ماجاوزت بالشتم والذى
وعرضى وما مزقت غير أديمى
فعدت بحقوى هاشم فأجارنى
كريم أراه فوق كل كريم
وإن امرأ أغضى على مثل زلتى
وإن جرحت فيه لعين حليم
تطاول فوق الناس حتى كأنما
يرون به نجماً أمام نجوم (٢)

(١) ديوان أبى نواس ص ١٣٩

(٢) شرحه ص ١٢٦

أما صلة أبي نواس بشعراء مصر ، فحدثنا السيوطي أن أدباء مصر وشعراءها تسابقوا لمصاحبة أبي نواس ، وكتابة شعره ، وكان بينهم رجل يعرف بالحسن بن عمر الأجهري ، كان شاعرا ضعيف الشأن ، فأراد أن يعلى شأنه ، فهجى أبا نواس بقوله

ألا قل للنواصي الضعيف الحال والقدر
خبرنا منك أحوالا فلم نحمدك في الخبر
وما إن دعت بالمنظر ولكن دعت بالذكر

وكان هذا الشاعر من أوحش الناس صورة ، فنظر إليه النواصي وقال : بماذا أهجوك ، وبأى شيء أصفك ، وقد سبقني الله تعالى إلى توحيش منظرك ، وتقبيح مخبرك ، وهل أكون إن قلت شيئا إلا سارقاً من ربي ، ومتكلفاً ما قد كفاني . فقال له بعض من معه من المصريين : على كل حال لا يقول هذا إنه أفحمتك ، فقال النواصي

بما أهجوك لا أدري لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت فى هجو ك أبقيت على شعري

وحدثنا صاحب أخبار أبي نواس قصة دعاة أبي نواس ولهوه مع الفتيان الثلاثة ، وهذا الشعر الذى أنشده فى أصحابه هؤلاء ، كل هذا يدلنا على أن أبا نواس اشترك مع الشعب المصرى فى لهوه ومجونه . لأبى نواس أشعار كثيرة قيلت فى مصر ولكنها لم تصل إلينا فيقول جامع شعره إن لأبى نواس بمصر قصائد لا يعرفها أهل العراق ويروى ديك الجن وقد دخل مصر بعد أن تركها أبو نواس أنه وجد للنواصي أشعاراً كثيرة منها .

إذا ذكرت بغداد لي فكأنما تحرك في قلبي شباه سنان
وأوبة مشتاق بغير دراهم إلى أهله من أعظم الحدثنان

وروى حمزة الأصفهاني أنه وجد رسالة في شعر أبي نواس وقد
سقط منها الشعر الذي قاله بالشام ومصر ، مع أن المصريين يروون
للنواسي أشعاراً كثيرة لم تقع إلى أهل العراق ، قال وقدم علينا رجل
من حمص حافظ لشعر أبي نواس وزعم أن أباه كان قد لقي أبا نواس
بحمص فكتب عنه قصائد له أنشدها في مصر .

وفي كتاب أخبار الحسن بن هاني لابن منظور نجد روايات كثيرة
تدلنا على أن أبا نواس كان صديقاً لأحمد بن يوسف المعروف بابن
الداية . ولكنني أعتقد أن أحمد بن يوسف هذا لم يقابل أبا نواس لأن ابن
الداية توفي بمصر بعد وفاة أبي نواس بنحو قرن ، أي بعد انتهاء الدولة
الطولونية . فقد وهم إذن ابن منظور حين روى عن ابن الداية أنه كان
صديقاً لأبي نواس ، وربما كان أحمد بن يوسف كاتب العباسيين المعروف
هو صاحب أبي نواس فوهم ابن منظور وظنه ابن الداية لتشابه
اسميهما .

خرج أبو نواس من مصر بعد أن مكث فيها سنة كما ذكر صاحب
أخباره ، وقد هجا مصر والمصريين بالآبيات التي ذكرتها سابقاً ، ثم نراه
يهجو النيل أيضاً

أضمرت للنيل هجرانا وتقلية إذ قيل لي إنما التمساح في النيل
وفي شعر أبي نواس في مصر ، نجد أثر مصر واضحاً قوياً ، فمثلاً

هو يذكر دائماً قصة (موسى فرعون) التي كانت في مصر ، فتراه قد شبه شعره بعصا موسى تلقف ما يقول غيره من الشعراء

فقد قيل إن أبا نواس لما دخل لأول مرة عند الخصيب رأى جماعة من الشعراء أسن منه ، فطلب من الخصيب أن ينشدوا قبله ، فلما أنشدوا تبسم أبو نواس وقال : أنشدك أيها الأمير قصيدة هي بمنزلة عصا موسى تلقف ما يأفكون ، ثم أنشده قصيدته الرائية وفيها يقول :

وأطرق حيات البلاد لحية خصيصة التصميم حين تسور
ومدح الخصيب مرة أخرى بقوله :

حية تصرع الرجال إذا ما صارعوا رأيه على الأذقان
وحذر المصريين من الاستمرار في الفتنة والثورة بقوله :

منحتكم يا أهل مصر نصيحتي ألا فخذوا من ناصح بنصيب
فإن يك باق إفك فرعون فيكم فإن عصا موسى بكيف خصيب
رماكم أمير المؤمنين بحية أكل لحيات البلاد شروب

ولا أكاد أعرف لأبى نواس شعراً في هذا المعنى أنشده في غير مصر ، مما يدل على أن هذا المعنى من أثر مصر في شعر أبى نواس ، ثم ذكر النيل مراراً وما به من التماسيح ، وهو معنى مصرى لا يتأتى لشاعر لم ير النيل ، ولم يسمع عما به من التماسيح

ووفد على مصر أيضاً الشاعر الهجاء دعبل بن علي الخزاعي طمعا في نوال أحد أقاربه المطلب بن عبد الله الخزاعي والى مصر ، ومدحه دعبل أولاً بقصيدته التي فيها

أبعد مصر وبعد مطلب ترجو الغنى إن ذا من العجب
 إن كاثرونا جئنا بأسرته أو واحدونا جئنا بمطلب
 فولاہ المطلب إقليم اسوان فكث به أياما ولعله لم يرض بما ناله
 فغضب ، ولم ينبج المطلب من هجائه إذ قال فيه :

أطلب أنت مستعذب حميا الأفاعي ومستقبل
 وعاديت قوما فما ضرهم وشرفت قوما فلم ينبلوا

فاضطر الوالى إلى أن يعزله وكان المطلب يقول كلما قابل دعبلا
 ما تفكرت فى قولك قط « وإن كاثرونا جئنا بأسرته » إلا كنت
 أحب الناس إلى ، ولا تفكرت والله فى قولك لى « وعاديت قوما » إلا
 كنت أبغض الناس إلى (١)

وحدث أنه عزل المطلب من مصر فلم يقبل أن يسلمها لمن خلفه
 فتحاربوا فانهمزم المطلب واضطر إلى أن يفر إلى مكة فقال دعبيل فى
 ذلك :

فكيف رأيت سيوف الحريش ووقعة مولى بنى ضبة
 أحجبتك أسيافهم كارها وما لك فى الحج من رغبة (٢)
 يريد بمولى بنى ضبة السرى بن الحكيم الوالى الذى جاء بعد
 المطلب .

ولقد سعدت مصر سنة تسع وتسعين ومائة بوفود الإمام محمد بن

(١) تراجع أخبار دعبيل بمصر ج ١٨ ص ٤٨ من كتاب الأغاني

(٢) الولاة والقضاة للكندى ص ١٦١

إدريس الشافعى على مصر بصحبة عبد الله ابن الوالى العباس بن موسى
وقيل إن الشافعى قدم مصر بعد أن أحس بالشر فى بغداد ، وأن الفتنة
اشتدت فى إظهار القول بخلق القرآن ، فهرب من بغداد إلى مصر (١)
ومهما يكن السبب الذى جاء من أجله الشافعى إلى مصر فإنه أقام بها
ناشراً لأرائه وعلمه ملازماً للاشتغال بجامع عمرو بن لويرة الحشاشية
التي عرفت به (٢)

كان الشافعى شاعراً ويحدثنا السيوطى أن الشافعى اجتمع بعبد الله بن
هشام صاحب السيرة وتناشدا من أشعار العرب أشياء كثيرة (٣) ومع
ذلك فالشافعى كان يهتم بالفقه أكثر من اهتمامه بالشعر ولأنه كان
يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد (٤)

كان مجيء هؤلاء الشعراء إلى مصر من العوامل التي ساعدت روح
الشاعرية المصرية وأيقظت ما كمن منها ، ومن الجائز أن بعض
الشعراء المصريين كانوا يحاولون تقليد الشعراء الوافدين ، وقد رأينا
كيف كان يجتمع المصريون فى المسجد الجامع لاستماع شعر أبى نواس
وكيف اهتموا به ، فهذا يدل على نمو الروح الأدبية فى مصر وتطورها

(١) ثمرات الأوراق مطبوع على هامش محاضرة الأدياء ص ٤٤

(٢) الانتصار بواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ج ٤ ص ١٤٠

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٦

(٤) راجع ما كتبناه آنفا عن الشافعى

شعراء مصريون راحلون

يمتاز هذا العصر أيضا بظهور شعراء مصريين ، أو ممن أخذوا بحظ من الثقافة في مصر ، وقضوا فيها شطرا من حياتهم الأولى ، ثم غادروها إلى مقر الخلافة ، حيث اتصلوا بالخليفة ورجاله ، ومع أننا نستطيع أن نسمى هؤلاء الشعراء مصريين أو متمصرين — إن صح هذا التعبير — فإن شعرهم اصطبخ بصبغة البلاد التي حلوا بها فلم يعد لهم أية صلة بمصر ، ولذلك لا يعدهم الأدباء من المصريين ، فشاعر كأبي تمام مهما قيل عن أصله ومولده ، فلا شك أنه جاء مصر وهو صغير ، وكان يسقى الماء في المسجد الجامع ، وجالس الأدباء والعلماء في مصر ، وحفظ في مصر الآلاف من الأراجيز والقصائد التي ساعدته على تهيئة ملكة الاختيار من شعر العرب ، وجعلته يجمع منها حماسته ، وفي مصر قال أبو تمام أول شعره ، وما زال في مصر حتى شاع ذكره فبلغ الخليفة العباسي المعتصم خبره فاستقدمه وأحسن إليه ^(١) ومكث أبو تمام بالعراق وخراسان حتى آخر أيام حياته

لم يكن أبو تمام مصري المولد ولكنه قضى شطرا من حياته فيها كما قضى أكثر أيام حياته بعيدا عنها ، ومع ذلك فالمصريون يعتبرونه واحداً منهم بل يغالون ويدعون أنه شاعرهم الأكبر ، ويفخرون به حتى عده الكندي أحد فضائل مصر ^(٢) وذلك لنبوغته وشهرته الواسعة

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

(٢) فضائل مصر للكندي نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢ (تاريخ)

(١) حسن المحاضرة للسيوطي ج ١ ص ٣٢٢

(٢) فضائل مصر للكندي نسخة خطية بدار الكتب المصرية رقم ٤٢٢ (تاريخ)

وكثرة الشعر الذى أنشده ، ولعله أول رجل تخرج فى المدرسة المصرية تروى له هذا العدد الكبير من القصائد

وحياة أبى تمام فى مصر غامضة أشد الغموض إذ لم يصلنا عنه شيئاً كثيراً فى مصر ، ولا نعرف عن أخذ علومه ، كما لا نعرف شيئاً عن اتصاله بأشراف المصريين وشعرائهم

ولكن الذى نلاحظه على شعر أبى تمام فى مصر هو عدم الاكثار من الزينة البديعية والتلاعب اللفظى ، فإن هذه الآليات القليلة التى وصلتنا من شعره الذى أنشده فى مصر تدلنا على أن أباً تمام تبع شعراء مصر فى ذلك الوقت فى ألفاظهم ومعانيهم ، بالرغم من محاولته أحياناً إلى التلاعب بالألفاظ ، ومع ذلك ، فلم يبق لنا من شعره فى مصر سوى هذه الآليات القليلة التى لا نستطيع بها أن نحكم على شعره

ولعل أول ما وصلنا من شعره بمصر قصيدته التى مدح بها عبدالله بن طاهر حين قدم مصر وهزم عبيد الله بن السرى الشائر بمصر سنة إحدى وعشرين ومائتين وفيها يقول :

لعمري لقد كانت بمصر وقعة

أقامت على قصد الهدى كل مائل

على الخندق الأقصى وما كان حوله

وما قد يليه من فضاء وساحل (١)

وأنشد أبو تمام شعرا فى الحروب التى كانت بمصر فى هذا العهد من ذلك قصيدته فى رثاء عمير بن الوليد الوالى الذى قتل يوم الثلاثاء

ثلاث عشرة من ربيع الآخر عام أربعة ومائتين وقد قتل في حرب
بينه وبين أهل الحوف وفي هذه القصيدة ظهر أثر حفظه للأشعار
ولعادات الجاهلية من بكاء على الميت ولطم الخدود، وهى نفس عادات
المصريين التى لم يشر إليها الشعراء المصريون وإنما تشاهد كل يوم.

أعبدى النوح معولة أعبدى

وزيدى فى بكائك ثم زيدى

وقومى فى نساء حاسرات

خوامش للنحور وللخدود

هو الخطبُ الذى ابتدع الرزايا

وقال لأعين الشَّقلين جودى

ألا رُزئتُ خراسانَ فتاها

غداة ثوى عُمريرُ بن الوليد

ألا رُزئتُ بمسؤول مُنيل

ألا رُزئتُ بمتلاف مفيد

ألا إن الندى والجود حلاً

بحيث حَلَلت من حُفَرِ الصَّعيد

بنفسى أنت من ملك رمته

مَنْيَّةً بِسَهْمٍ رَدَّى سديد

واستمر فى بكائه ونحيبه ثم انتقل إلى ذكر الميت فوصفه بالشجاعة

فى القتال والجود والسخاء

ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا

بفقد فيك للسند العميد

فكم أسخنت فينا من عيون
وكم أعرث فينا من جدود^(١)
ضاق أبو تمام ذرعا بما هو فيه من فقر وإملاق وكان يطمع
في المال الكثير :

لقد طلعت في وجه مصر بوجهة
بلا طالع سعد ولا طائر سهل
وساوس آمال ومذهب همة
خيمة بين المطية والرجل
نأيت فلا مال حويت ولم أقم
فأمتع إذ فجعت بالمال والأهل
لثام طعام أو كرام بزعمهم
سواسية ما أشبه الحول بالقبل^(٢)

واضطر إلى أن يرحل من مصر غير آسف على فراقها وإن حن
إليها بعد خروجه منها فذكر إخوانه بالفسطاط
بالشام أهلى وبغداد الهوى وأنا
بالرقتين وبالفسطاط إخوانى
وما أظن النوى ترضى بما صنعت
حتى تشافه بى أقصى خراسان

(١) الكندى ص ١٨٦ وديوان أبى تمام (طبعة محمد جمال ترخيص نظاره

لعارف نمرة ٤١٣) والجزء الخامس من نهاية الأرب ص ٢٠٤

(٢) ديوان أبى تمام ص ٤٢١

خلفت بالأفق الغربي لى سكننا
قد كان عيشى به حلواً بجلوان (١)

مانى الموسوس :

وهناك شاعر آخر يختلف عن أبى تمام اختلافا تاما ذلك هو محمد بن القاسم ويكنى أبا الحسين ، ويعرف بمانى الموسوس لأنه كان بعقله شىء من الجنون ، هذا الرجل مصرى المولد والنشأة ، لكنه خرج من مصر ولم نعرف متى خرج ، إذ لم نعر على شىء من أخباره غير أن أبا الفرج يحدثنا أن هذا الشاعر « قدم مدينة السلام ولقيه جماعة من شيوخنا منهم أبو العباس بن عمار وأبو الحسن الأسدى وغيرهما (٢) وقد وصفه أحد الأدباء لمحمد بن عبد الله بن طاهر وقد طلب أحداً لمنادمته فقال له : قد خطر ببالى من ليس علينا بمنادمته ثقل ، قد خلا من إبرام المجالسين ، وبرىء من ثقل المؤانسين ، خفيف الوطأة إذا أدنيتته ، سريع الوثبة إذا أمرته (٣)

لم يصلنا عن هذا الرجل سوى أخبار فى جنونه ، وأبيات قليلة مبعثرة فى كتب الأدب تحملنا على القول بأن الشاعر كان كلفا بالغزل ووصف مجالس الخمر واللهو ، وبرع فى هذه الفنون . وقد تأثر بالقدماء فوقف على الديار وبكى الأطلال . وكان يحفظ كثيراً من الشعر ويرويه لأبى العباس بن عمار وهذا يكتب عنه ، قال ابن عمار (٤) كان

(١) شرحه ص ٣٢٣

(٢) الأغاني - ٢٠ ص ٨٤

(٣) ذيل ابن خلكان - ٢ ص ٢٦٢

(٤) الأغاني - ٢٠ ص ٨٤

« مان ، يالفنى ، وكان مليح الإِشاد حلوه ، رقيق الشعر غزله ، فكان
يذشد فى الشىء ثم يخالط فيقطعه ، وكان يوماً جالسا إلى جنبى فأنشدنى
للعريان البصرى قوله :

ما أنصفتك العيون لم تكف

وقد رأيت الحبيب لم يقف

إلى آخر القصيدة فسألته أن يملئها على ففعل، ثم قال: أكتب، فعارضه
أبو الحسين المصرى يعنى مانا نفسه فقال

أقفر مغنى الديار بالنجف

وحلت عما عهدت من لطف

طويت عنها الرضا مذمة

لما انطوى غصن عيشها الأنف

حملت عن سكرة الصبابة من

خوف إلهى بمعرك قدف

سئمت ورد الصبابة فقد يئست

منى بنات الخدور والخزف

سلوت عن نهد نسيبى إلى

حسن قوام واللحظ فى وطف

وتوفى هذا الرجل سنة خمس وأربعين ومائتين

لمحة عن أشهر الشعراء في ذلك العصر

١ — سعيد بن عفير :

هو سعيد بن كثير بن عفير بن مسلمة بن يزيد بن الأسود الأنصاري ويكنى أبا عثمان ، ولد بمصر سنة ست وأربعين ومائة ، وأتم علومه الدينية بمصر ، ثم رحل إلى بغداد فالمدينة حيث سمع الموطأ من الإمام مالك ، وعاد إلى مصر فروى الحديث عن الليث بن سعد ، وابن لهيعة ، وصار أحد المحدثين الثقة ، وعنه أخذ البخاري والنسائي ، وابن عبد الحكم وبكار بن قتيبة وغيرهم^(١) وأخذ بخط وافر من العلوم الأدبية فدرس علم الأنساب والتاريخ وحفظ أيام العرب وآثرها ، ووقائعها ، والمناقب والمثالب ، وكان في ذلك كله عالما كبيرا « وكان أدبيا فصيح اللسان حسن البيان ، لا تمل مجالسته . ولا ينزف علمه ، ويقال إن مصر لم تخرج أجمع للعلوم منه »^(٢) وكان عبد الله بن طاهر يقول : رأيت بمصر من عجائب الدنيا ثلاثة أشياء ، النيل والهرمين وابن عفير^(٣) . وبجانب هذا كله كان الشاعر ذكيا سريع البديهة ، حاضر الجواب فقد حدثنا ابن زولاق أن المأمون لما قدم مصر سنة سبع عشرة ومائتين جلس بقبة الهواء وحضرته سعيد بن عفير ، فقال المأمون : لعن الله

(١) حسن المحاضرة في مواضع متفرقة ، ومسالك الأبصار للعمري في باب المحدثين

(٢) نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية

(٣) تهذيب التهذيب - ٤ ص ٧٤

(٣) البلدان للهمداني ص ٦٨

فرعون حيث يقول : أليس لى ملك مصر ، فلو رأى العراق وخصبها
فقال سعيد بن عفير : يا أمير المؤمنين لا تقل هذا فإن الله عز وجل
قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » فما
ظنك يا أمير المؤمنين بشيء دمره الله هذا بقيته !! (١) .

ويحدثنا السيوطى (٢) أن ابن عفير ولى قضاء مصر ولاكنى لم أجد
له ذكرا بين القضاة فى كتاب الكندى ، ولا فى رفع الإصر عن قضاة
مصر لا بن حجر العسقلانى ، ولاكنه كان صديقا للقضاة ، وكانوا
يرجعون إليه فى كثير من المسائل الفقهية ، ويثقون بشهادته ، كما كان
أحد الذين جعل إليهم التحكيم فى قضية أهل الحرس التى مر ذكرها ،
كما كان له رأى فى اختيار قاضى مصر سنة اثنتى عشرة ومائتين ، فقد
قيل إن عبد الله بن طاهر أمر بإحضار وجوه أهل مصر ، فحضر عدد
كبير بينهم سعيد بن عفير ، فطلب إليهم ابن طاهر أن يختاروا قاضيا من
بينهم ، فرشح بعضهم أصبغ بن فرج الفقيه العالم ، فعارضه سعيد بن عفير
وقال : ليس هذا الرجل كما وصفت ، هذا رجل بذى طويل اللسان ،
وسجع سعيد فى وصفه . فقام أصبغ فقال : إن الأمير أمر أن يحضر
فى مجلسه الفقهاء وأهل العلم ، لا الشعراء ولا الكهنة (٣) . من هذا الحديث
نستطيع أن ندرك أن ابن عفير عرف بين معاصريه بالشعر ، وهجاء
خصومه بذلك .

(١) فضائل مصر واخبارها لابن زولاق (نسخة خطية بمكتبة الأزهر رقم ٦٦٩)

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦٨

(٣) القضاة للكندى ص ٤٣٤

اتصل ابن عفير بالحوادث التي كانت في عهده ، وأنشد الشعر في كل الاضطرابات التي كانت في مصر إذ ذاك ، لاسيما ما كان منها بين سنة ثمان وستين ومائة وسنة تسع ومائتين وقد ظهر في شعره روح العصبية العربية وقد ذكرنا صوراً من شعره في ذلك .

وكان ابن عفير رجلاً كريم النفس لم يتملق رئيساً ، ولم يمدح أميراً بقصد العطاء ، فلم يتكسب بشعره كغيره من الشعراء ، بل بالعكس من ذلك ، نراه قد هجأ الوالى المطلب الخزاعي ومدح معارضه هبيرة بن هاشم ، ورثى أبا بشر الأنصارى الذى قتله الوالى (١) .

لم يصلنا كل شعر هذا الرجل وإنما هي مقطعات قصيرة صغيرة ، لا نستطيع أن نعرف منها شاعريته ، ولا أدرى كيف قال الأستاذ «جوست» إن رثاء ابن عفير أرقى ما وصل إليه الشعر العربى فى كتاب الكندى وأجمله (٢) . ولكن الأستاذ «جوست» كغيره من المستشرقين لا يستطيعون أن يتذوقوا الشعر العربى مهما بلغ علمهم وثقافتهم فى العلوم العربية ، لأن ذوقهم الفنى متأثر بالبيئة التى هم فيها ، وخاضع لآلوان الحياة التى يحيونها ، وهى تختلف تمام الاختلاف عن البيئة والحياة العربية ، والذوق لا يأتى بالعلم والدرس فقط بل هو خاضع قبل كل شئ لما يحيط بالناقد من ضروب الحياة ، فالمستشرق يستطيع أن يحكم على شعر أنشد بلغته وقد يكون دقيقاً فى حكمه ، حكماً فى نقده ؛ ولكنه لا يستطيع أن يحكم على شعر عربى لبعده من بيئة هذا الشعر ، ثم

(١) الكندى ص ١٥٦

(٢) الكندى ص ٤٣

إن الأستاذ جوست قد حكم على الشاعر بهذه المقطعات القصيرة الصغيرة ، وهي عندى لا تكفى لأن ترينا رقة الشعر وجماله ، فالناقد لا يحكم على شاعر بقصيدة قالها ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرا على آخر لبیت قاله حتى سخر منهم مروان بن أبى حفصة فقد قيل إنه كان يروى شعرا لزهير ، وقال زهير والله أشعر الناس ، ثم أنشد للأعشى ، وقال الأعشى ، أشعر الناس ، ثم أنشد لامرئ القيس وقال امرؤ القيس أشعر الناس ، ثم ضحك وقال : والناس والله أشعر الناس .

ومهما يكن من شيء فإن ابن عفير لم يكن شاعرا فحسب ، فقد كان عالما محدثا وفقهيا ، وأظن أن علم الرجل يفسد فى كثير من الأحيان شعره إذا أخضع فنه لعلمه ، ويخرجه من الشعر الطبيعى إلى الشعر القريب من النظم ، لأن الشاعر العالم يخضع لعقله أكثر مما يخضع لعواطفه وشعوره ، أما إذا استطاع أن يخضع علمه لفنه فهنا نستطيع أن نتذوق الشعر الفنى القوى الذى لا يدانيه شعر آخر .

وتوفى سعيد بن عفير كما قال الذهبى سنة ست وعشرين ومائتين (١) .

المعلی الطائی

لا نعرف عن هذا الشاعر إلا شيئا قليلا ، ولم يتحدث عنه المؤرخون إلا بقدر لا يسمح لنا أن نعرف شخصيته ، وكل ما نعرفه أنه كان معاصرا لابن عفير ، ولكنه لم يبلغ من العلم ما بلغه صاحبه ، ويخيل إلى أنه

انقطع إلى الشعر والتكسب به ، فقد مدح الولاة ، واتصل بهم جميعا ، ودافع عن سياستهم ، وهجا أعداءهم ، فكان كغيره من الشعراء المادحين المتكسبين بشعرهم ، فكان يمدح الوالى فإذا عزل الوالى يمدح من يأتي بعده ، وقد رأينا يمدح المطلب الخزاعى وابن السرى ، ثم يمدح عبدالله ابن الطاهر الذى قتل ابن السرى ، ويحدثنا ابن سعيد فى كتابه « المغرب فى أخبار المغرب » أن المعلى ممن عاصر أبى نواس (١) ، فمن الجائز أن يكون قد اتصل بأبى نواس لما وفد هذا على مصر ، ولكننا لانعلم تماما مدى هذا الاتصال إذ لم يصلنا شيء من أخبارهما . ويروى ابن سعيد هذه الأبيات الشهيرة للمعلى :

لولا بُنَيَّات كزُغَب القطا ^١ جمعنَ من بعض إلى بعض
 لكان لى مضطربٌ واسع فى الأرض ذات الطول والعرض
 وإنما أولادنا بيننا أ كبادنا تمشى على الأرض
 إن هبَّتْ الریح على بعضهم أشفقت العين من الغمض (٢)
 ولكن أبى تمام فى حماسته ينسبها لحطان بن المعلى (٣) ، ورواها ابن عبد ربه منسوبة إلى المعلى (٤) ولا أستطيع أن أجزم لمن هذه الأبيات وإن كنت أميل إلى الأخذ بقول أبى تمام لأنه كان معاصرا للمعلى .
 ويخيل إلى أن المعلى الطائى كان صاحب لهُو ومجون . ولعل هذه

(١) المغرب ص ١٠١

(٢) شرحه

(٣) ديوان الحماسة ص ١٠١ (مطبعة السعادة سنة ١٩١٣)

(٤) العقد الفريد ج ١ ص ٣٦٤

الآبيات القليلة التي رواها أبو الفرج في الأغاني تؤيد أن المعلى كان يشرب الخمر كما كان يشربها كثير من الشعراء فهو يذكر الخمر بقوله :
باكر صبوحك صبحة النيروز

واشرب بكأس مترع وبكوز

ضحك الربيع إليك عن نواره

آس ونسرين ومرماحوز (١)

الجل الأكر:

اسمه الحسين بن عبد السلام ، ويعد في طليعة شعراء هذا العصر فقد تمتع بشهرة فائقة في دولة الشعر ، واتصل بكثير من الأمراء والقضاة ، ولد سنة سبعين ومائة ، وتلقى العلم بمصر حتى إذا وفد الشافعي على مصر ، صحبه الجمل وأخذ عنه ولا نعلم شيئاً عن حياة هذا الرجل أيضاً ، سوى أنه كان يتكسب بشعره ، فمدح الولاة وغيرهم ابتغاء الأموال والهبات ، فقد مدح المأمون بمصر ، كما مدح عبد الله ابن طاهر ، وأكثر مدائحه التي وصلتنا أنشدها في مدح القاضي محمد ابن ابى الليث ، وظل الشاعر يعرض شعره على الأمراء حتى كان ابن المدبر فاتصل به ، ثم اتصل بأحمد بن طولون ، وخص به فاتخذة شاعره ونديمه ، وعرف عن الجمل شره في الطعام ، وقذارة الثوب ودناءة النفس (٢) ولست أدري كيف نعمة ابن يونس بهذه الصفات ، في حين أننا نجد الجمل يقول في إحدى قصائده :

(١) الأغاني ١٧ ص ١٢٧

(٢) معجم الادباء لياقوت ٤ ص ٧٦

إذا أظمأتك أكف اللئام كفتك القناعة شبعاً ورياً
 فكن رجلاً رجله في الثرى وهامة همته في الثريا
 أيها لنسائل ذي ثروة تراه بما في يديه أيها
 فان إراقة ماء الحيا ة دون إراقة ماء الحيا (١)
 ومن الجائز أن الجمل كان من الشعراء الذين يقولون ما لا يفعلون
 وعرف الجمل بشيء من الظرف، وشهد له بذلك، فإن ابن سـعيد في
 حديثه عن الجمل الأصغر قال: لقبه كلقب الأكبر وكذلك اسمه،
 وكان ينحو في الظرافة والتطايب منحاه» (٢)
 وكما عرف الجمل بالمدح فقد عرف بالهجاء، فقد روى أن الحسين
 ابن عبد السلام بكر إلى سليمان بن وهب عامل الخراج بمصر، فلم
 يمكنه الحاجب من الدخول، وأدخل شاعرين آخرين هما ابن شعوة
 وحمدييه؛ فلم يستطع الجمل صبراً؛ وأرسل إلى سليمان أبياتاً منها:
 ولعمري لأن حجبنا عن الشيخ فلا عن وجه هناك وجيه
 لا ولا عن طعامه التافه النز الذي حوله لطام بنيه
 بل حجبنا به عن الخسف والمسـخ وذاك التبريق والتمويه
 فجزي الله حاجبنا فظا كل خير عنا إذا يحزيه (٣)
 وقد روينا له أبياتاً كثيرة عن الحوادث التي كانت بمصر في ذلك
 العصر وتوفي هذا الشاعر سنة ثمان وخمسين ومائتين من الهجرة.

(١) شرحه

(٢) المغرب ص ١٠٢

(٣) العقد الفريد ج ١ ص ٤١ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠ ١٠١ ١٠٢ ١٠٣ ١٠٤ ١٠٥ ١٠٦ ١٠٧ ١٠٨ ١٠٩ ١١٠ ١١١ ١١٢ ١١٣ ١١٤ ١١٥ ١١٦ ١١٧ ١١٨ ١١٩ ١٢٠ ١٢١ ١٢٢ ١٢٣ ١٢٤ ١٢٥ ١٢٦ ١٢٧ ١٢٨ ١٢٩ ١٣٠ ١٣١ ١٣٢ ١٣٣ ١٣٤ ١٣٥ ١٣٦ ١٣٧ ١٣٨ ١٣٩ ١٤٠ ١٤١ ١٤٢ ١٤٣ ١٤٤ ١٤٥ ١٤٦ ١٤٧ ١٤٨ ١٤٩ ١٥٠ ١٥١ ١٥٢ ١٥٣ ١٥٤ ١٥٥ ١٥٦ ١٥٧ ١٥٨ ١٥٩ ١٦٠ ١٦١ ١٦٢ ١٦٣ ١٦٤ ١٦٥ ١٦٦ ١٦٧ ١٦٨ ١٦٩ ١٧٠ ١٧١ ١٧٢ ١٧٣ ١٧٤ ١٧٥ ١٧٦ ١٧٧ ١٧٨ ١٧٩ ١٨٠ ١٨١ ١٨٢ ١٨٣ ١٨٤ ١٨٥ ١٨٦ ١٨٧ ١٨٨ ١٨٩ ١٩٠ ١٩١ ١٩٢ ١٩٣ ١٩٤ ١٩٥ ١٩٦ ١٩٧ ١٩٨ ١٩٩ ٢٠٠ ٢٠١ ٢٠٢ ٢٠٣ ٢٠٤ ٢٠٥ ٢٠٦ ٢٠٧ ٢٠٨ ٢٠٩ ٢١٠ ٢١١ ٢١٢ ٢١٣ ٢١٤ ٢١٥ ٢١٦ ٢١٧ ٢١٨ ٢١٩ ٢٢٠ ٢٢١ ٢٢٢ ٢٢٣ ٢٢٤ ٢٢٥ ٢٢٦ ٢٢٧ ٢٢٨ ٢٢٩ ٢٣٠ ٢٣١ ٢٣٢ ٢٣٣ ٢٣٤ ٢٣٥ ٢٣٦ ٢٣٧ ٢٣٨ ٢٣٩ ٢٤٠ ٢٤١ ٢٤٢ ٢٤٣ ٢٤٤ ٢٤٥ ٢٤٦ ٢٤٧ ٢٤٨ ٢٤٩ ٢٥٠ ٢٥١ ٢٥٢ ٢٥٣ ٢٥٤ ٢٥٥ ٢٥٦ ٢٥٧ ٢٥٨ ٢٥٩ ٢٦٠ ٢٦١ ٢٦٢ ٢٦٣ ٢٦٤ ٢٦٥ ٢٦٦ ٢٦٧ ٢٦٨ ٢٦٩ ٢٧٠ ٢٧١ ٢٧٢ ٢٧٣ ٢٧٤ ٢٧٥ ٢٧٦ ٢٧٧ ٢٧٨ ٢٧٩ ٢٨٠ ٢٨١ ٢٨٢ ٢٨٣ ٢٨٤ ٢٨٥ ٢٨٦ ٢٨٧ ٢٨٨ ٢٨٩ ٢٩٠ ٢٩١ ٢٩٢ ٢٩٣ ٢٩٤ ٢٩٥ ٢٩٦ ٢٩٧ ٢٩٨ ٢٩٩ ٣٠٠ ٣٠١ ٣٠٢ ٣٠٣ ٣٠٤ ٣٠٥ ٣٠٦ ٣٠٧ ٣٠٨ ٣٠٩ ٣١٠ ٣١١ ٣١٢ ٣١٣ ٣١٤ ٣١٥ ٣١٦ ٣١٧ ٣١٨ ٣١٩ ٣٢٠ ٣٢١ ٣٢٢ ٣٢٣ ٣٢٤ ٣٢٥ ٣٢٦ ٣٢٧ ٣٢٨ ٣٢٩ ٣٣٠ ٣٣١ ٣٣٢ ٣٣٣ ٣٣٤ ٣٣٥ ٣٣٦ ٣٣٧ ٣٣٨ ٣٣٩ ٣٤٠ ٣٤١ ٣٤٢ ٣٤٣ ٣٤٤ ٣٤٥ ٣٤٦ ٣٤٧ ٣٤٨ ٣٤٩ ٣٥٠ ٣٥١ ٣٥٢ ٣٥٣ ٣٥٤ ٣٥٥ ٣٥٦ ٣٥٧ ٣٥٨ ٣٥٩ ٣٦٠ ٣٦١ ٣٦٢ ٣٦٣ ٣٦٤ ٣٦٥ ٣٦٦ ٣٦٧ ٣٦٨ ٣٦٩ ٣٧٠ ٣٧١ ٣٧٢ ٣٧٣ ٣٧٤ ٣٧٥ ٣٧٦ ٣٧٧ ٣٧٨ ٣٧٩ ٣٨٠ ٣٨١ ٣٨٢ ٣٨٣ ٣٨٤ ٣٨٥ ٣٨٦ ٣٨٧ ٣٨٨ ٣٨٩ ٣٩٠ ٣٩١ ٣٩٢ ٣٩٣ ٣٩٤ ٣٩٥ ٣٩٦ ٣٩٧ ٣٩٨ ٣٩٩ ٤٠٠ ٤٠١ ٤٠٢ ٤٠٣ ٤٠٤ ٤٠٥ ٤٠٦ ٤٠٧ ٤٠٨ ٤٠٩ ٤١٠ ٤١١ ٤١٢ ٤١٣ ٤١٤ ٤١٥ ٤١٦ ٤١٧ ٤١٨ ٤١٩ ٤٢٠ ٤٢١ ٤٢٢ ٤٢٣ ٤٢٤ ٤٢٥ ٤٢٦ ٤٢٧ ٤٢٨ ٤٢٩ ٤٣٠ ٤٣١ ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤ ٤٣٥ ٤٣٦ ٤٣٧ ٤٣٨ ٤٣٩ ٤٤٠ ٤٤١ ٤٤٢ ٤٤٣ ٤٤٤ ٤٤٥ ٤٤٦ ٤٤٧ ٤٤٨ ٤٤٩ ٤٥٠ ٤٥١ ٤٥٢ ٤٥٣ ٤٥٤ ٤٥٥ ٤٥٦ ٤٥٧ ٤٥٨ ٤٥٩ ٤٦٠ ٤٦١ ٤٦٢ ٤٦٣ ٤٦٤ ٤٦٥ ٤٦٦ ٤٦٧ ٤٦٨ ٤٦٩ ٤٧٠ ٤٧١ ٤٧٢ ٤٧٣ ٤٧٤ ٤٧٥ ٤٧٦ ٤٧٧ ٤٧٨ ٤٧٩ ٤٨٠ ٤٨١ ٤٨٢ ٤٨٣ ٤٨٤ ٤٨٥ ٤٨٦ ٤٨٧ ٤٨٨ ٤٨٩ ٤٩٠ ٤٩١ ٤٩٢ ٤٩٣ ٤٩٤ ٤٩٥ ٤٩٦ ٤٩٧ ٤٩٨ ٤٩٩ ٥٠٠ ٥٠١ ٥٠٢ ٥٠٣ ٥٠٤ ٥٠٥ ٥٠٦ ٥٠٧ ٥٠٨ ٥٠٩ ٥١٠ ٥١١ ٥١٢ ٥١٣ ٥١٤ ٥١٥ ٥١٦ ٥١٧ ٥١٨ ٥١٩ ٥٢٠ ٥٢١ ٥٢٢ ٥٢٣ ٥٢٤ ٥٢٥ ٥٢٦ ٥٢٧ ٥٢٨ ٥٢٩ ٥٣٠ ٥٣١ ٥٣٢ ٥٣٣ ٥٣٤ ٥٣٥ ٥٣٦ ٥٣٧ ٥٣٨ ٥٣٩ ٥٤٠ ٥٤١ ٥٤٢ ٥٤٣ ٥٤٤ ٥٤٥ ٥٤٦ ٥٤٧ ٥٤٨ ٥٤٩ ٥٥٠ ٥٥١ ٥٥٢ ٥٥٣ ٥٥٤ ٥٥٥ ٥٥٦ ٥٥٧ ٥٥٨ ٥٥٩ ٥٦٠ ٥٦١ ٥٦٢ ٥٦٣ ٥٦٤ ٥٦٥ ٥٦٦ ٥٦٧ ٥٦٨ ٥٦٩ ٥٧٠ ٥٧١ ٥٧٢ ٥٧٣ ٥٧٤ ٥٧٥ ٥٧٦ ٥٧٧ ٥٧٨ ٥٧٩ ٥٨٠ ٥٨١ ٥٨٢ ٥٨٣ ٥٨٤ ٥٨٥ ٥٨٦ ٥٨٧ ٥٨٨ ٥٨٩ ٥٩٠ ٥٩١ ٥٩٢ ٥٩٣ ٥٩٤ ٥٩٥ ٥٩٦ ٥٩٧ ٥٩٨ ٥٩٩ ٦٠٠ ٦٠١ ٦٠٢ ٦٠٣ ٦٠٤ ٦٠٥ ٦٠٦ ٦٠٧ ٦٠٨ ٦٠٩ ٦١٠ ٦١١ ٦١٢ ٦١٣ ٦١٤ ٦١٥ ٦١٦ ٦١٧ ٦١٨ ٦١٩ ٦٢٠ ٦٢١ ٦٢٢ ٦٢٣ ٦٢٤ ٦٢٥ ٦٢٦ ٦٢٧ ٦٢٨ ٦٢٩ ٦٣٠ ٦٣١ ٦٣٢ ٦٣٣ ٦٣٤ ٦٣٥ ٦٣٦ ٦٣٧ ٦٣٨ ٦٣٩ ٦٤٠ ٦٤١ ٦٤٢ ٦٤٣ ٦٤٤ ٦٤٥ ٦٤٦ ٦٤٧ ٦٤٨ ٦٤٩ ٦٥٠ ٦٥١ ٦٥٢ ٦٥٣ ٦٥٤ ٦٥٥ ٦٥٦ ٦٥٧ ٦٥٨ ٦٥٩ ٦٦٠ ٦٦١ ٦٦٢ ٦٦٣ ٦٦٤ ٦٦٥ ٦٦٦ ٦٦٧ ٦٦٨ ٦٦٩ ٦٧٠ ٦٧١ ٦٧٢ ٦٧٣ ٦٧٤ ٦٧٥ ٦٧٦ ٦٧٧ ٦٧٨ ٦٧٩ ٦٨٠ ٦٨١ ٦٨٢ ٦٨٣ ٦٨٤ ٦٨٥ ٦٨٦ ٦٨٧ ٦٨٨ ٦٨٩ ٦٩٠ ٦٩١ ٦٩٢ ٦٩٣ ٦٩٤ ٦٩٥ ٦٩٦ ٦٩٧ ٦٩٨ ٦٩٩ ٧٠٠ ٧٠١ ٧٠٢ ٧٠٣ ٧٠٤ ٧٠٥ ٧٠٦ ٧٠٧ ٧٠٨ ٧٠٩ ٧١٠ ٧١١ ٧١٢ ٧١٣ ٧١٤ ٧١٥ ٧١٦ ٧١٧ ٧١٨ ٧١٩ ٧٢٠ ٧٢١ ٧٢٢ ٧٢٣ ٧٢٤ ٧٢٥ ٧٢٦ ٧٢٧ ٧٢٨ ٧٢٩ ٧٣٠ ٧٣١ ٧٣٢ ٧٣٣ ٧٣٤ ٧٣٥ ٧٣٦ ٧٣٧ ٧٣٨ ٧٣٩ ٧٤٠ ٧٤١ ٧٤٢ ٧٤٣ ٧٤٤ ٧٤٥ ٧٤٦ ٧٤٧ ٧٤٨ ٧٤٩ ٧٥٠ ٧٥١ ٧٥٢ ٧٥٣ ٧٥٤ ٧٥٥ ٧٥٦ ٧٥٧ ٧٥٨ ٧٥٩ ٧٦٠ ٧٦١ ٧٦٢ ٧٦٣ ٧٦٤ ٧٦٥ ٧٦٦ ٧٦٧ ٧٦٨ ٧٦٩ ٧٧٠ ٧٧١ ٧٧٢ ٧٧٣ ٧٧٤ ٧٧٥ ٧٧٦ ٧٧٧ ٧٧٨ ٧٧٩ ٧٨٠ ٧٨١ ٧٨٢ ٧٨٣ ٧٨٤ ٧٨٥ ٧٨٦ ٧٨٧ ٧٨٨ ٧٨٩ ٧٩٠ ٧٩١ ٧٩٢ ٧٩٣ ٧٩٤ ٧٩٥ ٧٩٦ ٧٩٧ ٧٩٨ ٧٩٩ ٨٠٠ ٨٠١ ٨٠٢ ٨٠٣ ٨٠٤ ٨٠٥ ٨٠٦ ٨٠٧ ٨٠٨ ٨٠٩ ٨١٠ ٨١١ ٨١٢ ٨١٣ ٨١٤ ٨١٥ ٨١٦ ٨١٧ ٨١٨ ٨١٩ ٨٢٠ ٨٢١ ٨٢٢ ٨٢٣ ٨٢٤ ٨٢٥ ٨٢٦ ٨٢٧ ٨٢٨ ٨٢٩ ٨٣٠ ٨٣١ ٨٣٢ ٨٣٣ ٨٣٤ ٨٣٥ ٨٣٦ ٨٣٧ ٨٣٨ ٨٣٩ ٨٤٠ ٨٤١ ٨٤٢ ٨٤٣ ٨٤٤ ٨٤٥ ٨٤٦ ٨٤٧ ٨٤٨ ٨٤٩ ٨٥٠ ٨٥١ ٨٥٢ ٨٥٣ ٨٥٤ ٨٥٥ ٨٥٦ ٨٥٧ ٨٥٨ ٨٥٩ ٨٦٠ ٨٦١ ٨٦٢ ٨٦٣ ٨٦٤ ٨٦٥ ٨٦٦ ٨٦٧ ٨٦٨ ٨٦٩ ٨٧٠ ٨٧١ ٨٧٢ ٨٧٣ ٨٧٤ ٨٧٥ ٨٧٦ ٨٧٧ ٨٧٨ ٨٧٩ ٨٨٠ ٨٨١ ٨٨٢ ٨٨٣ ٨٨٤ ٨٨٥ ٨٨٦ ٨٨٧ ٨٨٨ ٨٨٩ ٨٩٠ ٨٩١ ٨٩٢ ٨٩٣ ٨٩٤ ٨٩٥ ٨٩٦ ٨٩٧ ٨٩٨ ٨٩٩ ٩٠٠ ٩٠١ ٩٠٢ ٩٠٣ ٩٠٤ ٩٠٥ ٩٠٦ ٩٠٧ ٩٠٨ ٩٠٩ ٩١٠ ٩١١ ٩١٢ ٩١٣ ٩١٤ ٩١٥ ٩١٦ ٩١٧ ٩١٨ ٩١٩ ٩٢٠ ٩٢١ ٩٢٢ ٩٢٣ ٩٢٤ ٩٢٥ ٩٢٦ ٩٢٧ ٩٢٨ ٩٢٩ ٩٣٠ ٩٣١ ٩٣٢ ٩٣٣ ٩٣٤ ٩٣٥ ٩٣٦ ٩٣٧ ٩٣٨ ٩٣٩ ٩٤٠ ٩٤١ ٩٤٢ ٩٤٣ ٩٤٤ ٩٤٥ ٩٤٦ ٩٤٧ ٩٤٨ ٩٤٩ ٩٥٠ ٩٥١ ٩٥٢ ٩٥٣ ٩٥٤ ٩٥٥ ٩٥٦ ٩٥٧ ٩٥٨ ٩٥٩ ٩٦٠ ٩٦١ ٩٦٢ ٩٦٣ ٩٦٤ ٩٦٥ ٩٦٦ ٩٦٧ ٩٦٨ ٩٦٩ ٩٧٠ ٩٧١ ٩٧٢ ٩٧٣ ٩٧٤ ٩٧٥ ٩٧٦ ٩٧٧ ٩٧٨ ٩٧٩ ٩٨٠ ٩٨١ ٩٨٢ ٩٨٣ ٩٨٤ ٩٨٥ ٩٨٦ ٩٨٧ ٩٨٨ ٩٨٩ ٩٩٠ ٩٩١ ٩٩٢ ٩٩٣ ٩٩٤ ٩٩٥ ٩٩٦ ٩٩٧ ٩٩٨ ٩٩٩ ١٠٠٠ ١٠٠١ ١٠٠٢ ١٠٠٣ ١٠٠٤ ١٠٠٥ ١٠٠٦ ١٠٠٧ ١٠٠٨ ١٠٠٩ ١٠١٠ ١٠١١ ١٠١٢ ١٠١٣ ١٠١٤ ١٠١٥ ١٠١٦ ١٠١٧ ١٠١٨ ١٠١٩ ١٠٢٠ ١٠٢١ ١٠٢٢ ١٠٢٣ ١٠٢٤ ١٠٢٥ ١٠٢٦ ١٠٢٧ ١٠٢٨ ١٠٢٩ ١٠٣٠ ١٠٣١ ١٠٣٢ ١٠٣٣ ١٠٣٤ ١٠٣٥ ١٠٣٦ ١٠٣٧ ١٠٣٨ ١٠٣٩ ١٠٤٠ ١٠٤١ ١٠٤٢ ١٠٤٣ ١٠٤٤ ١٠٤٥ ١٠٤٦ ١٠٤٧ ١٠٤٨ ١٠٤٩ ١٠٥٠ ١٠٥١ ١٠٥٢ ١٠٥٣ ١٠٥٤ ١٠٥٥ ١٠٥٦ ١٠٥٧ ١٠٥٨ ١٠٥٩ ١٠٦٠ ١٠٦١ ١٠٦٢ ١٠٦٣ ١٠٦٤ ١٠٦٥ ١٠٦٦ ١٠٦٧ ١٠٦٨ ١٠٦٩ ١٠٧٠ ١٠٧١ ١٠٧٢ ١٠٧٣ ١٠٧٤ ١٠٧٥ ١٠٧٦ ١٠٧٧ ١٠٧٨ ١٠٧٩ ١٠٨٠ ١٠٨١ ١٠٨٢ ١٠٨٣ ١٠٨٤ ١٠٨٥ ١٠٨٦ ١٠٨٧ ١٠٨٨ ١٠٨٩ ١٠٩٠ ١٠٩١ ١٠٩٢ ١٠٩٣ ١٠٩٤ ١٠٩٥ ١٠٩٦ ١٠٩٧ ١٠٩٨ ١٠٩٩ ١١٠٠ ١١٠١ ١١٠٢ ١١٠٣ ١١٠٤ ١١٠٥ ١١٠٦ ١١٠٧ ١١٠٨ ١١٠٩ ١١١٠ ١١١١ ١١١٢ ١١١٣ ١١١٤ ١١١٥ ١١١٦ ١١١٧ ١١١٨ ١١١٩ ١١٢٠ ١١٢١ ١١٢٢ ١١٢٣ ١١٢٤ ١١٢٥ ١١٢٦ ١١٢٧ ١١٢٨ ١١٢٩ ١١٣٠ ١١٣١ ١١٣٢ ١١٣٣ ١١٣٤ ١١٣٥ ١١٣٦ ١١٣٧ ١١٣٨ ١١٣٩ ١١٤٠ ١١٤١ ١١٤٢ ١١٤٣ ١١٤٤ ١١٤٥ ١١٤٦ ١١٤٧ ١١٤٨ ١١٤٩ ١١٥٠ ١١٥١ ١١٥٢ ١١٥٣ ١١٥٤ ١١٥٥ ١١٥٦ ١١٥٧ ١١٥٨ ١١٥٩ ١١٦٠ ١١٦١ ١١٦٢ ١١٦٣ ١١٦٤ ١١٦٥ ١١٦٦ ١١٦٧ ١١٦٨ ١١٦٩ ١١٧٠ ١١٧١ ١١٧٢ ١١٧٣ ١١٧٤ ١١٧٥ ١١٧٦ ١١٧٧ ١١٧٨ ١١٧٩ ١١٨٠ ١١٨١ ١١٨٢ ١١٨٣ ١١٨٤ ١١٨٥ ١١٨٦ ١١٨٧ ١١٨٨ ١١٨٩ ١١٩٠ ١١٩١ ١١٩٢ ١١٩٣ ١١٩٤ ١١٩٥ ١١٩٦ ١١٩٧ ١١٩٨ ١١٩٩ ١٢٠٠ ١٢٠١ ١٢٠٢ ١٢٠٣ ١٢٠٤ ١٢٠٥ ١٢٠٦ ١٢٠٧ ١٢٠٨ ١٢٠٩ ١٢١٠ ١٢١١ ١٢١٢ ١٢١٣ ١٢١٤ ١٢١٥ ١٢١٦ ١٢١٧ ١٢١٨ ١٢١٩ ١٢٢٠ ١٢٢١ ١٢٢٢ ١٢٢٣ ١٢٢٤ ١٢٢٥ ١٢٢٦ ١٢٢٧ ١٢٢٨ ١٢٢٩ ١٢٣٠ ١٢٣١ ١٢٣٢ ١٢٣٣ ١٢٣٤ ١٢٣٥ ١٢٣٦ ١٢٣٧ ١٢٣٨ ١٢٣٩ ١٢٤٠ ١٢٤١ ١٢٤٢ ١٢٤٣ ١٢٤٤ ١٢٤٥ ١٢٤٦ ١٢٤٧ ١٢٤٨ ١٢٤٩ ١٢٥٠ ١٢٥١ ١٢٥٢ ١٢٥٣ ١٢٥٤ ١٢٥٥ ١٢٥٦ ١٢٥٧ ١٢٥٨ ١٢٥٩ ١٢٦٠ ١٢٦١ ١٢٦٢ ١٢٦٣ ١٢٦٤ ١٢٦٥ ١٢٦٦ ١٢٦٧ ١٢٦٨ ١٢٦٩ ١٢٧٠ ١٢٧١ ١٢٧٢ ١٢٧٣ ١٢٧٤ ١٢٧٥ ١٢٧٦ ١٢٧٧ ١٢٧٨ ١٢٧٩ ١٢٨٠ ١٢٨١ ١٢٨٢ ١٢٨٣ ١٢٨٤ ١٢٨٥ ١٢٨٦ ١٢٨٧ ١٢٨٨ ١٢٨٩ ١٢٩٠ ١٢٩١ ١٢٩٢ ١٢٩٣ ١٢٩٤ ١٢٩٥ ١٢٩٦ ١٢٩٧ ١٢٩٨ ١٢٩٩ ١٣٠٠ ١٣٠١ ١٣٠٢ ١٣٠٣ ١٣٠٤ ١٣٠٥ ١٣٠٦ ١٣٠٧ ١٣٠٨ ١٣٠٩ ١٣١٠ ١٣١١ ١٣١٢ ١٣١٣ ١٣١٤ ١٣١٥ ١٣١٦ ١٣١٧ ١٣١٨ ١٣١٩ ١٣٢٠ ١٣٢١ ١٣٢٢ ١٣٢٣ ١٣٢٤ ١٣٢٥ ١٣٢٦ ١٣٢٧ ١٣٢٨ ١٣٢٩ ١٣٣٠ ١٣٣١ ١٣٣٢ ١٣٣٣ ١٣٣٤ ١٣٣٥ ١٣٣٦ ١٣٣٧ ١٣٣٨ ١٣٣٩ ١٣٤٠ ١٣٤١ ١٣٤٢ ١٣٤٣ ١٣٤٤ ١٣٤٥ ١٣٤٦ ١٣٤٧ ١٣٤٨ ١٣٤٩ ١٣٥٠ ١٣٥١ ١٣٥٢ ١٣٥٣ ١٣٥٤ ١٣٥٥ ١٣٥٦ ١٣٥٧ ١٣٥٨ ١٣٥٩ ١٣٦٠ ١٣٦١ ١٣٦٢ ١٣٦٣ ١٣٦٤ ١٣٦٥ ١٣٦٦ ١٣٦٧ ١٣٦٨ ١٣٦٩ ١٣٧٠ ١٣٧١ ١٣٧٢ ١٣٧٣ ١٣٧٤ ١٣٧٥ ١٣٧٦ ١٣٧٧ ١٣٧٨ ١٣٧٩ ١٣٨٠ ١٣٨١ ١٣٨٢ ١٣٨٣ ١٣٨٤ ١٣٨٥ ١٣٨٦ ١٣٨٧ ١٣٨٨ ١٣٨٩ ١٣٩٠ ١٣٩١ ١٣٩٢ ١٣٩٣ ١٣٩٤ ١٣٩٥ ١٣٩٦ ١٣٩٧ ١٣٩٨ ١٣٩٩ ١٤٠٠ ١٤٠١ ١٤٠٢ ١٤٠٣ ١٤٠٤ ١٤٠٥ ١٤٠٦ ١٤٠٧ ١٤٠٨ ١٤٠٩ ١٤١٠ ١٤١١ ١٤١٢ ١٤١٣ ١٤١٤ ١٤١٥ ١٤١٦ ١٤١٧ ١٤١٨ ١٤١٩ ١٤٢٠ ١٤٢١ ١٤٢٢ ١٤٢٣ ١٤٢٤ ١٤٢٥ ١٤٢٦ ١٤٢٧ ١٤٢٨ ١٤٢٩ ١٤٣٠ ١٤٣١ ١٤٣٢ ١٤٣٣ ١٤٣٤ ١٤٣٥ ١٤٣٦ ١٤٣٧ ١٤٣٨ ١٤٣٩ ١٤٤٠ ١٤٤١ ١٤٤٢ ١٤٤٣ ١٤٤٤ ١٤٤٥ ١٤٤٦ ١٤٤٧ ١٤٤٨ ١٤٤٩ ١٤٥٠ ١٤٥١ ١٤٥٢ ١٤٥٣ ١٤٥٤ ١٤٥٥ ١٤٥٦ ١٤٥٧ ١٤٥٨ ١٤٥٩ ١٤٦٠ ١٤٦١ ١٤٦٢ ١٤٦٣ ١٤٦٤ ١٤٦٥ ١٤٦٦ ١٤٦٧ ١٤٦٨ ١٤٦٩ ١٤٧٠ ١٤٧١ ١٤٧٢ ١٤٧٣ ١٤٧٤ ١٤٧٥ ١٤٧٦ ١٤٧٧ ١٤٧٨ ١٤٧٩ ١٤٨٠ ١٤٨١ ١٤٨٢ ١٤٨٣ ١٤٨٤ ١٤٨٥ ١٤٨٦ ١٤٨٧ ١٤٨٨ ١٤٨٩ ١٤٩٠ ١٤٩١ ١٤٩٢ ١٤٩٣ ١٤٩٤ ١٤٩٥ ١٤٩٦ ١٤٩٧ ١٤٩٨ ١٤٩٩ ١٥٠٠ ١٥٠١ ١٥٠٢ ١٥٠٣ ١٥٠٤ ١٥٠٥ ١٥٠٦ ١٥٠٧ ١٥٠٨ ١٥٠٩ ١٥١٠ ١٥١١ ١٥١٢ ١٥١٣ ١٥١٤ ١٥١٥ ١٥١٦ ١٥١٧ ١٥١٨ ١٥١٩ ١٥٢٠ ١٥٢١ ١٥٢٢ ١٥٢٣ ١٥٢٤ ١٥٢٥ ١٥٢٦ ١٥٢٧ ١٥٢٨ ١٥٢٩ ١٥٣٠ ١٥٣١ ١٥٣٢ ١٥٣٣ ١٥٣٤ ١٥٣٥ ١٥٣٦ ١٥٣٧ ١٥٣٨ ١٥٣٩ ١٥٤٠ ١٥٤١ ١٥٤٢ ١٥٤٣ ١٥٤٤ ١٥٤٥ ١٥٤٦ ١٥٤٧ ١٥٤٨ ١٥٤٩ ١٥٥٠ ١٥٥١ ١٥٥٢ ١٥٥٣ ١٥٥٤ ١٥٥٥ ١٥٥٦ ١٥٥٧ ١٥٥٨ ١٥٥٩ ١٥٦٠ ١٥٦١ ١٥٦٢ ١٥٦٣ ١٥٦٤ ١٥٦٥ ١

الفصل الثالث

الشعر في عهد الطولونيين والأخشيديين

نستطيع أي نقدر لهذا العصر قيمته الأدبية إذا عرفنا أن الدولة العباسية اضمحل أمرها ، وفقدت سلطانها ، وانقسمت إلى دويلات صغيرة صار الأمر فيها إلى حكامها ، ولم يبق للخليفة العباسي إلا الدعاء في الخطبة ، بل كثيراً ما كان الولاة يقطعون خطبة الخليفة العباسي ، فصار أمير كل دويلة مستقلاً في شئون دويلته . وتنافس الأمراء فيما بينهم ، فكان بينهم حروب ، وأراد كل أمير أن يعرف فضله ، وتعلو كلمته ، فشجع الأمراء العلم ، وحبب كل أمير إلى العلماء أن يفدوا عليه ، واتخذ الأمراء من الشعراء وسيلة لنشر سلطانهم وازدياد نفوذهم فأغروا الشعراء بالأموال والهبات ، وتنافس الشعراء في خدمة الأمراء ، فكانت في الأقطار الإسلامية نهضة شعرية كبيرة ، وابتدأ ظهور الشعر الإقليمي — إن صح أن نسميه كذلك — إذ ظهر في الشعر عناصر الأقاليم المختلفة ، ومميزات الدول المتباينة ، وأصبح في كل إقليم شعراء ، وحفظ كل إقليم الشعر الذي أنشد فيه ، فبعد أن كانت بغداد هي مركز الحياة الأدبية وقلبها النابض ، صار الشعراء يقصدون الأقاليم المختلفة كما كانوا يقصدون بغداد من قبل ، وأصبحت النهضة الأدبية متفرقة في الأقاليم ، وكثرت الرحلات العلمية إلى مختلف الأمصار ، وأكثر الأمراء عطاء ونوالاً هو أعظمهم حظاً من وفود الشعراء والعلماء

وكان الطولونيون بمصر أهل كرم وبذخ، يعطون الأموال
الكثيرة، ويهبون الهدايا ويمدون السمط لكل طارق، واستقدموا
الشعراء والأدباء، وقربوهم ووصلوهم، فكونوا حولهم بلاطاً أدبياً
أشبه ما يكون ببلاط خلفاء العباسيين، فأنتجت هذه الحياة في مصر
أيام الطولونيين شعراً كثيراً، واجتمع في مصر عدد من الشعراء قل
أن يجود الدهر بمثلهم حتى بالغ القاضي أبو عمرو عثمان النابلسي في
عدددهم، إذ نقل عنه المقرئ أنه قال في كتابه «حسن السيرة في
اتخاذ الحصن بالجزيرة» رأيت كتاباً قدر اثنتي عشرة كراسة مضمونة
فهرست شعراء الميدان الذي لأحمد بن طولون. قال: فإذا كان أسماء
الشعراء في اثنتي عشرة كراسة كم يكون شعرهم؟ (١) ومع ما في هذا
القول من مبالغة فإن بنى طولون جمعوا حولهم عدداً كبيراً من الشعراء
فكثرت بذلك الشعراء المتكسبون، فلم يأت الأمير أمراً إلا ظهر في
شعر الشعراء، فمثلاً في الخلاف الذي كان بين أحمد بن طولون والموفق
العباسي سنة تسع وستين ومائتين نجد شعراء ابن طولون قد دافعوا
عنه، ومدحوه لأنه خلع الموفق عن ولاية العهد، وأمر بجهاذه
وحربه، من ذلك ما قاله قعدان بن عمرو.

طال الهدى بابن طولون الأمير كما

يزهو به الدين عن دين وإسلام

قاد الجيوش من الفسطاط يقدّمها

منه على الهول ماضٍ غير محجّام

فِي جَحْفَلٍ لِّلْمَنِيَا فِي مَقَانِبِهِ
 مَكَامِنْ بَيْنَ رَايَاتٍ وَأَعْلَامٍ
 يَسْمُو بِهِ مِنْ بَنِي سَامٍ غَطَارِقَةٌ
 بَيْضٌ وَسُودٌ أَسْوَدٌ مِنْ بَنِي حَامٍ
 لَوْ أَنَّ رُوحَ بَنِي كَنْدَجٍ مُعَلِّقَةٌ^(١)
 بِالْمَشْتَرَى لَمْ يَفْتَهُ أَوْ بِهَرَامٍ
 حَاطَ الْخِلَافَةَ وَالْدُنْيَا خَلِيفَتَنَا
 بَصَارِمٍ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ صَمَصَامٍ
 يَا أَيُّهَا النَّاسُ هُبُّوا نَاصِرِينَ لَهُ
 مَعَ الْأَمِيرِ بِذُهُمِ الْخَيْلِ فِي اللَّامِ
 لَيْسَتْ صَلَاةُ مُصَلِّكُمْ بِجَائِزَةٍ
 وَلَا الصِّيَامُ بِمَقْبُولٍ لِصِيَّامٍ
 حَتَّى يَرَى السَّيِّدُ الْمَيْمُونُ ذَبَّكُمْ
 عَنِ الْإِمَامِ بِأَطْرَافِ الْقَنَّا الدَّامِي^(٢)
 وَكَقَوْلِ الشَّاعِرِ مَنْصَفِ بْنِ خَلِيفَةِ الْهَذَلِيِّ
 يَا غُرَّةَ الدُّنْيَا الَّذِي أَفْعَالُهُ
 غُرَّرُهَا كُلُّ الْوَرَى تَتَعَلَّقُ
 أَنْتَ الْأَمِيرُ عَلَى الشَّامِ وَثَغْرُهَا
 وَالرَّقَّتَيْنِ وَمَا حَوَاهِ الْمَشْرِقِ

(١) يقصد الشاعر هنا إسحاق بن كنداج الذي أمر الخليفة المعتمد أثناء فراره

من الموفق في طريقه إلى ابن طولون

(٢) الكندي ص ٢٢٧

وإليك مصر وبرقة وحجازها
 كلّ إليك فؤاده متشوق
 هتك الخلاقة «صاعد»^(١) وخليله
 «اسحق» لعبا والحسود الأخرق
 أسيفنا بيض المنون فلدّيتها
 بنجيع من خذل الإمام تخدق
 ثمسي وتصبح ضاربا من دونه
 بمهند منه الحشوف تُفرق
 يتلوك «سعد» والمقدم «تيتك»
 «واللاذقي» وذو الحفيظة يلحق^(٢)

وفي أيام خمارويه بن أحمد بن طولون خرج خمارويه لحرب إسحق
 ابن كنداج سنة ثلاث وسبعين ومائتين فهزم ابن كنداج وتبعه خمارويه
 حتى بلغ «سر من رأى» فمدحه القاسم بن يحيى المرمي
 أتاناً أبو الجيش الأمير بيمنه
 فشرّد عنا الجور واقتقر العسر
 فإنّ يك أرض الرقتين به اكتست
 ضياء وإشراقا لقد أظلمت مصر
 فسائل به إسحق إذ سار نحوه
 بجيش كعرّض النيل يقدمه النصر

(١) هو صاعد بن مخلد الذي ساعد ابن كنداج في أسر المعتمد

(٢) الكندي ص ٢٢٨ وقد وردت الايات الثلاثة الاولى في النجوم الزاهرة

ج ٣ ص ٢٠ غير منسوبة لاحد في رثاء ابن طولون ، وهذا خطأ كما يفهم من الشعر

فأبلسَ إذ قيل الأمير ببالس
وأضحى ضعيف العقْد إذ عُقِدَ الجَمْرُ
ولما رأى الجيش ابنُ كُنْدَاجَ مقبلاً
أرثه المنيايا الحجرَ أعلامه الحجر
فولى شديدا ذا ارتياح كأنه
بكل بلاد طائرٌ ماله وكرُ
لئن سرَّ اسحق النجاة بنفسه
لقد ساءه في جمعه القتل والأسرُ
فلا يُعْبِطَنَّ بالعيش من بعد هذه
فقد كسرتُه كسرة ما لها جَبْرُ (١)

وقد خص القاسم بن يحيى بن معاوية المرمي شعره في مدح خمارويه
وقال فيه كل مدائح حتى سئل مرة أن ير حل عن مصر فقال :
وكيف رحيلى عن بلاد غدا بها
أبو الجيش والنيل الذى ملاً الأرض (٢)

وما كادت تدول دولة الطولونيين ، وتعود مصر مرة أخرى إلى
حكم العباسيين سنة اثنتين وتسعين ومائتين حتى رأينا الشعراء يرثون
الطولونيين ، ويأسفون على أيامهم الزاهرة ، بل نجد شاعرا هو سعيد
القاص ينظم تاريخهم فى قصيدة أرى أن أثبتها هنا لما فيها من إشادة
بأفعال الطولونيين ومنشئاتهم

(١) الكندى ص ٢٣٦ — ٢٣٧

(٢) الجزء الثالث من كتاب المغرب (نسخة خطية بدار الكتب المصرية)

جرى دمعُهُ ما بين سَحَرٍ إلى نحر
 ولم يَجْرُ حتى أَسْلَمَتْهُ يد الصبر
 وبات وقيدا للذي خامر الحشا
 يئن كما أنَّ الأسيرُ من الأسر
 وهل يستطيع الصبر مَنْ كان ذا أسي
 يبيت على جمر ويضجى على جمر
 تتابعُ أحداث يُضِيعُ صبره
 وغدر من الأيام والدهر ذو غدر
 أصاب على رغم الأتوف وجدعها
 ذوى الدين والدنيا بقاصمة الظهر
 طوى زينة الدنيا ومصباح أهلها
 بفقد بني طولون والأنجم الزهر
 فبادُوا وأضحوا بعد عزٍّ ومنعة
 أحاديث لا تخفى على كل ذى حجر
 وكان أبو العباس أحمد ماجدا
 جميلَ المحيَّا لا يبيت على وتر
 كأنَّ ليالى الدهر كانت لحسنها
 وإشراقها فى عصره ليلة القدر
 يدلُّ على فضل ابن طولون همَّة
 مُحَلِّقَةٌ بين السَّمَا كين والغفر

فَإِنْ كُنْتَ تَبْغِي شَاهِدًا ذَا عَدَالَةٍ
 يَخْبِرُ عَنْهُ بِالْجَلِيِّ مِنَ الْأَمْرِ
 فَبِالْجَبَلِ الْغَرْبِيِّ خُطَّةٌ يَشْكُرُ
 لَهُ مَسْجِدٌ يَغْنَى عَنِ الْمَنْطِقِ الْهَذَرِ
 يَدُلُّ ذَوِي الْأَلْبَابِ أَنْ بِنَاءَهُ
 وَبَانِيهِ لَا بِالضَّئِينَ وَلَا الْغَمْرِ
 بِنَاهُ بَآجِرٍ وَسَاجٍ وَعَرَّعَرِ
 وَبِالْمَرَمْرِ الْمَسْنُونِ وَالْجَصِّ وَالصَّخْرِ
 بَعِيدُ مَدَى الْأَفْطَارِ سَامُ بِنَاؤُهُ
 وَثِيقُ الْمَبَانِي مِنْ عَقُودٍ وَمِنْ جُدُرِ
 فَسِيحِ الرِّحَابِ يُخَسِّرُ الطَّرْفَ دُونَهُ
 رَقِيقُ النَّسِيمِ طَيِّبُ الْعَرْفِ وَالنَّشْرِ
 وَتَنْوَرُ فِرْعَوْنَ الذِّي فَوْقَ قَلْعَةٍ
 عَلَى شَاهِقِ عَالٍ عَلَى جَبَلٍ وَعَرِ
 بَنَى مَسْجِدًا فِيهِ يَرُوقُ بِنَاؤُهُ
 وَيَهْدِي بِهِ فِي اللَّيْلِ إِنْ ضَلَّ مَنْ يَسْرَى
 تَخَالُ سَمْنَا قَنْدِيلُهُ وَضُيَاءُهُ
 سُهَيْلًا إِذَا مَا لَاحَ فِي اللَّيْلِ لِلسَّفَرِ
 وَعَيْنٌ مَعَيْنُ الشَّرْبِ عَيْنُ زَكَاةٍ
 وَغَيْرُ أَجَاجٍ لِلرَّوَاةِ وَلِلطَّهْرِ

مآثر لا تبلى وإن باد ربهـا
ومجـدٌ يؤدّـى وارثـه إلى الفخر
لقد ضُـمِّنَ القبر المقدر ذرْعـه
أجل إذا ما قيس من قُبَّتـى حَجَر
وقام أبو الجيش ابنه بعد موته
كما قام ليث الغاب فى الأسـل الشمر
أتمه المنايا وهو فى أـمن داره
فأصبح مسلوبا من النهى والأمر
كذلك الليالى مـنْ أعارته بهجة
فيالك من ناب حديد ومن ظفر
وَوَرَّثَ هرون ابنه تاج ماجد
كذلك أبوالأشبال ذوالناب والحصـر
وقد كان جيش قبـله فى محله
ولكن جيشا كان مستنقص العمر
فقام بأمر الملك هرون مدة
على كـظـ من ضيق باع ومن حـصر
وما زال حتى زال والدهـر كاشـح
عقاربـه من كل ناحية تسرى
تذكرتهم لما مَضَوْا فـتـابـعوا
كما ارفض سـلك من جمان ومن شذر

فمن يبك شيئا ضاع من بعد أهله
لفقدهم فليبك حزننا على مصر
ليبك بنى طولون إذ بان عصرهم
فبورك من دهر وبورك من عصر^(١)

ولهذا الشاعر أيضا عدة قصائد في مدح الطولونيين يصف فيها
جميعا ازدهار الحياة في مصر، وقوة البلاد في عصرهم وما كانت ترتع
أفئده من نعيم ورخاء.

على أن هؤلاء الشعراء الذين أكثروا من مدح الطولونيين
وخلعوا عليهم هذه الصفات والألقاب الشعرية التي نراها دائما في مدح
شعراء العرب، لم يلبثوا أن تحولوا إلى مدح الأمراء والولاة العباسيين
الذين أبادوا ملك الطولونيين، وأخرجوا قوادهم ومواليهم، فخلت
منهم الديار المصرية وأحلوا بالطولونيين التطريد والتشريد ففي حين
نرى شاعرا كاسماعيل بن أبي هاشم قد مدح الطولونيين بعدة قصائد
كقوله بعد أن دالت دولتهم:

قف وقفة بفناء باب الساج
والقصر ذى الشرفات والأبراج
وربوع قوم أزعجوا عن دارهم
بعد الإقامة أيما إزعاج
كانوا مصايحاً إذا ظلم الدجى
يسرى بها السارون في الإدلاج

وَكَيْانَ وَجُوهُهُمْ إِذَا أَبْصَرَتْهَا
 مِنْ فِضَّةٍ مَصْبُوعَةٍ أَوْ عَاجٍ
 كَانُوا لِيُونَا لَا يُرَامُ حِمَاهُمْ
 فِي كُلِّ مَلْحَمَةٍ وَكُلِّ هِيَاجٍ
 فَانْظُرْ إِلَى آثَارِهِمْ تَلْقَى لَهُمْ
 عِلْمًا بِكُلِّ ثَنِيَّةٍ وَفُجَاغٍ
 وَعَلَيْهِمْ مَا عَشْتُ لَا أَدْعُ الْبِكَاءَ
 مَعَ كُلِّ ذِي نَظَرٍ وَطَرْفٍ سَاجٍ^(١)

هذا القول يظهر فيه الوفاء للطولونيين والاي خلاص لهم ونراه قد استمر على وفائه وإخلاصه ، يدلنا على ذلك شعره في ثورة محمد بن علي الخليجي^(٢) وكان أحد جند الطولونيين الذين أسرهم محمد بن سليمان القائد، وسار بهم إلى الشام ، وفي دمشق حدثت نفس ابن الخليجي أن يعود إلى مصر ، ويعيد الطولونيين إلى ملكهم ، وكاشف بذلك بعض أصفياهه فأجمعوا كلمتهم على ذلك ، وساروا معه حتى استولوا على الرملة باسم ابراهيم بن خمارويه ، واجتمع إليه خلق كثير سار بهم إلى مصر وهزم جيوش عيسى النوشري الوالي حتى استطاع ابن الخليجي أن يستولى

(١) الخطط ج ٢ ص ١١٩ والكندى ص ١٣٢ — ٢٥٣

(٢) سمي هذا الرجل في الكندى ص ٢٥٩ بابن الخليج وفي المقرئ ص ١٢٤ ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٩٢ سماه الخنيجي ، وفي مروج الذهب ج ٤ ص ٢١٧ سمي بالخليجي وكذلك في تاريخ الطبري ج ١١ ص ٣٩٣ والذي يصح عندي أنه ابن الخليج أو الخليجي لقول الشاعر في مدحه
 وكان أبوك خليج العفاة
 وبحر الثغور التي عالها

على الفسطاط في ذى القعدة سنة اثنتين وتسعين ومائتين ، وأرسل
الخليفة المكتفي بالله جيشا لقتاله وعليهم أبو الأغر خليفة بن المبارك
وغيره فقاتلهم ابن الخليجي بمنية الأصبع وهزمهم سنة ثلاث وتسعين
ومائتين (١) فمدحه الشعراء منهم اسماعيل بن هاشم بقوله :

أميرنا يا ابن البهاليل الغرر شفت من عدونا أبي الأغر
صدورنا وقيت من كل حذر إذ جاء في الشوك إلينا والشجر
في جحفل كموج بحر قد زخر يتبعه أهل البوادي والحضر
صبرت إذ لاقيته وما صبر فر في أسرع من ملح البصر
يقطر منه بوله قطر المطر أحدث فوق سرجه وما شعر
شفيتنا من شرهم مع الخزر ثم عفا أميرنا لما قدر (٢)

فهو هنا قد حفظ وفاء الطولونيين حتى أنه مدح ابن الخليجي الذي
عمل على إعادة دولة الطولونيين ولكن من الجائز أن يكون الشاعر قد
مدحه خوفاً منه ، ومع ذلك فقد مدح أحد صنائع الطولونيين وهو
بخلاف الشاعر سعيد القاص ، فقد رأينا قصيدته التي تحدث فيها عن
الطولونيين ، ومع ذلك فقد مدح القائد بدر الجمالي الذي هزم ابن
الخليجي سنة ثلاث وتسعين ومائتين بقوله :

حالت معارفهم إلى إنكار وغدا الخميس لهم يوم بوار
وتقاطعوا وتدابروا وتنافروا وتلاعنوا فيها كأهل النار
وأَتَوْك بين مُعَذِّرٍ في عُذْرِهِ خَجَلٍ وبين مصرح الإقرار

(١) النجوم الزاهرة ج ٣ ص ١٥١ وما بعدها

(٢) الكندي ص ٢٥٩

وتزعزعت تلك الرماح فصورت ركن المقطم في شفير هار
طلعت نجوم في الرماح بروحها فسقطن إذ طلعت نجوم قدار
لما انجلي ذاك الغبار رأيتهم صرعى وقد لبسوا بريم غبار
فأسعد بنصر الله والفتح الذي عظمت به النعمى على الأبرار (١)

فهذا شاعر متقلب في مدحه يمدح ذا السلطان والاميرة دون نظر
إلى مبدأ أو عقيدة مثله في ذلك مثل الشاعر أحمد بن محمد الحبشي الذي
مدح القائد محمد بن سليمان الكاتب لما دخل مصر وانتزعها من أيدي
الطولونيين — فقد أنشد هذا الشاعر قصيدة بائية تكاد تكون هي
نفسها قصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
فالشاعر المصري في قصيدته أخذ معاني قصيدة أبي تمام وأودعها
شعره بل أخذ ألفاظ أبي تمام وصنع منها قصيدته وفيها يقول :

الحمد لله إقراراً بما وهباً
قد لم بالآمن شعب الحق فانشعباً
الله أصدق هذا الفتح لا كذب

فسوء عاقبة المشوى لمن كذبا
فتح به فتح الدنيا محمدها
وفرّج الظلم والإظلام والكربا
لا ريب رب هياج يقتضى دعة
وفي القصاص حياة تذهب الرّيبا

رمى الإمام به عذراء غادرة
 فافتض عذرتها بالسيف واقتضبا
 محمد بن سليمان أعزَّهُم
 نفساً وأكرمهم في الذاهبين أبا
 سرى بأسد الشرى لو لم يروا بشرا
 أضحى عرينهم الخطى لا القضا
 حُمّ القضاء على اليعموم حين أتوا
 مثل الدُّبى يمتحون الدِّبَّةَ الدَّابَا
 إليها عَاوَتْ على الأيام مرتبة
 أبا على ترى من دونها الرتبا
 لما أطل بنو طولون خطبتهم
 من الخطوب وعافت منهم الخطبا
 هارت بهرون من ذكراك بَقَعَتَه
 وشيب الرعب شيبانا وقد رعبا
 وكم ترى لهم من جنة أنف
 ومن نعيم جنى من غدرهم عطبا
 فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم
 كأنها من زمان غابر ذهباً^(١)

ولأترك مقارنة هذه القصيدة المصرية بقصيدة أبى تمام المعروفة
 التى أنشدها فى مدح المعتصم ويذكر فيها فتح عمورية إذ ليس هنا مجال

البحث عن ذلك وأكتفى بالإشارة إليها ، وأعود إلى الشاعر أحمد ابن محمد الحبشي فأقول إنه كغيره من الشعراء الذين يمدحون أصحاب السلطان ويتغيرون بتغير الولاة والأمراء فهو في هذه القصيدة مدح عدو الطولونيين فلما استولى ابن الخليجي على مصر وأراد أن يعيد ملك الطولونيين نراه قد مدح الأمير لانتصاره على جيوش العباسيين بقوله :

غَضِبْتَ لِمَصْرٍ وَمَا نَالَهَا	وَشَرَّدْتَ بِالْخَوْفِ مَنْ غَالَهَا
تَلَا فَيْتَهَا بَعْدَ إِدْبَارِهَا	وَأَقْبَلْتَ تَطْلُبَ إِقْبَالِهَا
وَكَادَتْ تُؤَوِّهَ شَوْقًا إِلَيْكَ	وَتُظْهِرُ بِالشَّوْقِ بِلْبَالِهَا
وَمَا شَوْقَهَا كَانَ مِنْ طَبْعِهَا	وَلَكِنْ رَبِّكَ أَوْحَى لَهَا
لَقَدْ فَرَّجَ اللَّهُ كَرْبَ النُّفُوسِ	وَبَلَّغَهَا فِيكَ آمَالَهَا
وَلَمَّا رَأَيْنَاكَ فِي مِصْرِنَا	مِنْحَنَا الْإِمَارَةَ إِجْلَالَهَا
وَمَا زِلْتَ تَطْلُبُهَا هِمَّةً	وَتَرْكَبُ بِالسَّيْفِ أَهْوَالَهَا
وَتُعَلِّمُ نَفْسَكَ أَنْ الْأُمُورَ	إِمَّا عَلَيْهَا وَإِمَّا لَهَا
تَمَنَّوْا لِقَاكَ فَلَمَّا رَأَوْكَ	رَأَوْا لِلنِّبْيَةِ إِظْلَالَهَا
وَمَرُّوا يَطِيعُونَ فِي كُلِّ شَيْءٍ	رَأَوْهُ الْمُنَايَا وَإِنْزَالَهَا
وَكَانَ أَبُوكَ خَلِيجَ الْعَفَاةِ	وَبَحْرَ الشُّغُورِ الَّتِي عَالَهَا
بِهِ كَانَتْ الرُّومُ فِي أَمْنِهَا	تُفَزِّعُ لِلذَّنْبِ أَطْفَالَهَا (١)

نستطيع من ذلك كله أن ندرك أن عدداً كبيراً من الشعراء ظهروا في هذا العصر ، وأنشدوا شعراً في مدح الأمراء وأن كثيراً منهم

تقلب في المدح بتقلب الأحوال السياسية في البلد ، إذ لا همّ لأمثال هؤلاء الشعراء إلا إرضاء الأمير مهما كان هذا الأمير .

على أنه وجد بعض الشعراء الذين اتخذوا لأنفسهم رأياً خاصاً ، ومذهباً دافعوا عنه غير آبهين بأمر أو سلطان ، ففي الوقت الذي كان فيه أحمد بن طولون في منتهى قوته واتساع سلطانه ، وفي الوقت الذي تقرب فيه الشعراء اليه وحاولوا إرضاءه وطمعوا في نواله وتحذثوا عن نعمه وأياديه على البلاد ، في هذا الوقت نجد شاعراً من شعراء الطولونيين هو محمد بن داود قد أكثر من هجاء أحمد بن طولون فلم يأت الأمير عملاً إلا هجاء هذا الشاعر حتى إذا أقام الأمير المنشآت النافعة نجد الشاعر قد اتخذ هذه المنشآت وسيلة لهجاء الأمير دون خوف ، فمثلاً قد بنى الأمير المارستان سنة تسع وخمسين ومائتين فهجاه الشاعر محمد بن داود بقوله :

ألا أيها الأغفال أيها تأملوا
وهل يوقظ الأذهانَ غيرُ التأمل
ألم تعلموا أن ابن طولونِ نَقْمَةٌ
تُسَيِّرُ من سَفَلِ إليكم ومن عل
ولولا جنایاتُ الذنوب لما عَاصَتْ
عليكم يد العليج السخيف المجهل
فيا ليت مارستانه نِيطَ باستيه
وما فيه من عِلٍّ مُقَلِّل

قكم ضجة للناس من خلف ستره
تضج إلى قلب عن الله مُغْفَل (١)
ولما بنى أحمد بن طولون المراكب الحربية واتخذ الحصن في الجزيرة
هجاه الشاعر ابن داؤد بقوله .

لما ثوى ابن بُغا بالرقتين ملا
ساقيه زرقاً إلى الكعبين والعقب
بنى الجزيرة حصناً يَسْتَجِنُّ به
بالعسف والضرب، والصُّنَّاعُ في تعب
وراقبَ الجيزة القصوى فخذقها
وكاد يُصْنَعُ من خوف ومن رعب
له مراكب فوق النيل راكدة
فما سوى القار للنظار والخشب
يُرَى عليها لباسُ الذل مذ بنيت
بالشط ممنوعة من عِزَّة الطلب
فما بناها لغزو الروم مُحْتَسِباً
لكن بناها غداة الروع للهرب (٢)

وظل هذا الشاعر يهجو أحمد بن طولون حتى توفي الأمير فلم
يقلع عن هجائه بل رماه بأشد أنواع الهجاء ولم يتورع عن بسط
لسانه في الأمير حتى بعد وفاته من ذلك قوله :

(١) شرحه

(٢) خطط المقرئى ٣ ص ٢٩٣ والكندى ص ٢١٨

مضى غير مفقود وما كان عمره
 سوى نقمة للخلق شنعاء صيْلَم
 لقد زيد في اليجموم بالرجس لعنة
 ولم يُسَقَّ بالمرجوس ثَرْبُ المقطم
 ولم تبكه الأرضون لكن تبسمت
 سروراً ولولا موته لم تبسم
 يبشَّره إبليسُ عند قدومه
 عليه بأحمر بقعة في جهنم
 لقد طهرت الأرض من سوء فعله
 ومن وجهه ذاك الكريه المورم
 فلا سقيت أجداثه صوبُ مزنة
 وأتني وفيها شر أولاد آدم (١)

ولا أدري سبب هذا الهجاء الذي لا أكاد أعرف مثيلاً له في
 الهجاء العربي فإن الشعراء كانوا أمام حرمة الموت يتورعون عن هجاء
 الموتى ولكن هذا الشاعر المصري كان موتوراً — كما يخيل إليّ —
 فلم يكفه أن يظهر فرحه لموت الأمير بل هجاه بهذه الأبيات وبغيرها
 مما يدل على أن المصريين في هذا العصر اتخذوا الشعر وسيلة لهجاء
 الموتى وهو الأمر الذي لم نره في شعر المصريين قبل ذلك العصر .
 وفي هذا العصر أيضاً ظهر في الشعر المصري فن لم نجد له مثيلاً
 في العصور السابقة، بل لا نجد له مثيلاً في الشعر العربي إلا في شعر

الأندلسيين ، فمؤرخو الأدب العربي قالوا إن الأندلسيين امتازوا برثاء
الممالك والبلدان كلما اختطف عدوهم منها شيئاً ، وأشاد مؤرخو الأدب
بقصيدة ابن عبدون الأندلسي التي رثى بها دولة بني الألفطس والتي
مطلعها :

الدهر يفجع بعد العين بالآثر فما البكاء على الأشباح والصور

ومن يقرأ الشعر المصري في هذا العصر يجد أن هذا الفن كان
معروفا في مصر ، وأن شعراء مصر أكثروا في الحديث عنه ، فبعد أن
دالت دولة الطولونيين ، وعاد الأمر إلى الخليفة العباسي ودمرت
القطائع ، وخرب الميدان قام شعراء مصر يرثون أيام الطولونيين ،
وما بنوه ، ويعددون مفاخرهم ، ويصفون دورهم ، ويأسفون على ما لحق
هذه المنشآت الجميلة من التدمير والخراب ، والترحم على الأيام الجميلة
التي قضوها بين هذه المباني مثل قول الشاعر محمد بن طشويه :

من لم ير الهدمَ للبيدان لم يرَه
تبارك الله ما أعلاه وأقندرَه
لو أن عينَ الذي أنشاه تبصرَه
والحادثات تعاديه لأكبره
كانت عيونُ الورى تُغشى هيبته
إذا أضاف إليه الملكُ عسكرَه
أين الملوك التي كانت تحل به
وأين من كان بالاءِ تقان دبرَه

وأين من كان يحميه ويحرسه
 من كل ليث يهابُ الليثُ منظره
 صاح الزمان بمن فيه ففرقهم
 وحط ريبَ البلى فيه فدعته
 وأخلق الدهر منه حُسنَ جدته
 مثل الكتاب محاصران أسطره
 دُكَّتْ مناظره واجتثَّ جوسقه
 كأنما الخسفُ فاجاهُ فدمره
 أو هبَّ إعصارُ نار في جوانبه
 فعُـاد معروِّفه للعين منكروه
 كم كان يأوى إليه في مقاصره
 أحوى أغنَّ غضيض الطرف أحوره
 كم كان فيه لهم من مشرب غدق
 فعَبَّ طُرفُ الردى فيه فكدره
 أين ابن طولون بانيه وساكنه
 أماته الملكُ الأعلى فأقبره
 ما أوضح الأمر لو صحت لنا فكره
 طوبى لمن خصه رشدُه فذكَّره (١)
 وقال اسماعيل بن أبي هاشم:

يامنزلا لبنى طولون قد دثرا

سقاك صوب الغواذى القطر والمطرا

يامنزلا صرت أجفوه وأهجره

وكان يعدل عندى السمع والبصرا

بالله عندك علم من أحببنا

أم هل سمعت لهم من بعدنا خبرا (١)

وكقصيدة سعيد العاص التى مر ذكرها ، فمن ذلك نستطيع أن ندرك أن الشعراء المصريين أخذوا بنصيب وافر من هذا الفن الذى لم يكثر فيه غيرهم من شعراء الشرق ، كما يدلنا ذلك أيضا على تطور الشعر فى مصر ، فبعد أن كان الشعر المصرى فى العصور السابقة يكاد يكون صورة من الشعر العربى فى الأقطار الأخرى من حيث المعانى والخيال ، مع تغير المعانى والخيال بالحياة وبعض الصور المصرية ، وبعد أن كان الشعر شعر مناسبات — إن صح هذا التعبير — أصبح الشعر فى عصر الطولونيين والأخشيديين يأخذ مظهرا آخر لم نعرفه من قبل ، وقد رأينا الشعراء فى العصر السابق يأخذون بحظ وافر من الثقافات المختلفة ، وبعضهم صاحبوا الأئمة وأخذوا عنهم ، تطور الشعراء فى عصر الطولونيين فقد ترك أكثرهم العلم ، واهتموا بالفن الشعرى والتكسب به ، حقيقة وجد بعض الشعراء فى ذلك العصر أتقنوا كثيرا من فنون العلم ، فكان منهم الكتاب أمثال جعفر بن محمد ابن جدار وصالح بن رشدين وغيرهما ، وكان منهم المؤلفون

أمثال ابن الداية الذى تحدثنا عنه سابقا ، والحسن بن على الأسدى صاحب كتاب الانيس الذى وصفه بقوله :

فيه ما يشتهى الأديب من الع——

لم وفيه جلاء هم الن——فوس

فيه ما ش——ت من بدور معان

ضاحكات إلى وجوه شمس (١)

كما كان بين شعراء ذلك العصر بعض الفقهاء أمثال منصور الفقيه والحداد القاضى ، ومنهم المتكلمون كابن الجبى الشهير بسيدويه المصرى ، وبالغ بعضهم فى إطالة القصائد كالذى يروى عن قصيدة محمد بن أحمد بن الربيع بن سليمان الاسوانى التى لا يعلم فى الوجود أطول منها ، سئل قبل موته بسنتين كم بلغت قصيدتك إلى الآن قال : ثلاثين ومائة ألف بيت وقد ضمن قصيدته هذه كثيرا من الأخبار وقصص الأنبياء وبعض العلوم والآراء الفقهية وعلوم الطب (٢) ، وبالرغم من وجود هؤلاء الشعراء العلماء كان أكثر شعراء ذلك العصر يهتمون بالشعر دون غيره .

وفى الشعر المصرى فى هذا العصر كثير من الحكيم والأبيات التى جرت مجرى الأمثال ، وكثير من أشعار الزهد كالتى نراها فى أشعار منصور الفقيه وابن طباطبا وغيرهما .

(١) يتيمة الدهر للنعالي ج ١ ص ٣٢٧

(٢) فوات الوفيات للصمدى ج ١ ص ٤٤٤ نسخة خطية بالمكتبة التيمورية

أثر اللهو في الشعر :

والظاهرة التي يجب أن نلاحظها على شعراء هذا العصر هي انغماس الشعراء في تيار اللهو والمجون ، فقد غمرهم الترف ، فأخذوا بحظ وافر منه ، وكثر المجون في هذا العصر ، وازداد بازدياد ثروة البلاد ، فرغب الشعب المصري في هذه الحياة الماجنة ، والمصري بطبيعته ميال إلى الفكاهة والدعابة ، وإذا ذكر في العراق جماعة أبي نواس ففي مصر جماعة محمد بن عاصم وسعيد بن فاخر قاضى البقر شاعر الأخشيد ، وأبى هريرة بن أبى العصام وغيرهم .

وقد ساعد على وجود هذه الحياة بمصر بذخ الأمراء وإسرافهم ، وأخذهم بحياة النعيم وشرب الخمر والإسراف في شربها وسماع الغناء ، واللهو بالجوارى والقيان كما كان يفعل خلفاء بنى العباس .

فأحمد بن طولون مع تمسكه بأهداب الدين ، وكثرة علمه ، وما كان يؤثر عنه أنه كان يبكر كل يوم فيخرج لسماع قراءة الأئمة في المحراب (١) كان مع ذلك كله يشرب الخمر ويسمع الغناء ، ويقرب المغنين .

حدثنا ابن الداية قال : قال أحمد بن أيمن : كنا عند أحمد بن طولون فقال لـكنيز المغنى أشتى صوتا ما سمعته منذ خرجت من « سر من رأى » فقال : وما هو ياسيدى ؟ فقال هذا البيت :

ألا شفيتم غليلا لا أفارقه نفسى فداؤك من ذى غلة صادى
فحملنى النيد وما استهوانى من تقريب أحمد بن طولون وإيناسه
على أن قلت : أنا أحسنه !! ففرح ابن طولون ، واندفعت أغنيه إياه

— وكان أحمد بن أيمن ذا جثة عظيمة ، وعقيرة جهيرة حسنة الإيقاع —
فطرب طربا شديدا ثم صفق يديه ، فسبقتة إلى سحف الطرب ،
وقمت فرقصت على إيقاع اللحن فزاد سروره (١).

وعرف خمارويه بن أحمد بن طولون باللهو والمجون ، والبذخ في
الحياة والإسراف في الشراب حتى حدثنا التنوخى أن خمارويه كان
إذا قعد للشرب يشرب أربعين رطلا من نبيذ مصر المعروف بالشبروى ،
ومن يشرب منه رطلا يستطيع أن يشرب من غيره أوطالا (٢) ، وهذا
لا شك إسراف من التنوخى أيضا ، ولكنه يدلنا على أن خمارويه كان
كلفا بالشراب . ووجد بعض البلدان عرفت بصنع الجنور كمدينة أبوان
(بالقرب من دمياط) كان أهلها نصارى ويعمل فيها الشراب الفائق
فينسب إليها فيقال بونى (٣) .

ولا ننسى الأديرة الكثيرة التى كان ينزح إليها الشعراء وغيرهم من
أصحاب اللهو والمجون ، فكما كان العراقيون يذهبون إلى دير عبدوس
وغيره من الأديرة . كذلك ذهب المصريون إلى دير القصير ودير نهيا
ودير مارحنا وغيرها ، وكان خمارويه يذهب كثيرا إلى دير القصير
إذ بنى لنفسه غرفة فى أعلى الدير ذات أربع طاقات إلى أربع جهات ،
وكان يذهب إلى هذا الدير مظهرا إعجابه بصورة مريم العذراء التى كانت
فى هيكل الدير ، ويشرب على النظر إلى هذه الصورة (٤) . وكان الشعراء

(١) سيرة ابن طولون لابن الداىه ص ٤٩

(٢) نشوار المحاضرة للتنوخى ص ٢٦١

(٣) معجم البلدان ج ١ ص ٩٣

(٤) ورقة رقم ١٢٤ من كتاب الديارات لأبى الحسن الهافشقى نسخة خطية بدار
الكتب المصرية

يذهبون إلى هذا الدير ، ووصفوه في شعرهم ، وذكروا طيبه ونزهتهم به ، ثم لهُوهم ومجونهم ، وأيامهم التي قضوها فيه . من ذلك قول أبي هريرة ابن أبي العصام وكان من شعراء الأخشيديين .

كم لي بدير القُصَير من قَصَف

مع كل ذي صَبَوَة وذى ظَرْف

لهوت فيه بشادنٍ غَنِج

يقصر عنه بدائع الوصف (١)

ويحدثنا المقرئ أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر بهدم هذا الدير في رمضان سنة أربع مائة . أما دير مارحنا فقد كان على شاطئ بركة الحبش وبقر به بئر تعرف ببئر نجاتي عليها جُمَيْزَة يجتمع الناس إليها ويشربون عندها (٢) ومن الشعراء الذين كانوا يذهبون إلى هذا الدير الشاعر العباس بن البصري ، قال عنه الشافعي : وكان ابن البصري هذا من الخلعاء المجان ، وله شعر يجري مجرى الهزل والطيب ، وخدم أبا القاسم أونوجور بن الأخشيدي فأحسن إليه وكساه ، وصار يركب معه ، وكان يلبس طيلسانا أزرق يتشبه بالقضاة ، وكان أونوجور قد حمله على بردون أصفر غليظ بطيء السير ، فكان إذا سار مع أقوام من إخوانه قال لهم : صفوا لي موضعكم حتى ألحق بكم ! وكان مليح المجالسة كثير النادرة ، وكان يبيع الصيدلة في مسجد عبد الله بمصر (٣) . وقد قال هذا الشاعر في دير مارحنا :

(١) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٢١

(٢) ورقه ١٢٦ من كتاب الديارات

(٣) » » » ١٣٠ »

يا حامل الكأس أدرها واستقني
 قد ذعر الشوق فؤادي فاندعر
 أما ترى البركة ما أحسنها
 إذ تداعى الطير فيها فصفر
 أما ترى نوّارها أما ترى
 حسن مسيل مائها إذا انحدر
 كأنما صفر الدنانير بها
 مبدولة ليس بها من مُتَجَر
 كأنما الجوهر في ألوانه
 نُثر في تلك النواحي فانتثر
 كأنما كف جواد ولعت
 في ذلك الروض بتبديد البدر
 وأبيض النرجس في أجفانه
 دمع الندى لولا القشاجي لقطر
 ونظرة الورد إلى أترابه
 نظرة معشوق بلحظ منكسر
 دعني فما أهلك إلا بالجووى
 ما عيشة العاشق إلا في كدر^(١)

ولابن البصري شعر كثير في الأديرة التي كانت بمصر لاسيما في
 دير نهيا بالقرب من الجيزة، قال ابن فضل الله العمري عن هذا الدير
 «وديرها (أى دير نهيا) هذا من أطيبها موزعا، وأجلها موقعا، عامر

برهبانه وسكانه ، وله في النيل منظر عجب ، لأن الماء يحيط به من جميع جهاته ، ويزيد في حسن متزهاته ، فإذا تصرف الماء أظهرت أرضه غرائب النوار ، وعجائب الزهور المشرقة الأنوار ، وله خليج ينساب انسياب أرقم ، وعليه شطوط كأنها بالديباج ترقم ،^(١) وفي هذا الدير قال ابن البصري :

يامن إذا سكر النديم بكأسه
غُرِيتُ لَواحظه بسكر الفُيِّقِ
طلع الصباح فأُسْقِنِي تلك التي
ظَلِمْتَ فَشُبَّةَ لونها بالزنبق
والتقَّ الصباح بنور وجهك إنه
لا يلتقي الفرحان حتى نلتقى
قلبي الذي لم يُبقَ فيه هواكم
إلا بقية نار شوق قد بقي
أَوْ ما ترى وجه الربيع وقد زهت
أنواره بنهاره المتألق
وتجاوبت أطيَّاره وتبسمت
أشجاره من ثغر زهر مُورِق
لم يَغْدُها طل الرذاذ برده
حتى تفتح كل جفن مُطْبَق
والبدر في وسط السماء كأنه
وَجْهٌ مليح من قناع أزرق

يا للديارات المـلاح وما بها
 من طيب يوم مرّ لي بتشوق
 أيام كنتُ وكان لي شغلُ بها
 وأسـيرُ شوق صباقي لم يطلق
 يادير « نهيا » ماذ كرتك ساعة
 ألا تذكرت الشباب بمفرقي
 والدهر غَضُ والزمان مساعد
 ومقامنا ومبيتنا بالجوسق
 يادير « نهيا » إن ذُكرت فإني
 أسعى إليك على الخيول السبق
 وإذا سُئِلتَ عن الطيور وصيدها
 وجنوسها فاصدق وإن لم تصدق
 فالغرّ فالكروان فالقارور إذ
 يشجيك في طـيرانه المتحلق
 أشهدتَ حربَ الطير في غيطانه
 لما تحرق منه كل محرق ؟
 والزُّمَجَ الغضبانَ في رهط له
 ينحط بين مُرَعَد ومبرّق
 ورأيت للبازي سطوة موسر
 ولغـيره ذل الفقير المملق
 كم قد صبوت بغرّتي في شرّتي
 وقطعت أوقاتي برمي البندق

وخلعت في طلب المجون حبايلي
 حتى نسبنت إلى فعال الأخرق
 ومهاجر ومكسر ومنافر
 قلق الفؤاد به وإن لم يقلق
 لو عين التفاح حمرة خده
 لصبا إلى ديباج ذاك الرونق
 ياحامل السيف الغداة وطرفه
 أمضى من السيف الحسام المطلق
 إرفق بعبـدك لا تطل أشجانه
 وارفق به يا صاحب الشجر النقي (١)

ولم يقتصر اللهو على أن يصف الشعراء هذه الأديرة بهذا الوصف
 الجميل الرقيق، وذكر الطرد والصيد كالذي رأيناه في قصيدة ابن البصري
 السابقة، بل نجد كثيرا من الشعراء يصفون مجالس الخمر ويذكرون
 مجونهم وفحشهم ويعرضون بالدين، فمثلا الشاعر سعيد بن فاخر
 المعروف بقاضي البقر وكان شاعر الأخشيذ وابنه (٢) قال :

حي على الكأس في الصباح مطـرحا نصـح كل لاح
 وانتهب العيش ما تآتى فأنت منه على جـنـاح
 واجرنى من عقول قوم عموا عن الشرب والملاح
 يارب دَعْنِي بلا صلاح يارب ذرني بلا فـلاح
 يدي مَدَى الدهر فوق ردف وراحتي تحت كأس راح (٣)

(١) ورقه ١٢٩ و ١٣٠ من الديارات

(٢) المغرب في حلى أخبار المغرب ص ١٠٣

(٣) المغرب ص ١٠٣

فهذا الشاعر المصري الذي أنشد مثل هذا الشعر لا يقل في الفجور والعبث عن أشد شعراء العراق مجوناً وفسقاً ، فهو هنا قد تهكم بالدين ، ودعا الله أن يديم عليه ذلك التهاون بالدين مما يدل على أن حياة اللهو كان لها أثر كبير في شعراء ذلك العصر .

لم يكن قاضى البقر وحده الذى أنشد مثل هذا المجون والفحش بل نجد الشاعر أباهريرة أحمد بن أبى العصام وهو من شعراء أواخر الدولة الأخشيديّة قد أنهمك فى اللذات ، وأسرف فى اللهو ، وأدمن على الشراب ، فوصف الخمر ومجالس اللهو ، وكان كزميله قاضى البقر متهاوناً فى دينه ، لم يخش صاحب زندقة ولا سلطان ، وكان كزميله يتهم بالدين ، بل هو أشد تهكماً من زميله بفرائض الإسلام :

مجلس لا يرى الا لله به غَيْر مَصَلِّ بلا وضوء وطهر
سجدة لكؤوس من دون تسبيح سوى نخمة لعود وزمر^(١)

إذن ظهر اللهو والمجون في الشعر المصري في هذا العصر ، ولم
يبال الشاعر المصري بالشعور الديني الذي كان يسود البلاد . ونعجب
إذا عرفنا أن مثل هذا الشعر صدر عن شعراء على اتصال وثيق بالأمراء
فهل نفهم من ذلك أن أمراء مصر في هذا العصر تهاونوا بالدين إلى حد
أنهم سمحوا للشعراء المتصلين بهم أن يعبدوا بمثل هذه الأشعار .
الواقع أن أمراء مصر في ذلك العصر قد أكثروا من الترف
والنعيم ، وأرادوا أن يتمثلوا بخلفاء العباسيين في لهوهم ومجونهم ،

(7) ۳۰۰ به بیست و یکم

(7) $\frac{1}{2} \times \frac{1}{2} \times \frac{1}{2} \times \frac{1}{2}$

وشاركهم الشعراء والكتاب في اللهو ، وإن كان الشعور الديني ،
والتمسك بأهداب الدين يعم البلاد ، يحدثنا المقرئ أن أحمد بن طولون
كان قد اتخذ حجرة بقربه فيها رجال سماهم المكبرين ، يبيت منهم في
كل ليلة أربعة يتعاقبون الليل ، ويكبرون ويسبحون ، ويقرأون القرآن
تطريبا بالحنان ، ويتوسلون بقصائد زهدية ، فلها ولي خمارويه أقرهم على
حالمهم ، وأجراهم على رسمهم ، وكان يجلس للشرب مع حظاياه في الليل
وقيانه تغنين ، فإذا سمع أصوات هؤلاء يذكرون الله والقدح في يده ،
وضعه بالأرض وأسكت مغنياته ، وذكر الله معهم ، حتى يسكت
القوم ، لا يضجره ذلك ولا يغيظه أن قطع عليه ما كان فيه من لذة
بالسمع (١) مما يدل على أن الشعور الديني كان متغلغلا في نفس الأمير
ولكنه كان يأخذ بحظه من اللهو . وشارك الشعراء أمراءهم في هذا اللهو
وأخذ الشعراء يدعون بعضهم بعضا على مجالس اللهو كما كان يفعل
شعراء العراق ، فالشاعر المصري عبد الله بن محمد بن أبي الجوع — وكان
من شعراء الاخشيديين ، وصادق أبا الطيب المتنبى في مصر وروى
عنه ، وكان من أكبر علماء اللغة في عصره — دعا بعض أخوانه بقوله :

شعبان قد صار نضوا	ولم نفد فيه لهوا
وليس ذلك منّا	جهلا ولا كان سهوا
فبالمودة إلا	بكرت المقصف عدوا
حتى نقوم فنرفوا	ما خرّق الدهر رفوا
من بعد تقديم جدى	مسمّن ظل يشوى

له ثلاثون يوما	يحبوا إلى الضرع حبوا
لما انتزعت حشاه	عوضته البقل حشوا
وقد عنيت بحام	ملأته لك حلوى
وقهوة بنت كرم	صفت من الدم صفوا
ما شعشعت قط إلا	سقطت على الهم سطوا
جنببتها كل وغد	يمحو المحاسن محوا
إلا إذا ما اقتنصنا	عذب الخلائق حلوا
وشادن ذى دلال	يشدوا فياهيك شدوا
إما غناء وإما	عجائبها عنه تروى
حتى تظل بما فيه	من وقارك خلوا
وعندنا لك ورد	يحدو المسرة حدوا
ريحانه لا يوازي	لونا وعطرا وسروا
فما اعتذارك فى أن	تفى زمانك صحوا
وأنت بعد قليل	بالصوم والله تطوى ^(١)

وهكذا أصبح الشعر المصرى أداة للمراسلة بين الأصدقاء .
وبالشعر وصف الداعون ما أعدوا للزائرين من ألوان الأكل
والشرب وما يتبع ذلك من ألوان اللهو والطرب . وهذا كله يدلنا على
تطور الحياة المصرية ، وتطور الشعر بتطور الحياة نفسها .

الطبيعة في الشعر المصرى :

ويظهر تطور الشعر المصرى فى هذا الفن الذى أجاده كثير من شعراء مصر فى ذلك العصر ، وهو فن الوصف ، فالطبيعة وما فيها من جمال بعثت على إغراء الشعراء على وصفها ، وشعراء مصر الذين لم يكن لهم نصيب فى وصف جمال الطبيعة قبل عصر الطولونيين ، أو قل إنه لم يصلنا عنهم شيئاً فى الوصف قبل عصر الطولونيين ، أصبح عندهم وصف الطبيعة فنا يقصد لذاته ، بعد أن صقلت الحياة الجديدة مزاج الشعراء وصفت قريحتهم ، ولعل الشاعر ابن طباطبا العلوى كان أقدر شعراء مصر فى هذا العصر على الوصف ، وكان له من فنه بل من حياته ما جعله فى طبيعة شعراء الوصف ، فهو شاعر قال الشعر حبا فى الفن الشعرى ، وعن طبيعة رجل فنان ، ولم يقصد لغرض آخر سوى اللذة الفنية ، فاستطاع أن يمتع نظره وحواسه بما حوله من الطبيعة ، وما فيها من جمال وبهاء فتأثر بما رآه ، وأنشد الشعر تحت تأثير جمال الطبيعة الذى فتن به ، وأخذ فى تشبيه الموصوف وسبغ عليه من الخيال ، وألبسه ثوباً يتفق مع مزاجه الشعرى الفنى ، ففى وصفه للهِلال قال :

وكان الـهـلال لما تبدى

شطر طوق المرأة للتذهيب

أو كقوس قد انحنت أو كنبؤى^(١)

أو كنون فى مهرق مكتوب^(٢)

(١) النبؤى : الحفير حول الجباء أو الخيمة لمنع السيل

(٢) المغرب ص ٥٠

ووصف البركة بقوله :

كم ليلة ساهرت أنجمها التي
عَرَصَات^(١) أرضِ مأوها كسماؤها
قد سیرت فيها النجوم كأنما
فللك السماء يدور في أرجائها
أحسین بها بحراً إذ التبس الدجى
كانت نجوم الليل من حصائها
ترنو إلى الجوزاء وهى غريقة
تبغى النجاة ولات حين نجائها
تطفو وترسب في اصطيفاق مياهها
لا مستعان لها سوى إنمائها
والبدر يخفق وسطها فكأنه
قلب لها قد ريع في أحشائها^(٢)

وقد ذكرنا كيف كان شعراء مصر يذهبون إلى الأديرة وغيرها
من أماكن اللهو ، وكيف كانوا يصفون هذه البقاع ، ويتحدثون
بطبيعتها وجمالها ، ويتزعمون بجمال طبيعتها ، مما يدلنا على أن شعراء هذا
العصر قد دقت شعورهم ، ورق فئهم ، فوصفوا الطبيعة وجمالها ، ولا
أشك أن شعراً كثيراً قد أنشد في الوصف ، ولكن هذا الشعر فقد ،
ولم يبق منه إلا أبيات قليلة ، وهى إن دلت على شئ فهى تدل على أن

(١) عرصات وعراص وأعراس جمع عرصة كل بقعة بين الدور واسعة ليس

فيها بناء

(٢) حلبة الكميت ص ٣٣٩ (مطبعة الوطن ص ١٢٩٩ هـ)

الشاعر المصري نظر حوله فرأى ما لم يره غيره ، فأوحى إليه الشعر ،
ووصف ما رآه ، وما جال في خاطره ، وصفا قريبه إلى الطبيعة فأدركها ،
وفي هذا اللون من الفن يتجلى فن الشاعر الموهب الحسن ، الدقيق
الشعور ، الطبيعي الشعر . وهذا اللون نجده يغلب على شعراء هذا العصر
مما يميزهم عن شعراء العصور السابقة ، فإننا لم نعهد أحداً من شعراء
العصور السابقة قال مثل الذي أنشده الشاعر صالح بن موسى في
وصف البركة :

أو ما ترى حُسْنَ الريا ض وما اكتسين من الزَّهَرِ
وجه الربيع وحبذا وجه الربيع إذا ظهر
الوشى يَنْشُرُ والملا حِف والمطارف والخبز
هذا البنفسج في الحدا د بغير حزن قد ظهر
وأتى البهار بصفرة فكل حُسْن قد بهر
وكان آذريونه كاسات خمر تبتدر
وكأنما المتشور عقد في جوانبه انتثر
والأقحوان فضاحك عن عَسْجد فيه درر
وشقائق النعمان كالأعلام ثم لمن نظر
وتورد الورد الذكي وفاح مسكاً في السحر
وتجاوبت طير الغصون بكل لحن مُشْتَهَر
فمُغَرَّد حَسَن الغنا شدا وآخر قد زمر
وتسرقَت أنفاسنا بنسيم أنفاس السحر (١)

أما الهجاء فقد ذكرنا هجاء ابن أبي داؤد في ابن طولون — وظهر في هذا العصر الهجاء بين الشعراء ، كالذى كان بين صالح بن مؤنس ، وعبد الله بن أبي الجوع^(١) ، وفي هجائهما نرى شيئاً من الفحش كالذى كان في هجاء جرير والفرزدق ، وكان هناك لون آخر من الهجاء لم يكن بين الشعراء ، إنما كان هجاء بين العلماء كالذى رأيناه في العصور السابقة ، وبخاصة هجاء القضاة ، فابن سكرة الشاعر هجا الحسين بن أبي الشوارب القاضى المتوفى سنة ٣٤٩ هـ بقوله :

ولقد جنى قاضى القضاة حَسَيْنُ نَجْلُ أبنِ الشوارب
هذا الذى هَتَكَ الشرايِعَ بالبدائع والمثالب
هذا المُضْمَرُ للفروج وللدماء بغير راكب^(٢)

وبالرغم من أن القاضى محمد بن أحمد بن الحداد — الذى ولى قضاء مصر سنة أربع وعشرين وثلثمائة من الهجرة — كان عالماً فقيهاً حتى قال عنه ابن زولاق : كان فقيهاً متعبداً يحسن علومها كثيرة منها علم القرآن وعلم الحديث والأسماء والكنى والرواة والنحو واللغة واختلاف العلماء وسير الجاهلية وأيام الناس والأنساب ويحفظ شعراً كثيراً . غير مطعون عليه فى قول ولا فعل مجموعاً على صيانة وطهارة وكان من محاسن مصر حاذقاً بعلم القضاء حسن التوقيعات . .^(٣) بالرغم من ذلك كله فلم يتركه خصومه من الهجاء فقد رميت فى ولايته رقعة فى الجامع فيها أبيات شعر منها :

(١) راجع بئيمة الدهر ج ١ ص ٣٠٩ و ٣١٠

(٢) الكندى ص ٥٤٦

(٣) شرحه ص ٥٥١

قولوا لحدادنا الفقيه العالم الماهر الوجيه
وليت حكماً بغير عهد وغير عَقْدٍ نظرت فيه
ثم أبحت الفُرُوج لما وقَّعت فيها على البدية
هذى فعال حملت فيها وزرك مع وزر من يليه
وهل ترى ذا ولست فيه بجائز من مخالفه
أنكرت حالا من ابن عمرو ما أنت فيه ومرتضيه
والمكر في الناس داء سوء والعجب أيضا لمرتديه (١)

ولما بلغت هذه الأبيات محمد بن موسى المعروف بسيبويه المصري
مدح ابن الحداد بقصيدة جاء فيها :

ما يضر البحر أمسى زاخرا إن رمى فيه صبي بحجر
والقاضي محمد بن بدر الذي ولي قضاء مصر ثلاث مرات آخرها سنة
تسع وعشرين وثلاثمائة ، هجأ زميله القاضي ابن وليد — الذي عزل
عن القضاء سنة ستة وثلاثين وثلاثمائة — بقصيدة طويلة منها :

لو كنت تخشى قضيات المعاد لما
ألقيت في كل أمرٍ فاضح عِلما
أعْمى عن الرُّشد في كل الأمور فقد
أصبحت في الدين بين الناس مُثَمَّما
يا ابن الوليد تدبّر ما أتيت به
ولا تكن للهوى مستكملا عَمَما

لو كنت تسمع قول الحق معتقداً
أو كنت تخشى عذاب الله معتصماً
لَمَا استعنت بحماد اللعين وما
رأيت أنت له في صالح قَدَمَا
جعلته كاتباً يُمنّى الأمور ولم
يَمَسَّ في العلم قرطاساً ولا قَلَمًا (١)
فهذا الهجاء يكاد يكون صورة لهجاء العلماء الذي رأيناه في العصر
السابق للعصر الطولوني .

من هذا كله نستطيع أن ندرك تطور الحياة العامة في مصر ،
وتطور الحياة العقلية والأدبية فيها ، وأن نقول إن مصر كانت عظمة
الحظ من العلوم الإسلامية والأدبية العربية ، وساهمت في هذه
الألوان المختلفة من الثقافات ، فظهر الأدب المصري مصطبغاً بالصبغة
المصرية الخالصة فاختلف الأدب المصري عن الأدب في الأقطار
الإسلامية الأخرى .

الشعراء الوافدون :

وكانت الحياة في مصر أيام الطولونيين والأخشيديين تجذب إليها
شعراء وعلماء الأقطار الأخرى ، وتجذب إليهم المقام في مصر أو الرحلة
إليها ، وسأحاول أن ألم ببعض هؤلاء الشعراء الذين وفدوا على مصر
في ذلك العصر .

المتنبى فى مصر :

إذا تحدثت عن المتنبى فى مصر فلن أتحدث عن وفوده على كافور الأخشيدى ومدحه لهذا الأمير ثم هجائه له ، هذا كله معروف متداول ، حدث عنه كثير من الأدباء والمؤرخين ، وألما بجميع نواحيه ، ولكنى سأحاول الحديث عما تركه الأدباء والمؤرخون ، ولم يتحدثوا عنه ، فلا أشك أن المتنبى كانت له صلة ببعض المصريين وأنه أنشد شعراً فى بعض الشخصيات المصرية غير كافور الأخشيدى وفاتك ، كما تحدثنا بعض الروايات أن من شعراء مصر من نقد المتنبى وعاب شعره . وإذن فحياة المتنبى فى مصر تكاد تكون حلقة من سلسلة حياته فى حلب ، وأن العلماء والشعراء الذين كانوا فى خدمة سيف الدولة الذين هاجموا واضطروه إلى الرحيل عنهم ، وجد أمثالهم فى خدمة أمير مصر فهاجموا واضطروه إلى الرحيل أيضاً .

وجد المتنبى فى مصر خصماً قوياً فى شخص الوزير جعفر بن الفضل ابن الفرات المعروف بابن حنزابه ، الذى وزر لأنوجور بن الأخشيد ثم لأخيه أبى الحسن على ثم لكافور إلى أن انقضت دولة الأخشيديين ، وكان عالماً محدثاً كما كان مكرماً لأهل العلم والحديث ، وقد رحل إليه أبو الحسن الدارقطنى وصنف له مسنداً ، وكتب الدارقطنى عنه مجالسه^(١) ، كان يطمع ابن حنزابه فى أن يمدحه المتنبى كغيره من الشعراء ، وروى ابن خلكان أن المتنبى نظم قصيدته التى أولها :

(١) راجع ترجمته فى ياقوت ج ٧ ص ١٦٣ (طبعة فريد رفاعى بك) وابن خلكان

نادٍ هَوَاكَ صبرت أم لم تصبرا
وَبُكَاكِ إن لم يجر دَمْعُكَ أو جرى

في مدح الوزير ابن حنزابة ، فلما لم يرضه صرفها عنه ، ولم ينشده إياها
فلما توجه إلى عضد الدولة حول القصيدة إلى مدح ابن العميد^(١) ،
فمعنى هذا أن الوزير كان حاقداً على المتنبي لأن الشاعر لم يمدحه ،
وكان الشاعر حاقداً على الوزير لأن الوزير لم يرضه ، فكانت نتيجة
ذلك أن أخذ الوزير يغري الشعراء والعلماء بمعارضة المتنبي ، وكانت
فرصة للشعراء المصريين الذين كانوا يحقدون على المتنبي ما بلغه من
قوة الشعر وذيوع الصيت ، فكثير حساد المتنبي في مصر ، منهم أبو القاسم
ابن أبي العفيرة الأنصاري الشاعر ، الذي قيل إنه كان في حضرة كافور
الأخشيدى والوزير ابن حنزابة وأبي بكر بن صالح وكان المتنبي حاضراً
ذلك المجلس ، فعارض المتنبي قول الأنصاري :

« نظر المحب إلى الحبيب غرام »

فقال المتنبي : إن العرب لا تقول إليه غرام ، وإنما تقول له . فقال
الأنصاري : تقول إليه ولديه وله وحروف الخفض ينوب بعضها عن
بعض !!^(٢) ويخيل إلى أن أبا بكر بن صالح وابن حنزابة انتصرا للشاعر
المصري لأنه مدحهما وعرض بالمتنبي في قوله :

أما الشناء فصادر بك وارد
بادٍ بما تُسدى إلى وعائد

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١١١

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٣

لك يا أبا بكر إلى صنائع
 أيقظن أحوالى وجدتي راقد
 أو ليتني نعماً متى أنكرتها
 شهدت على مواهب وفوائد
 وقصائد لي فيك لولا أنها
 كلم شهدت بأنهن مشاهد
 ولهن في عين الولي شواهد
 تترى وفي عين العدو جلامد
 لما تعرض لي بمقت حاسد
 أبدى الملام وكيف يرضى الحاسد
 ما زال ينشد قائماً حتى إذا
 أنشدت عارضني لأنى قاعد
 في مجلس أما الوزير فمكعب
 فيه يؤيده وأنت الساعد
 ولي ولا أنا شاكر لسؤاله
 فيه ولا هو للإجابة حامد (١)

وورد في كتاب الصبح المنبئ أن محمد بن موسى الملقب بسيدويه كان
 يقول : مدح الناس المتنبي على قوله
 ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى
 عدواً له ما من صداقته بد

ولو قال : ما من مداراته أو مداجاته بد لكان أحسن وأجود .
 واجتاز المتنبي به ، فوقف عليه وقال : أيها الشيخ أحب أن أراك . فقال
 له : رعاك الله وحياك . فقال له : بلغني أنك أنكرت عليّ قولي
 « عدوا له ما من صداقته بد » فما كان الصواب عندك ؟ فقال له :
 الصداقة مشتقة من الصدق في المودة ، ولا يسمى الصديق صديقا وهو
 كاذب في مودته ، فالصداقة إذن ضد العداوة ، ولا موقع لها في هذا
 الموضع ، ولو قلت ما من مداراته أو مداجاته لأصبت ، هذا رجل منا
 (يريد نفسه) قال :

أتاني في قميص اللّازِ يَسْعَى
 عَدُوٌّ لِي يُلقِبُ بالحبيب

فقال المتنبي : أمع هذا غيره ؟ قال : نعم
 وقد عبث الشراب بوجنتيه فصيرَّ خده كسنا اللبيب
 فقلت له متى استعملت هذا لقد أقبلت في زى عجيب
 فقال الشمس أهدت لي قميصاً مليح اللون من نسج المغيب
 فتوبى والمدام ولون خدى قريب من قريب من قريب (١)
 فتبسم المتنبي وانصرف ، وسيدويه يصيح عليه : أبكم الرجل وجلائل
 الله . . (٢) وهذا الشاعر الذي عارض المتنبي هو أبو بكر محمد بن موسى

(١) يفهم من كتاب الصبح المنبي أن هذه الأبيات لسيدويه المصري ، ولكن هذه
 الأبيات وردت في بتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٨ منسوبة إلى محمد بن عباس البصري
 وأنا أرجح رواية اليتيمة لأن هذه الأبيات لا تصدر عن رجل كسيدويه عرف بشدة
 تدينه بينما عرف ابن البصري باللهو كما رأينا .

(٢) الصبح المنبي ص ٦٣ وأخبار سيدويه المصري لابن زولاق نسخة خطية بدار
 الكتب المصرية رقم ١٢٠ ع تاريخ

ابن عبد العزيز السكندى ولد بمصر سنة أربع وثلاثين ومائتين وتوفى فى صفر سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة . كان عالما بعلوم القرآن والحديث أخذ عن النسائى وإسحق بن ابراهيم المنجنيقى والطحاوى وغيرهم وكان يعرف من النحو والغريب ما لقب بسببه بسيبويه ، وتفقه على مذهب الشافعى وتلمذ لأبى بكر بن الحداد ، وأخذ علم الاعتزال عن الواسطى وجه المتكلمين بمصر إذ ذاك ، وكان يظهر الكلام فى الاعتزال فى الطرق والأسواق فيحتمل لما هو عليه ، وكان شاعرا من فحول الشعراء جالس أنوجور بن الأخشيد أمير مصر ، والحسين بن محمد المادرائى وزير مصر ، وناديهما ، كما كان محبوباً عند جميع المصريين (١)

وبجانب هؤلاء الشعراء الذين عارضوا المتنبي ، وجد آخرون صحبوا المتنبي وأخذوا عنه وحدثنا الشعالى عن كثير منهم أمثال عبد الله بن محمد بن أبى الجوع (٢) وصالح بن رشدين الكاتب وكان أحد أئمة الكتتاب المهرة فى سائر الآداب صحب المتنبي وروى شعره (٣) إذن انقسم الشعراء فى مصر بين حاسد المتنبي وبين صديق له يروى عنه ، كما انقسم أمراء مصر فى أمره ، فكان ابن حنزابة الوزير ساخطا عليه لأن الشاعر لم يمدحه ، ولذلك هجاه المتنبي مع هجائه لمكافور فقد قيل إن المتنبي قصد الوزير بقوله :

(١) راجع أخبار سيبويه المصرى فى معجم الأدباء . و يتيمة الدهر وكتاب أخبار سيبويه المصرى

(٢) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣١٤

(٣) شرحه ص ٣١٧

وكم ذابمصر من المضحكات ولكنه ضحك كالـبـكا
بها نبطى من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا (١)
أراد بالنبطى الوزير ابن حنـزابة ، بينما مدح المتنـبى رجلا من قيس
هو عبد العزيز الخزاعى زعيم أهل الحوف ، وهو الذى هيا للمتنـبى
وسائل الهروب من مصر ، ولذلك قال فيه المتنـبى :

لئن مر بالفسطاط عيشى فقد حلا

بـعبد العزيز المـاجـد الطرفـين

تناول ودّى من بعيد فنـالـه

جرى سابقاً فى المجد ليس برين

إذن اتصل المتنـبى بالمصريين ، كما ألقى عليه بعض العلوم فى مصر
وقد أثبت الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام أن المتنـبى قرأ كتاب
« المقصور والممدود » لابن ولاد وأنه أخذ على مؤلفه غلطات (٢)
كما تحدث الأستاذ الدكتور طه حسين بك طويلا عن أثر مصر فى شعر
المتنـبى (٣) فليرجع إلى ما كتباه ففـيهما كل الغناء .

الناشئان الأكبر والأصغر

أما الناشئ الأكبر ، فهو أبو العباس عبد الله بن محمد المعروف بابن
شرشير أو الناشئ الأكبر ولد بالأنبار ، وأقام زمنا طويلا ببغداد ،

(١) مسالك الأبصار للعمري نسخة خطية بدار الكتب المصرية . وابن خـلـكان

ج ١ ص ١١٢

(٢) راجع ذكرى ابن الطيب للأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٣٠٧

وما بعدها

(٣) مع المتنـبى للأستاذ الدكتور طه حسين بك من ص ٥١١ إلى ٦٤٦

وبها أنشد جل شعره ، وتلقى علومه التي عرف بها ، وتكسب بهذه العلوم ، فذاع فضله ، وانقاد له الشعر وفنونه ، حتى أنه استطاع أن يعارض أشعار القدماء ، وباتساع علمه في الكلام أن ينقض علل النحاة ، فرماه أعداؤه بالسوسوسة ، ووشوا به ، فخاف قوة أعدائه ، فخرج إلى مصر يتجر بعلومه^(١) . لم نعلم أن الناشئ الأكبر اتصل بأمر من أمراء مصر ، إذ أخذ من علمه وقوة فطنته مكتسبا يغنيه عن سؤال الأمراء ، فكث في مصر يعلم ما حذقه حتى توفي سنة ثلاث وتسعين ومائتين .

كان هذا الشاعر قليل الحظ بعد مماته كما كان بائسا في حياته ، فلم يعن بشعره أحد حتى ضاع ديوانه ، ولم يصلنا من شعره إلا النزر اليسير ، مع أن الرواة أجمعوا على أن الناشئ الأكبر يعد في طبقة ابن الرومي والبحترى وأنظارهما^(٢) ثم هو يمتاز عن غيره من الشعراء بسعة اطلاعه في العلوم ، وكان أستاذ أبي الحسن الأشعري المعتزلي صاحب المذهب المعروف ، وقد وصلنا شيء من نظمه في الكلام يدلنا على مقدرته واطلاعه ، فمن ذلك قوله :

ونحن أناس يعرفُ الناسَ فضلنا
بالسُّنَنَازِ يَنْتَ صُدُورَ المحافلِ
تتير وجوه الحق عند جوانبنا
إذا أَظْلَمَتْ يوما وجوهُ المسائلِ

(١) ابن خلدون ج ١ ص ٢٦٣

(٢) شرحه

صمتنا فلم نترك مجالا لصامت

وقلنا فلم نترك مقالا لسائل (١)

ويروى البغدادى فى تاريخه أن للناشئ قصيدة واحدة فى فنون من العلم على روى واحد تبلغ أربعة آلاف بيت ، وروى ابن كثير فى « البداية والنهاية » قصيدة للناشئ فى نسب الرسول صلى الله عليه وسلم وهى طويلة تبلغ نحو ألف بيت ، ووصفها ابن كثير بقوله « وهذه القصيدة تدل على فضيلته وبراعته وفصاحته وبلاغته ، وعلمه وفهمه ، وحفظه وحسن لفظه ، وإطلاعه واضطلاعه ، واقتداره على نظم هذا النسب الشريف فى سلك شعره ، وغوصه على هذه المعانى التى هى جواهر نفيسة من قاموس بحره » (٢) ، وأورد الحصرى فى كتابه « زهر الآداب » مقالا من كتاب للناشئ فى الشعر ، أوضح فيه معنى الشعر وأغراضه (٣) .

ولست أدرى أى شعر الناشئ قيل فى مصر ، وأى كتبه التى ذكرها المؤرخون ألفت بها ، ولا شك أن الحياة العقلية والحياة الأدبية فى مصر كان لهما أثر كبير فى هذا الشاعر ، وربما أنشد الناشئ بمصر بعض أشعاره فى الصيد . فقد رأينا شعراء مصر فى هذا العصر كانوا يذهبون إلى الصحراء وتلال المقطم للبطاردة والصيد ، وقالوا أشعاراً فى ذلك ، وربما قلدهم الناشئ وتحدث فى جوارح الصيد وآلاته ، وما

(١) زهر الآداب ج ٤ ص ٣

(٢) البداية والنهاية نسخة فتوغرافية بدار الكتب المصرية

(٣) زهر الآداب ج ٣ ص ٤٩

يتعلق به ، وربما أخذ كشاجم شيئاً من أشعار الناشيء مستشهداً بها عند ما وضع كتابه في المصايد والمطارد .

أما الناشيء الأصغر فهو علي بن عبد الله بن وصيف وكان متكلماً بارعاً كسميه^(١) أخذ علم الكلام عن أبي سهل بن نوبخت المتكلم ، كما كان من كبار الشيعة ، وفد على الكوفة سنة خمس وعشرين وثلثمائة وأملى شعره بجامعها ، وكان المتنبى وهو صبي يحضر مجلسه^(٢) ، ووفد على سيف الدولة بجلب ومدحه ، ويحدثنا ياقوت أن الناشيء الأصغر قصد كافورا بمصر وامتدحه ، وامتدح ابن حنزابة وكان ينادمه^(٣) ولكن لم يصلنا شيء من شعره في مصر ، وتوفي سنة ست وستين وثلثمائة ببغداد .

كشاجم

وفد على مصر في ذلك العصر الشاعر الأديب أبو الفتح محمود ابن الحسين المعروف بكشاجم . وهو من أهل إقليم الرملة الذي كان تابعا لمصر في ذلك العصر ، ونفهم من ديوانه أنه جاء مصر عدة مرات . وكان كلما بعد عنها حنّ إليها ، وإلى ما بها من رياض وحوائط ، وإلى حياة اللهو والمجون مما تصبو إليه نفس كشاجم المأجنة :

قد كان شوقى إلى مصرٍ يُؤرِّقُنِي

فاليوم عُدتُ وعادت مصرٌ لى دارا

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٤

(٢) شرحه

(٣) معجم الادباء ج ٥ ص ٢٣٥ (طبعة مرجوليوت)

أغدو إلى الجيزة الفيحاء مصطحباً
طوراً وطوراً أَرَجَّى السَّيْرَ أطواراً
بيننا أَسامى رئيساً في رئاسته
إذ رُحْتُ أَحْسَبُ فِي الحَانَاتِ خُمَّاراً
أما الشباب فقد صاحبت شرهم
وقد قَضَيْتُ لَبَانَاتٍ وَأُوطَاراً
من شادنٍ من بنى الأقباط يَعْقُدُ مَا
بين السكيب وبين الخصر رناراً (١)

أخذ كشاجم بحظ وافر من حياة اللهو التي كانت بمصر ، وذهب
كما ذهب شعراء مصر إلى الأديرة ، ففي دير القصير كان كشاجم
يتصيد الطباء لطعامه ، أو ليتخذ من لحمها ما يأكله مع شرابه ، بين عزف
القيان وغنائهن .

سلامٌ على دَيْرِ القصير وسجنه فجناتِ حلوانِ إلى النَّخَلَاتِ
منازلُ كانت لي بهن مآرب وكانت مواخيرى وممتزهاً
هنالك تصفو لي مشاربُ لَذَّتْني وتصحب أيام السرور حياتي (٢)
فهذا يدلنا على أن الشاعر اختلط بالمصريين ، ولها كما لهما ،
والتمس من مجونهم ما تحدث به في هذا الشعر ، وتأثر بالبيئة المصرية
الخالصة فوصفها في شعره .

تدلنا حياة كشاجم على أن الشاعر كان متكسباً بشعره ، ولا ندرى

(١) ديوان كشاجم طبع بيروت سنة ١٣١٣ هـ

(٢) ديوان كشاجم

بمن اتصل من المصريين ، وإن كنت أرجح أنه مدح كافوراً ، ثم عاد
فهبجاه ، وعرض به في أشعاره ، فقد قيل إن الشاعر كان له غلام اسمه
كافور فكان يهبجو غلامه ويعرض بالأمر :

حَكَيْتَ سَمِيكَ فِي بَرْدِهِ وَأَخْطَاكَ اللَّوْنُ وَالرَّائِحَةُ
كَذَلِكَ هَبَجَا الْقَاضِي عَبْدَ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ الْخَصِيبِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ
سَبْعٍ وَأَرْبَعِينَ وَثَلَاثُمِائَةٍ ، وَكَانَ الْقَاضِي قَدْ اشْتَرَى دَاراً كَبِيرَةً ،
وَعَمَرَهَا ، وَأَقَامَ فِيهَا دَعْوَةَ عَظِيمَةً فَقَالَ كَشَاجِمُ :

اشْتَرَى الدَّارَ الْكَبِيرَةَ وَدَعَا فِيهَا الْوَكِيرَ
صَغَّرَ الْبَابَ وَفِي تَصْغِيرِهِ أَشْأَمُ طِيرِهِ
قَبْرُهُ لَا شَكَّ فِيهَا بَعْدَ أَيَّامٍ يَسِيرِهِ (١)
وَقَالَ فِيهِ أَيْضاً :

قَبِحَ اللَّهُ الْخَصِيصِي فَمَا أَقْبَحَ أَمْرُهُ
اشْتَرَى الدَّارَ الَّتِي كَانَتْ قَدِيمًا لِابْنِ شَعْرِهِ
وَهِيَ الدَّارُ الَّتِي يَبْتَزُّ فِيهَا اللَّهُ عَمْرَهُ
لَا يَتِمُّ الْحَوْلُ حَتَّى يَجْعَلَ الْمَجْلِسَ قَبْرَهُ (٢)

ومهما يكن من شيء فإن كشاجما كان فقيراً ، متكسباً بشعره ، ولكنه
لم يستطع أن يفوز بالمال الذي كان يريد ، ولعل غروره واعتقاده
بأنه نابغة عبقرى ، وأنه أشعر خلق الله وأكثرهم تأدباً ، لعل هذا كله
كان سبباً في شقائه ، فقد زعم أنه نبى الشعر :

(١) الكندى ص ٥٧٨

(٢) شرحه

على أنى نبى الشعر قد جئت على فتره
ويخيل إلى أن كشاجما اتخذ مصر مقرآ له ، فقد ترك بها أولاده
وأسرته ، فقد روى الشعالي أن الشاعر المصرى الهجاء صالح بن مؤنس
هجأ ابنى كشاجم أبا النصر وأبا الفرج بقوله :

يا ابنى كشاجم أنتم مستعملان مجربان
مات المشوم أبوكا فخلفتماه على المكان
وقرقتما فى عصرنا ففعلتما فعل القران
لغلاء أسعار الطعا م وميته الملك الهجان (١)

ووفد على مصر فى ذلك العصر أبو الفيض سوار بن شراة
الشاعر الذى اتصل ببعض أدباء مصر وشعرائها ، وقد ذكرنا أنه كان
صديقاً وفيالابن الداية ، وكان سبب انتشار شعر ابن الداية فى العراق
كما وفد على مصر عدد كبير غير الذين تحدثنا عنهم ، وقد يطول بنا
الامر لو تحدثنا عنهم جميعاً . كما رحل عدد كبير من شعراء المصريين
إلى الأقطار الأخرى ، فالشاعر المغنم المصرى أبو الحسن محمد بن سلمى
الشيبانى كان من شعراء سيف الدولة (٢) ، ورحل كثير من العلماء فى
طلب العلم كغيرهم من علماء وشعراء الأقطار الأخرى ، فكانت الرحلة
فى طلب العلم من أكبر المؤثرات التى ساعدت على انتشار الثقافات
المختلفة ، وألوان المذاهب الأدبية والعلمية

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣١٢

(٢) الفهرست ص ٢٤٠

لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر

ابن جدار :

هو أبو القاسم جعفر بن محمد بن أحمد بن جدار ، ذكره الصولي في كتاب « أخبار شعراء مصر » وقال : لم يكن بمصر مثله ، كثير الشعر حسن البلاغة ، عالم ، له ديوان شعر ، ومكاتبات كثيرة حسنة . . (١) ، كان كاتباً من كتاب الطولونيين ، وشاعرا من شعرائهم ، واختص بالعباس بن أحمد بن طولون ، فكان ينهى إليه كل ما كان يسمعه من الأخبار ، وينقل إليه ما يدور بقصر ابن طولون ، ويروى الحصرى : أن أبا حفص عمر بن أيوب كاتب أحمد بن طولون قال لابن جدار : يا أبا جعفر ، إنما مجلس المدام مجلس حرمة ، وداعية أنس ، ومسرح لبانة ، ونداء هم ، ومرتع هو ، ومعهد سرور ، وإنما توسطته عند من لا يتهم غيبه ، ولا يخشى عتبه ، وقد اتصل بي ما تنهيه إلى أميرنا أبي الفضل ، أعز الله أمره ، من أخبار مجالستي ، فلا تفعل ! . . فاعتذر ابن جدار وحلف ما فعل ، وقام من مجلسه (٢) .

وكان لشعر ابن جدار أثر كبير في عصيان العباس بن أحمد بن طولون ، فقد قيل إن العباس لما هم بالانخلاع عن طاعة أبيه ، كان مرتبك الرأي ، ولكن بن جدار أنشده قصيدة يحرضه فيها على العصيان ، وجاء في هذه القصيدة .

(١) معجم الادباء ج ٥ ص ٤١٥

(٢) زهرة الآداب ج ٢ ص ١٤٣

إذا هممت فلا ترجع وقيم وثب

فأنت أرفع من يسمو إلى الرتب (١)

ولما استبد العباس بالسلطان استوزر ابن جدار ، وخرج معه إلى برقة ، ولكن ظفر به أحمد بن طولون حين سيق له ولده الشائر ، وأصحابه الذين أيدوه في حركته ، بل الذين دفعوه إليها ، فبنيت دكة عظيمة رفيعة السمك ، وأحضر ابن جدار من خاصة العباس ، فضرب ثلثمائة سوط ، وقطعت يداه ورجلاه ، وألقى من الدكة سنة ثمان وستين ومائتين (٢)

كان ابن جدار صاحب لهُو ، يميل إلى المجون ، مع أن غزله الذي وصلنا يدلنا على أنه عفيف ، مع رقة وعاطفه ، من ذلك قوله في قينته أعجب بها وقتن بجمالها ، وطرب لصوتها
جاءت بوجهه كأنه قمر

على قوام كأنه غصن
ترنو بعينين من ليمانها

من وسن في جفونها وسن
غننت فلم يبق في جارحة

إلا تمت لو أنها أدن (٣)

ومع ميله إلى اللهُو نراه قد أظهر شدة تدينه في بعض أشعاره ،

(١) المغرب ص ٨٦

(٢) المقرئ ص ٢ و ١١٥ والكندى ص ٢٢٤

(٣) معجم لادباء ج ٥ ص ٤١٥

فكان يطلب العفو ، ويستغفر ربه ، حتى نكاد نشك أن هذه الأشعار في الزهد هي من قول ابن جدار

يارب لي ألف ذنب إن تعفُ يارب فاعف جَمًّا
فابرد بعفو غليل قلب كأن فيه رسيس حمي^(١)

ويمتاز شعر ابن جدار بكثرة تلاعبه بالألفاظ وتشبيهاته ، ولكن لم يصلنا من ديوانه الذي حدثنا عنه ياقوت عن الصولي إلا عدة أبيات قليلة مبعثرة في الكتب ، ومن شعره الذي أظهر فيه صنعتَه البيانية ، وتكلفه في قول الشعر حتى أن ابن عبد ربه قال عندما روى هذا الشعر : وقد يأتي من الشعر ما هو خارج عن طبقة الشعر منفرد في غرائبه وبديع صنعتَه ، ولطيف تشبيهه كقول جعفر بن جدار كاتب ابن طولون^(٢) .

وطفلة رخصّة المرائي ليست تجلي ولا تُسمّى
ألا وسلك من الآلى تعجزُ من يُخرج المعمّى
من طفلة بضّة لِعُوب تلقاك بالحسن مُستتما
منهن ريا وكيف ريا ريا إذا لاقت المشما
تسحب ذيلين من خلق قد أفنيا زعفران قما
كأنما أحنيا عليها من طيب ما بشرا وشما
فألفيا زعفران قم فانغمسا فيه واستحما
فهل تظن اسمها المرّيا يفوح لا مرطها المذما
هيات يا أخت أهل يما غلطت في الاسم والمسمّى
لو كان هذا وقيل سم مات إذا من يقول سما

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٨

(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٤٢٦

قد قلتُ إذ أقبلتُ تهادى كطلعة البدر أو أتما
لو كنت ممن لكنت مما لكننى قد كبرت مما
عاتبنى الدهر فى عذارى بأحرفٍ فارعويت لما
قُوس ما كان مستقيماً وابتض ما كان مدلهما
وكيف تصبو الدمى إلى من كان أخا ثم صار عما
لى عنك يا أخت أهل يم شغل بما قد دنا وحما
فلست من وجهك المفدى ولست من قدك المحما
أذهلنى عنك خوف يوم يحيا له كل ما أرمّا
ما كسبته يدي رهيناً خيراً وشرّاً أصبت ثما
تحشر فيه الجنان زفا وتحشر النار فيه زما
تقول هذى لطالبيها هيت ، وهذى لهم هلها
نفسى أولى بأن أذما من أمرها كل ما استذما^(١)

ففى هذه القصيدة ظهر تلاعب ابن جدار باللفظ مما أضعف
المعنى وشوّهه ، كما تظهر لنا وحدة القصيدة فى الشعر المصرى ، وعدم
استقلال المعنى فى كل بيت كما ظن القدماء فى الشعر العربى .

منصور الفقيه

هو منصور بن اسماعيل بن عمر أبو الحسن التميمى المصرى الضرير ،
كان إماماً فى الفقه ، وفقه الشافعى على الأخص^(٢) ، ووضع مؤلفات
فى المذهب الشافعى منها « الواجب والمستعمل » والمسافر والهداية

(١) هذه القصيدة بأكملها فى العقد الفريد ج ٣ ص ٢٦٤

(٢) طبقات الشافعية الكبرى ج ٢ ص ٣١٧

وغير ذلك^(١). اتفق ابن خلكان وياقوت^(٢) على أن الشاعر ولد في رأس العين بالجزيرة وأنه قدم مصر صغيراً ، وأخذ فيها جميع علومه كما أنه أنشد بها جل أشعاره ، وصار له منزلة رفيعة عند القاضي أبي عبيد ، بل صار من خواصه الذين كان يخلو بهم لهذا كره والمحاذرة ، ولاكن حل البغض محل هذا الود ، وانقطع الإخاء بسبب المناقشات الفقهية ، فقد قيل إن أبا عبيد كان له كل عشية مجلس يذاكر فيه رجلاً من أهل العلم ، وفي عشية منصور حدث بينهما مجادلات ، انتهت بخصام العالمين ، فتعصب الأمير « ذكا » وجماعة من الجند لمنصور ، وتعصب جماعة من العلماء على رأسهم ابن الربيع الجيزي للقاضي ، ثم حدث أن شهد ابن الربيع الجيزي على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه ، فقال القاضي إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به ابن الربيع ضربت عنقه ، فخاف منصور خوفاً شديداً حتى اعتل ومات سنة ست وثلاثمائة^(٣) وقيل إنه كان حول نعشه آلاف من الجند ، أظهروا سب القاضي ، وقذفوه ، وندم القاضي نفسه على ما كان منه وتأسف على ما فاتته من منصور . رحل منصور إلى العراق حيث اتصل بالخليفة المعتز العباسي ومدحه بقوله :

ما واحد من واحد أولى بمحمد أو مروة
من أبوه وجده بين الخلافة والنبوة^(٤)

(١) ابن خلكان ج ٧ ص ١٢٥

(٢) معجم الادباء ج ٧ ص ١٨٥

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٢٦

(٤) المغرب ص ٩٤

وكل الرواة مجمعون على جزالة شعره وجودته ، وأنه لم ينشد قصائد مطولة ، بل كل شعره مقطعات ، روى الحصرى عن شعره « وهو على المقطعات ، لا تزال تنذر له الأبيات مما يستتظر ف معناه ، ويستحلى مغزاه ، ويبقى سناه » (١) ، وأورد له الشعالى كثيراً من الأبيات جرت مجرى الأمثال لدقة معانيها كقوله :

شاهد ما فى مضمري من صدق وُدِّ مضمرك
فما أريد وصفه قلبك عنى يخبرك (٢)
وكقوله :

مَنْ قال لا فى حاجة مطلوبة فما ظالم
وإنما الظالم من يقول لا بعد نعم (٣)
وعاب عليه بعض المصريين التفقه فأجابهم بقوله :
عاب التفقه قومٌ لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه من ضررٍ
ما ضرَّ شمس الضحى والشمس طالعة
أن لا يرى ضوءها من ليس ذا بصر (٤)

ويخيل إلى أن الشاعر كان يكذب التنجيم الذى كان منتشرًا بين طبقات الناس وظهر ذلك فى شعره

(١) زهر الآداب ج ٣ ص ٢٢١

(٢) لطائف المعارف نسخة خطية بمكتب الازهر رقم ٥٦٢

(٣) شرحه

(٤) طبقات الشافعية ج ٢ ص ٣١٧

مَنْ كَانَ يَخْشَى زُحَلًا أَوْ كَانَ يَرْجُو الْمُشْتَرَى
فَإِنِّي مِمَّنْهُ وَإِنْ كَانَ أَبِي مِنْهُ بَرَى (١)
وَقَوْلُهُ:

إِذَا كُنْتَ تَزْعُمُ أَنَّ النُّجُومَ تَضُرُّهُ وَتَنْفَعُ مَنْ تَحْتَهَا
فَلَا تَنْكُرَنَّ عَلَيَّ مِنْ يَقُولُ بِأَنَّكَ بِاللَّهِ أَشْرَكَتَهَا (٢)

من ذلك يظهر شدة حرصه على دينه، وعلومه الإسلامية الخالصة التي تنكر مثل هذه الأقوال التي انتشرت بين الناس، ولا شك أن مثل هذا الرجل كان بعيدا كل البعد عن حياة اللهو التي جرفت أكثر شعراء مصر، فكان هذا الشاعر يمثل طبقة الشعراء العلماء الذين لم يأخذوا بنصيب من تطور الحياة في عصره.

ابن طباطبا:

كان يمصر بعض سلالة علي بن أبي طالب . وأقاموا بها مكرمين معززين ، وكانوا على اتصال حسن بالولاة والأمراء ، لا يعينهم من أمر البلد السياسي شيء ، فركنوا إلى الآداب والعلوم ، وأخذوا من هذه وتلك ، وأنشدوا الشعر ورووه ، فمن أعظمهم شأننا في ذلك أبو القاسم أحمد بن محمد بن اسماعيل بن ابراهيم طباطبا بن اسماعيل ابن ابراهيم بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٣) كان عالما فاضلا ، وإليه كانت نقابة الطالبين بمصر (٤) ، كما كان شاعرا ، وكان

(١) معجم الأدباء ج ٧ ص ١٨٥

(٢) شرحه

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩

(٤) المغرب ص ٤٩

ابناه أبو محمد القاسم بن أحمد وأبو اسماعيل ابراهيم بن أحمد شاعرين^(١) وكان ابن ابنه الحسين بن ابراهيم شاعرا ، وقد روى لهم صاحب يتيمة الدهر بعض أشعارهم . وإذن نستطيع أن نعد أسرة بني طباطبا في مصر من أسرات الشعر ، ولكن أكثر شعراء هذه الأسرة لم يكونوا في عصرنا هذا الذي نؤرخه ، — وسنتعرض للحديث عنهم في بحثنا عن الأدب المصرى في عهد الفاطميين — وكيفى أن نتحدث عن أبي القاسم أحمد ابن محمد . درس هذا الشاعر الآداب وأكثر من إنشاد الشعر ، وظهر أثر دراساته في شعره ، فكان يميل إلى الأخذ بمذهب مسلم وأبى تمام في الإكثار من الزينة البديعية ، والتشبيهات وما إلى ذلك من ألوان الصنعة البيانية ، وأكثر شعره الذى وصلنا فى الغزل ، والغزل المبني على القصص حتى يخيل إلينا أن الشاعر كان متأثرا بمذهب عمر بن أبى ربيعة ، ولكنه يختلف عن عمر ، فقد كان عفيفا فى شعره ، وهذا أمر طبيعى لمن كان فى مثل مكانته الأدبية والدينية ، فغزله يقوم على الوصف والحوار دائما كقوله :

عَيَّرَتْنِي بالنوم جورا وظُلِمَا قلت : زِدَتِ الفؤادَ هَمًّا وغمًّا
لم أنم لذة ، ولا نمتُ إلا طمعا فى خيالكم أن يلما^(٢)
وكقوله : أيضا

قالت : أراك خَضَبْتَ الشَّيْبَ . قلت لها :

سَتَرْتَهُ عنك يا سمعى ويا بصرى

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٣٠

(٢) شرحه ج ١ ص ٣٢٩

فاستضحكت ثم قالت من تعجبها

تكاثر الغش حتى صار في الشعر (١)

ويخيل إلى أن ابن طباطبا أصيب بفقد حبيب عزيز لديه ، إذ ظل يذكره حيناً بعد حين ، ويكثر من الحديث عنه في شعره ، فقال مرة :
 خليلي إني للثريا لحاسد وإني على صرف الزمان لواجد
 أيبقى جميعاً شملها وهي سبعة وأفقد من أحبته وهو واحد
 كذلك من لم تخترمه منية يرى عجباً فيما يرى ويشاهد (٢)
 وقال مرة أخرى :

لا والتي تركتني يوم فرقتهما كأنما الرمل في عيني منشور (٣)
 وقال مرة ثالثة :

ما اخترت تبديل المودة ساعة بعد الذي هجر الحما وجفاني (٤)
 ومن يدرى لعل هذه الأشعار قيلت في زوجه التي تكون قد توفيت
 وتركته ينشد مثل هذه الأشعار فيها .

ولابن طباطبا بعض المقطعات في الخمر كقوله فيها :

يا بدر بادر إلي بالكأس فرُبَّ خير أتى على يأس
 ولا تقبل يدي فإن في أولى بها من يدي ومن رأسي
 لا عاش في الناس من يلوم علي حي وعشقي لأحسن الناس (٥)

(١) شرحه

(٢) المغرب ص ٤٩

(٣) المغرب ص ٤٩

(٤) شرحه ص ٥١

(٥) يتيمة الدهر ج ١ ص ٣٢٩

وكقوله :

قل للذي حسنت منه خلائقه
باكر صبوحك واسبق من تسابقه
أما ترى الغيم مجموعاً ومفترقاً
يسير هذا إلى هذا يعانقه
كعاشق زار معشوقاً يودعه
قبل الفراق فآلى لا يفارقه (١)

وقد ذكرنا أن ابن طباطبا يعد من أقدر شعراء مصر في هذا العصر
في وصف الطبيعة ومحاکاتها، ولعل ما قاساه من فراق من أحب جعله
يهم إلى أحضان الطبيعة يناجى من غاب عنه، ليأخذ من الطبيعة سلوة ،
أنظر إلى قوله :

رب ليل صحبته كاسف الباس ل كئيبي حليف هم شتيت
تحت سقف من الزمر د قد رصع بالدر والياقوت

اختلف المؤرخون في وفاة ابن طباطبا فذكر ابن سعيد عن القرطبي
أنه توفي سنة اثنتين وخمسين وثلثمائة (٢) ونقل ابن خلكان عن المسبجي
أنه توفي سنة خمس وأربعين وثلثمائة (٣) وقال صاحب «مطالع البدور
في منازل السرور» أنه توفي سنة ثمان وأربعين وثلثمائة (٤).

(١) شرحه

(٢) المغرب ص ٥١

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٠

(٤) ج ١ ص ٣٦

خاتمة

لعلك أدركت الآن كيف تطورت مصر في هذا العصر منذ دخلها العرب فاتحين ، ثم استقروا بها ، حتى دخلها جوهر الصقلي قائد المعز لدين الله الفاطمي سنة ثمان وخمسين وثلاثمائة من الهجرة ، وانتزع مصر من الأخشيديين ، فقد كان أثر العرب في مصر كبيراً جداً ، تدركه في تحول المصريين عن دينهم واعتناقهم الدين الإسلامي ، وتدرکه في تحول المصريين عن لغتهم اليونانية والقبطية واتخاذهم اللغة العربية لغة للتخاطب ولغة لأدبهم ، ثم تدركه في هذه الدراسات الإسلامية والعربية وازدهار هذه الدراسات في مصر ، حتى صارت مركزاً من مراكز الحياة العقلية في الأقطار الإسلامية .

ومع ذلك كله فقد استطاعت مصر أن تحتفظ بشخصيتها ، فقد اضطرت العرب إلى أن يندمجوا في المصريين ، وأن يكون الجميع شعباً واحداً هو الشعب المصري الإسلامي .

وقد تلمقت مصر جل المدنات القديمة ، وأخذت منها بحظوظ تختلف قوة وضعفاً ، ولكن مصر استطاعت أن تمصر هذه المدنات جميعاً ، فلما أن جاءها العرب والمسلمون يحملون الثقافة الإسلامية العربية ، التقت هذه الثقافة بالثقافات التي كانت في مصر قديماً ، وامتزجت هذه الثقافات جميعاً ، فكان ثمرة هذا المزج هي الثقافة

المصرية الإسلامية التي ظهرت بعد ذلك العصر الذي أرّخناه في هذا الكتاب .

ولعلك أدركت أيضا أثر مصر في الشعر الذي أوردنا لك صورا منه ، فإنك لم تر المعاني البدوية القديمة ، ولا تشبيهات الجاهليين أو شعراء الأمويين ، وظهر في شعر المصريين الآراء المصرية والحوادث المصرية ، التي لا تصدر إلا عن قوم عاشوا في مصر . وإذن فقد كان أثر مصر في الشعر كبيرا كما كان أثرها في العلم كبيرا .

(وبعد) فهذا البحث الذي تحدثت فيه عن مصر في القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، ما هو إلا مقدمة لبحث آخر ، أرجو أن أقدمه للطبع قريبا وهو بحث — الأدب في مصر الفاطمية — وهو تاريخ الأدب في العصر الذي أصبحت فيه مصر زعيمة الأقطار الإسلامية في الآداب والعلوم ؟

ثبت بالمراجع والمصادر

- * آثار البلاد للقزويني طبع جوتنجن ١٨٤٨ م
 * اتعاظ الخنفا بأخبار الأئمة الخلفاء للمقرئى » ليبسك ١٩٠٩ م
 * أحسن ما سمعت للثعالى » مطبعة الجمهور بمصر ١٣٢٤ هـ
 * أخبار سيمويه المصرى لابن زولاق نسخة خطية بدار الكتب المصرية
 رقم ١٢٠ ع تاريخ
 * أخبار قبط مصر للمقرئى طبع جوتنجن ١٨٤٥ م
 * أخبار مصر لعبد اللطيف البغدادى » أكسفورد ١٨٠٠ م
 * أدب النديم لكشاجم » بولاق ١٢٩٨ هـ
 * الأغاني للأصفهاني » مطبعة الجمهور ١٣٢٣ هـ
 * أنباء الرواة على أنباء النحاة للقفطى نسخة فتوغرافية بدار الكتب
 المصرية رقم ٢٥٧٩ تاريخ
 * الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق ج ٤ وه طبع بولاق ١٣٠٩ هـ
 * الأنساب للسمعاني طبع ليدن ١٩١٢ م
 * بدائع البداية لابن ظافر المصرى » بولاق ١٢٧٨ هـ
 * بدائع الزهور لابن إياس » » ١٣١١ هـ
 * بغية الوعاة للسيوطى مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٢٦ هـ
 * البيان والاعراب عن نزل من الأعراب مطبعة المعارف ١٣٣٤ هـ
 * للمقرئى
 * تاريخ ابن الأثير طبع بولاق ١٢٩٠ هـ
 * ابن خلدون » » ١٢٨٤ هـ
 * ابن الراهب » » بيروت ١٩٠٣ م

- ✓ تاريخ أبي صالح الأرمني
✓ الطبري
✓ الاسلام للذهبي
+ الأمة القبطية
✓ التمدن الاسلامي
✓ يحيى بن سعيد
✓ اليعقوبي
+ ووصف الجامع الطولوني للاستاذ
عكوش
تراجم رجال صحيح البخارى
تحفة المجالس للسيوطي
تهذيب الاسماء للنووي
+ ثمرات الأوراق لابن حجة
✓ الجامع في الحديث لعبد الله بن وهب
الجوهر النفيس في أشعار الامام ابن ادريس
حديث الأربعاء للأستاذ الدكتور طه
حسين بك
✓ حسن الجمع فيما قيل في قصر الشمع
✓ حسن المحاضرة للسيوطي
+ حلبة السميت للنواجي
- طبع أكسفورد ١٨٩٤ م
» المطبعة الحسينية بمصر
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٤٢ تاريخ
طبع مطبعة التوفيق ١٩٢١ م
» » الهلال
» بيروت ١٩٠٥ م
» ليدن ١٨٨٣ م
» دار الكتب ١٩٢٧ م
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٣١٤ (حديث)
طبع دار السعادة ١٣٢٦ هـ
القاهرة ١٣٤٥ هـ
على هامش محاضرة الأدباء
نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة
المصرية
طبع مطبعة النيل ١٣٢١ هـ
الطبعة الاولى ١٣٤٤ هـ
نسخة فتوغرافية بالمكتبة الأميرية
رقم ٢٥٤٤
طبع دار الوطن ١٢٩٩ هـ
» » » ١٢٩٩ هـ

- الطبعة الثالثة ١٩٢٣
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٣٩ م
- نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ٨٦٣ م
طبع حلب ١٩٣٠
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٧٥٦ م
طبعة محي الدين الخياط
طبع فينا ١٩٠٢
» بيروت ١٣١٣ هـ
» مصطفى محمد
» مصر ١٢٧٧ هـ
» ١٨٢٨ م
- » جوتنجن ١٧٧٦ م
» بولاق ١٣٠١ م
نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٥
المطبعة الرحمانية ١٣٤٥ هـ
طبع بيروت ١٩٠٧
» برلين ١٨٩٤
» دار الكتب المصرية
مطبعة الاعتماد
- الخريدة النفيسة في تاريخ الكنيسة
در السحابة فيمن نزل مصر من الصحابة
للسيوطي
الدر المنظوم فيما ورد في مصر من
موجود ومعدوم للجوهري
دمية القصر للباخرزي
الديارات للشابشتي
ديوان أبي تمام
» ابن قيس الرقيات
» كشاجم
» المتنبي
» أبي نواس
ذكر دخول قبط مصر في دين النصرانية
للمقرئزي
ذكر ديار مصر
الرحمة الغيثية بالترجمة الليثية لابن حجر
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر
زهر الآداب للحصري
سيرة الآباء البطارقة لابن المقفع
سيرة ابن طولون لابن الداية
صبح الأعشى للقلقشندي
ضحى الاسلام للاستاذ أحمد أمين

- طبقات الشافعية الكبرى / طبقات الشافعية الحسينية ١٣٢٤ هـ
- العقد الفريد لابن عبد ربه / طبقات الكبرى لابن سعد
- العمدة لابن رشيق / مصر ١٩٢٨ » » ١٩٢٥
- فتوح مصر للواقدي / لندن ١٨٢٥
- فتوح مصر لابن اسحق الاموى / مصر ١٢٧٥ هـ
- فتوح مصر لابن عبد الحكم / طبع نيوهافن ١٩٢١
- فجر الاسلام للاستاذ احمد امين / الطبعة الاولى
- الفخرى لابن الطقطقى / مصر ١٣١٧ هـ
- الفهرست لابن النديم / طبع مصطفى محمد
- فضائل مصر للكندى / نسخة خطية بدارالكتب المصرية
- فضائل مصر لابن زولاق / رقم ٤٢٢
- فوات الوفيات لابن شاكر / نسخة خطية بمكتبة الازهر رقم ٦٦٩
- كتاب الولاة والقضاة للكندى / بولاق ١٢٨٣
- مجالس ابى مسلم / طبع ليبسك ١٩٢٥
- محاضرات الأدباء / نسخة خطية بدارالكتب المصرية
- مختصر تاريخ الدول لابن العبرى / رقم ٧٧ ش
- مروج الذهب للمسعودى / طبع مصر ١٢٨٧ هـ
- مسالك الابصار لابن فضل الله العمرى / اكسفورد ١٦٦٣
- معجم الادباء لياقوت / بولاق ١٢٨٣
- معجم البلدان / ج١ طبع دارالكتب ١٩٢٤ والباقي
- نسخ خطية بدارالكتب المصرية / نسخ خطية بدارالكتب
- المصرية رقم ٣٣٦

المغرب فى حلى المغرب لابن سعيد

نسخة خطية بدارالكتب المصرية

رقم ١٠٣ م الجزء الرابع

طبع ليدن ١٨٩٨ م

طبع مصر ١٩٢٤ م

» دار الكتب المصرية

» دار الكتب المصرية

نسخة خطية بالمكتبة التيمورية

مصر ١٣١٠ هـ

طبع بيروت

المكافأة لابن الداية

النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى

نهاية الأرب للنويرى

الوفى بالوفيات للصفدى

وفيات الأعيان لابن خلكان

يقيم الدهر للشعالى

مراجع افرنجية

- Butcher : The Story of the Church of Egypt (London 1897).
- Butler : The Arab Conquest of Egypt (Oxford 1902).
- : The Ancient Coptic churches of Egypt(Oxford1884).
- Corbett : The Life & Works of Ahmed Ibn Tulun
(J. R. A. S. 1891).
- Encycloepedia Britannica.
- Encycloepedia of Islam.
- Galtier : Contribution à l'Etude de la Litterature Arabe, Copte
(Cairo, 1905).
- Grohman : Arabic Papyri in the Egyptian Library.
- Hugh : The Monastries of the Wadi'n Natrûn (V.I. New York.)
- Lane-Poole : Mohammedan Dynaties (London 1849).
- : History of Egypt in the Middle ages (London 1925).
- The Arts of the Saracens in Egypt (London 1868).
- Marcel : L'histoire d'Egypte (Paris 1848).
- Milne : A History of Egypt under Roman Rule.
- Nicholson: A Literary history of the Arabs.
- Quatremère : Mémoires Geographiques et Historiques sur
l'Egypte et sur quelques contrées voisines
(Paris 1811).
- Recherches sur la langue et la litterature de
l'Egypte (Paris 1808).

فهرس الأعلام

أحمد بن طولون ١٤ ، ٦٢ ، ٦٣ ،

٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١١٦ ، ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ،

٢٠٨ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٢ ،

٢٢٥ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩

أحمد بن عبد الله بن سلمة ٦٩

أحمد بن محمد بن اسماعيل ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٩

أحمد بن محمد الحليشي ٢١٥ ، ٢١٧ ،

أحمد بن محمد بن ولاد ٦٦

أحمد بن المدبر ٧٩ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ،

٢٠١

أحمد بن المؤمل ١٠٤

أحمد بن وصيف ٨١

أحمد بن يوسف ١٨٦

أحمد بن يوسف «انظر ابن الداية»

أحمد بن يونس بن عبد الأعلى ٥٧ ،

٦٨ ، ٧٧ ، ٢٠١

الأخشيد ٢٥ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ١٠٦ ،

١١٤ ، ١١٥ ، ٢٢٥ ، ٢٣١ ،

٢٣٨

(١)

ابن أبحر الطيب ١٤

الأبحر المغني ١٣٤

ابراهيم «الخليل» ١٠٩

ابراهيم بن اسماعيل ٥١ ، ٥٣ ،

ابراهيم بن خمارويه ٢١٣

ابراهيم بن رسول الله ١٧

ابراهيم بن عبد الله النجيري ١٠٦ ،

١١٣ ، ١١٤

ابراهيم بن المهدي ٧٩ ، ١٤٢

أثناس بطريق قوص ٢٧

أحمد بن أيمن ١٠٣ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،

أحمد بن جعفر الدينوري ٦٥ ، ٦٦ ،

أحمد بن حنبل ٤٦ ، ٥٧

أحمد بن حوى العذري ١٧٨ ، ١٨٣ ،

١٨٤

أحمد بن خاقان ١٠٣

أحمد بن أبي دؤاد الإيادي ٧٣ ، ١٥٧ ،

أحمد بن صالح ١٥٨

- أخيلئوس تاتيوس ٨
أرجانوس القس ٢٦
ابن اسحق « انظر محمد بن اسحق »
ابن اسحق الأماوي ٧١
اسحق بن ابراهيم ١٠٩
اسحق بن ابراهيم المنجنيق ٢٤٦
اسحق بن بكر بن مضر ٥١
اسحق بن الفرات ٥٠ ، ٥١
اسحق بن كنداج ٢٠٥ ، ٢٠٦
اسحق بن معاذ بن مجاهد ١٦٤
اسحق بن نصير العبادي ١٠٤ ، ١٠٥
أسعد بن سعد ٤٠
اسماعيل بن ابراهيم الخليل ١٧
أبو اسماعيل ابراهيم بن احمد ٢٦١
اسماعيل بن اليسع ٦١
اسماعيل بن عبد الواحد المقدسي ٦٤
اسماعيل بن أبي هاشم ٢١٢ ، ٢١٤ ،
٢٢٢
اشناس ٢٩
أشهب بن عبد العزيز ٤١ ، ٤٣ ،
٤٤ ، ٤٦ ، ٧٢
الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان
٢٤ ، ٣٠ ، ١٢٨
أصبغ بن فرج الفقيه ١٩٧
اصطفن الاسكندراني ١٤
ابن أبي اصبغ ١٤
الأعشى ١٩٩
أفرام « فم الذهب » ٢٧
الأفشين القرطبي « انظر محمد بن موسى
ابن هاشم »
الأكدر بن حمام ١٣٢
المانوس ١٠٦
امرؤ القيس ١٩٩
أبو أمية عبيد بن جحر المغافري ٣٦
انطونيوس القديس ٢٧
أهرن القس ١٠
الأوزاعي ٣٩ ، ٦٠
ايدوشيا ٩
أيمن بن خريم الأزدي ١٢٠ ، ١٢١
(ب)
بتلر ١١ ، ١٣ ، ١٦
بثينة ١٢٧
البخاري ٣٨ ، ٤٧ ، ١٩٦
بدر الجامي ٢١٤
أبو بشر الدولابي ٦٠
بشر بن مروان ١٢١

أبو بشر الأنصاري ١٩٨

بشوا «الأنبا» ٢٧

بكار بن قتيبة ٦٣، ٦٢

أبو بكر بن الحداد ٢٢٤، ٦٤، ٥٣، ٦٤

٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٦

أبو بكر بن صالح ٢٤٣

بكر بن محمد ٥٣

ابن البطريق ١٣

البطين الحمصي ١٧٥

بليطان بطريق الاسكندرية ١٤

بنيامين «القس» ٣٠

بوتشر ٨

بولس الايجي ١٤

بولس «القديس» ٢٦

بولس «أسقف بلا» ٩

البويطي ٧٣، ٥٨، ٥٦

بيبرس ١٧١

(ت)

تكوين ٦٤

أبو تمام ١٣٧، ١٣٨، ١٩٠، ١٩١

١٩٣، ٢٠٠، ٢١٥، ٢١٦

٢٣٨

توري ٧٢

تيودوسيوس الثاني ٩

(ث)

ثعلب ١٠٥، ٦٥

أبو ثور ٦٠، ٥٨

ثيوفيليس ٧

(ج)

الجاحظ ٦٨، ٧٥، ٨٢، ٩٥

جبر بن عبد الله القبطي ١٧

ابن جرير الطبري ٦٩، ٧٠، ٧١

٧٨، ٧٥

جروهمان ٣١

أبو جعفر التل ٦٣

جعفر بن جدار ١٠٤، ٢٢٣، ٢٥٤

٢٥٥، ٢٥٦

جعفر بن ربيعة ٤٢، ٤٥

جعفر بن أبني طالب ٢٢

أبو جعفر الطحاوي ٦٣، ٢٤٦

جعفر بن عبد الغفار المصري ١٠٣

جعفر بن الفضل بن الفرات ٢٤٢

٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧

أبو جعفر محمد بن أحمد بن مودود

٩١، ٩٢، ٩٥، ١٠٤، ١٠٥

أبو جعفر المنصور ٤٠، ٤٧، ١٨٢

أبو الحسن بن محمد بن سلى ٢٥٣
 الحسن بن عمر الاجهرى ١٨٥
 الحسين بن ابراهيم ٢٦١
 الحسين بن جميل ١٤٠ ، ١٦٥
 الحسن بن عبد السلام ٦٤ ، ١٣٦
 ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٦٢ ،
 ١٦٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
 الحسين بن أبى الشوارب ٢٣٩
 الحسين بن محمد المادرائى ٢٤٦
 الحسين بن مهاجر ١٠٣
 الحزين الكنانى ١٢٩
 حطان بن المعلى ٢٠٠
 أبو حفص عمر بن أيوب ٢٥٤
 حفص بن الوليد ١٣٣
 حمدويه الشاعر ٢٠٢
 أبو حنيفه النعمان ٥٢ ، ٥٦ ، ٦٠ ،
 ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣
 حوثره الباهلى ٢١
 حوى بن حوى العذرى ١٥١
 (خ)
 خالد بن سعيد ٣٣
 خالد بن يزيد بن مزيد ١٤٥
 خالد بن يزيد بن معاوية ١٢ ، ١٤ ، ١٥

أبو جعفر النحاس « انظر أحمد بن
 محمد بن اسماعيل »
 جمال الدين القفطى ١٥
 الجمل الأكبر « انظر الحسين بن
 عبد السلام »
 جميل بن معمر ١٢٧
 جناده اللغوى ١٠٦
 جورجى زيدان ١٥ ، ٨٤
 جورجى صبحى بك ٣٣
 جوست ١٩٨ ، ١٩٩
 جيبون ١٦
 (ح)
 الحارث بن زرة ١٤٣
 الحارث بن مسكين ٦٤
 حاطب بن أبى بلتعة ١٧
 الحاكم الفاطمى ١٧٢ ، ٢٢٧
 ابن حجر العسقلانى ٣٣ ، ٦٢ ،
 ١٩٧ ، ٦٤
 حرمله بن يحيى ٥٨
 ابو الحسن الأسدى ١٩٤ ، ٢٢٤
 ابو الحسن الاشعرى ٢٥٠
 ابو الحسن الدارقطنى ٢٤٢
 الحسن بن رافع ١٠٣

ديسقوريدس ٩	خشنام الفقيه ١٥٧
ديك الجن ١٨٥	ابن خزيمه ٦٢
(ذ)	الخصيب ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ✓
ذكا ٢٥٨ ✓	١٨٠، ١٨١، ١٨٧
(ر)	ابن خلدون ٦٢
الربيع بن سليمان الجيزي ٥٤، ٥٦،	ابن خلكان ٤٠، ٤٣، ٤٦، ٥١
٦٩	٦٧، ٧٢
الربيع بن سليمان المرادي ٥٩	خليفه بن المبارك (أبو الأغر) ٢١٤
ربيعه بن ثابت الرقي ١٧٤	الخليل بن احمد ٦٥، ٦٨
رجاء بن أشيم ١٣٣	خمارويه ٨٠، ١٠٤، ١٠٥، ١١٢
أبو رجب العلاء بن عاصم الخولاني	٢٠٦، ٢٠٧، ٢١١، ٢٢٦، ✓
١٥٣	٢٣٣
الرقاشي ١٣٨	خير بن نعيم ٣٣، ٤٥
(ز)	(د)
الزيدي ٦٩	داود (نبي الله) ١٠٩
الزبير بن العوام ١٧	داود بن علي الأصهباني ٥٤
الزجاج ٦٦، ٦٧، ١٠٦	أبو داود السجستاني ٣٨، ٦٢
زرعه بن سعد بن أبي زمزمه ١٣٠	ابن الدايه ٣٣، ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٠
أبو زرعة المؤذن ٦٥، ٦٧	٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٤، ١٠٣، ✓
أبو زرعه محمد بن عثمان الثقفي	١٨٦، ٢٢٤، ٢٢٥
٦٠، ٥٩	دحية الأموي ١٤٧
زهير بن أبي سلمي ١٦٠، ١٩٩	دعبل الخزاعي ١٤١، ١٨٧، ١٨٨
	الدلال المغني ١٧٢

زهير بن قيس البلوى ١٣٠

ابن زولاق ٨٠ ، ١٠٤ ، ٢٣٩

زياد بن أبيه ٢٠

زياد بن حناطه التجيبي ١١٨

زياد بن قائد اللخمى ١٣٢

(س)

سرج الغول ٥٤

سرجيوس ١٠

السرى بن الحكم ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣

١٨٨ ، ١٦٧ ، ١٤٤ ، ١٤٣

ابن سريج المغنى ١٧٢

ابن سعد ٤٣

سعد بن عبد الله بن عبد الحكم ٧٣

سعيد بن أيوب ٤٦

سعيد بن تليد ١٥٤

سعيد بن توفيل ١٤

سعيد بن زياد ١٥٥ ، ١٥٦

سعيد بن عفير ١٧ ، ٣٨ ، ٤٦ ، ٤٧

١٣٦ ، ١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٦

١٦٠ ، ١٦١ ، ١٦٥ ، ١٦٦

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٦٧ ، ١٦٦

١٩٩ ، ١٩٨

سعيد بن فاخر ٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٣٢

سعيد القيومى ٨٤

سعيد القاص ٢٠٧ ، ٢١٤ ، ٢٢٣

سقلاب بن شنينه ٣٦

ابن سكرة الشاعر ٢٣٩

سلام النوى ١٤٠

سلامه الطحاوى ١٤٣ ، ١٤٤

ابو سلمه التجيبي ٧٤

سليم بن عتر التجيبي ٧٠

سليمان بن داود ١٠٩

سليمان بن أبي سهل ١٧٦

سليمان بن غالب ١٤٢

سليمان بن وهب ٢٠٢

السمعانى ٤٥

السموأل بن عاديا ١٦٠

ابن سندر ٢٤

سويرس بن المقفع ١٢ ، ١٣

سيلويه ٦٦

سيلويه المصرى ١٥٩ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥

٢٤٦

سيروس الانخيمى ٨

السيوطى ١٧ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤١

٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ٦٦

١٩٧

(ش)

الشافعي ٤١ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ،

٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ،

٥٩ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ ،

٦٨ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٧ ، ١٣٦ ،

١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٠١ ، ٢٤٦ ،

٢٥٧

أبو شبيب أنيس بن دارم ١٥٤

ابن شعوه ٢٠٢

شنوده (القديس) ٣١

(س)

صاعد بن مخلد ٢٠٦

صالح بن رشدين ٢٤٦

صالح بن أبي صالح ٥٤

صالح بن علي ١٣٥

صالح بن موسى ٢٣٧

صالح بن مؤنس ٢٣٩ ، ٢٥٣

ابن صليح ١٥٩

(ط)

ابن طباطبا ٢٢٤ ، ٢٣٥ ، ٢٦٠ ،

٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٦٣

طبطب المحرر ٩٢

الطرماح بن حكيم ٩٢

طه حسين بك ٩٤ ، ٢٤٧ ،

(ع)

عابد بن هشام الأزدي ١١٩

عائذ بن ثعلبه البلوي ١١٨

العباس بن احمد بن طولون ٩٥ ،

١٠٤ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥

العباس بن البصري ٢٢٧ ، ٢٢٨ ،

٢٢٩ ، ٢٣١

العباس بن خالد البرمكي ١٠٣

أبو العباس بن عمار ١٩٤

العباس بن موسى ١٨٩

أبو العباس بن محمد الناشيء الأكبر

٦٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ،

عبد الحكم بن عبد الله بن عبد الحكم

٤١ ، ٧٣ ، ٧٤

عبد الحميد الكاتب ٥٥

عبد الحميد بن الوليد المصري ١٣٦

ابن عبد ربه ٨٩

عبد الرحمن بن الحكم ١٣١

عبد الرحمن بن جحدم ١٢٩

عبد الرحمن بن خالد الفهمي ٤٥

عبد الرحمن بن عبد الحكيم ٣٨ ،

٤٢ ، ٤٣ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ،

٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧

عبد الرحمن العمرى ١٤٩ ، ١٥٠

١٥١ ، ١٥٢ ، ١٦٣ ، ١٧٢

عبد الرحمن بن القاسم ٤٣ ، ٤٤

عبد الرحمن بن قيسية ١١٨ ، ١١٩

ابن عبد كان « انظر أبو جعفر محمد

ابن أحمد بن مودود »

عبد الرحمن بن معاوية بن حديج

١٨١

عبد الصمد بن عبد الرحمن بن القاسم

٣٧

عبد العزيز بن الجروى ٢١ ، ٧٣ ،

٧٤ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤

عبد العزيز بن عبد الرحمن الأزدي

١٤٣

عبد العزيز بن مروان ٣٠ ، ١٢٠ ،

١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ،

١٣٠

عبد الله بن بجيره ١٤٩

عبد الله بن أبي جعفر ٤٢

عبد الله بن الحبحاب ٢١

عبد الله بن الحجاج ١٢٤ ، ١٢٥

أبو عبد الله الحسن بن محمد الزعفرانى

٥٩

أبو عبد الله الرباحى الأندلسى ٦٦

عبد الله بن أبي سرح ٧٦

عبد الله بن صالح ٣٨ ، ٤٧

عبد الله بن طاهر ١٧٤ ، ١٧٥

١٩١ ، ١٩٦ ، ١٩٧ ، ٢٠٠ ،

٢٠١

عبد الله بن عبد الحكيم ٤٣ ، ٥١ ،

٧٢ ، ٧٤

عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية

١٨٢

عبد الله بن عبد الملك بن مروان ٢٩ ،

١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١

عبد الله بن عمر ٤٥

عبد الله بن عمرو بن العاص ١٧ ،

٣٧ ، ٣٨

عبد الله بن لهيعة ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ،

٤٣ ، ٦٨ ، ١٩٦

عبد الله بن المبارك ٤٦

عبد الله بن محمد بن أبي الجوع ٢٣٣،

٢٣٩، ٢٤٦

عبد الله بن محمد ١٧٧، ١٨٢

عبد الله بن محمد بن الخصيب ٢٥٢

أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي

٧٥

عبد الله بن هشام ٦٧، ٦٨، ٧٠،

١٨٩

عبد الله بن الوليد ٥٣

الدكتور عبد الوهاب عزام ٢٤٧

عبد الله بن وهب ٣٨، ٣٩، ٤٠،

٤١، ٤٣، ٤٦، ٥١، ٦٨، ١٣٦

عبد الله بن يونس التتبيسي ٤٧

عبد الملك بن مروان ١٢٠، ١٢٤

عبد الواحد بن عبد الرحمن بن معاوية

١٣١

ابن عبدون الاندلسي ٢٢١

ابن العبري ٢٥

أبو عبيد الله أحمد بن صالح ٨١

عبيد الله بن السري ١٤٤، ١٤٥،

١٤٦، ١٤٧، ١٩١، ٢٠٠

أبو عبيده علي بن الحسين حربوية

٦٠، ٦١

عثمان بن الحكيم الجذامي ٤٤

أبو عثمان السكري ١٤٠

عثمان بن سعيد المعروف بورش

٣٦، ٣٧

عثمان بن سويد الأخميمي ١٥

عثمان بن صالح ٧٤

عثمان بن عفان ٢٠

الريان البصري ١٩٥

عزة ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧

عز الدين أيبك التركماني ٢٣

علقمة القطيفي ٢٠

علي بن أحمد المادرائي ١٠٤، ١٠٥

علي بن سراج المصري ٦٩

علي بن سليمان ١٧٢

علي بن عبد العزيز الجروي ١٤٤،

١٤٥، ١٤٦، ١٤٧

علي بن عبيد الله بن وصيف الناشء

الأصغر ٢٥٠

ابن عليه (أنظر إبراهيم بن اسماعيل)

ابن أبي عمران الحنفي ٦٠

إمران بن عبد الرحمن ١٣٠، ١٣١

أبو عمران موسى بن رباح ١٥٩

فتيان ٥٢

✓ أبو الفرج الأصفهاني ٣٠١

الفرزدق ١٢٨ ، ٢٣٩

الفضل بن صالح ١٧٣

الفضل بن العباس ١١٣

الفضيل بن عياض ٤٤

أبو الفيض سوار بن شراعه ٨١ ، ٢٥٣

فيلون ٧

(ق)

أبو القاسم أحمد بن محمد (انظر : ابن

طباطبا)

القاسم بن حميش ٧٤

أبو القاسم الطبراني ٦٨

أبو القاسم بن أبي العفير ٢٤٣

القاسم بن يحيى المري ٢٠٦ ، ٢٠٧

أبو قبان بن نعيم بن بدر ١١٩

قتادة ٤٥

ابن قتيبة ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٥

قتيبة بن سعد ٤٧

ابن قديد ٧٤

قرة بن شريك ١٣٢ ، ١٣٤

قزمان ١٦

ابن القطاس (أنظر سعيد بن زياد)

عمر بن الخطاب ١٦ ، ١٩ ، ٢٣ ،

٢٤ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩

عمر بن عبد العزيز ١٠ ، ١٤ ، ٤٢

أبو عمر محمد بن يوسف الكندي

٢٩ ، ٣٣ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٥٢ ،

٦٤ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٧

عمرو بن العاص ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ،

١٩ ، ٢٠ ، ٢٤ ، ٧٦ ، ٨٧ ،

٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ١١٩

أبو عمرو عثمان النابلسي ٢٠٤

عمرو بن قحزم ١١٨

عمار بن وسيمه المصري ٧٧

✓ ابن العميد ٢٤٣

عمير بن الوليد ١٦٧ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،

عنيسة بن اسحق الضبي ١٦٤

أبو عوانة ٦٢

عيسى بن أبان ٥٤ ، ٦٢

عيسى بن حكم ٧٩

عيسى بن شافع ١٣٣

عيسى بن المنكدر ٥٢

عيسى النوشري ٢١٣

« ف »

✓ الفارابي ٧٥

الليث بن سعيد ٤٢، ٤٣، ٤٤،

٤٥، ٤٦، ٤٧، ٤٨، ٥٠، ٥١،

١٩٦، ١٣٦، ٧٧، ٧٤، ٦١، ٥٤

ليث بن فضل ١٤٩

« م »

مارية القبطية ١٧

المازني ٦٦

ماسرجويه ١٠

مالك بن أنس ٣٩، ٤٠، ٤٤، ٤٦،

٤٧، ٥٠، ٥١، ٦٤، ٧٢، ١٩٦،

المأمون ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٣،

١٥٤، ١٥٦، ١٧٤، ١٩٦،

٢٠١

مانى الموسوس (أنظر محمد بن القاسم)

المبرد ٦٥، ٦٦، ٧٥، ١٠٥،

المتنبي ١٧٩، ٢٣٣، ٢٤٢، ٢٤٣،

٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٧،

٢٥٠

المتوكل العباسي ٢٢، ٧٣،

محمد (رسول الله) ١٧، ١٨، ٣٨،

٤٣، ٥٤، ٥٥، ٥٧، ٦١،

٧٦، ٧٧، ٩٦،

محمد بن أحمد بن الربيع الاسواني ٢٢٤

قعدان بن عمرو ٢٠٤

القلقشندي ٩١، ٩٢،

القنبي ٦٥

قيس بن سلمه ١١٧، ١١٨،

قيس بن كليب ١١٨

ابن قيم الجوزية ٤٨

(ك)

كاترمير ٢٧

كافور الاخشيدي ١١٣، ١٧٩،

١٨٠، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٠،

٢٥٢

كامل الهنائي ١٦٦

ابن كثير ١٧

كشير عزة ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧،

كريب بن أبرهه ١١٨، ١٣٢،

كشاجم ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٣،

كنانة بن خزيمه ٢٣

السكندی (أنظر أبو عمر محمد بن

يوسف)

كنيز المغني ٢٢٥

« ل »

لهيعه بن عيسى الحضرمي ٤١، ١٥٠،

١٥٤، ١٥٥،

محمد بن علي الخليلجي ٢١٣ ، ٢١٤ ،

٢١٧

محمد بن علي الفقيه ٢٥

محمد بن عمرو بن الوليد ١٢٨

محمد فريد ابو حديد ١٦

محمد بن القاسم ١٩٤ ، ١٩٥ ،

محمد بن كلا ١١٤

محمد بن ابي الليث ٦٤ ، ٧٠ ، ١٥٥ ،

١٥٧ ، ١٦٢ ، ٢٠١

محمد بن موسى : انظر سيبويه المصري

محمد بن موسى بن هاشم ٦٦

محمد بن موسى الواسطي ٦٨

محمد بن ولاد التيمي ٦٥

مرسل بن حمير ١٣٣

مروان بن ابي حفصة ١٦٢ ، ١٩٩ ،

مروان بن الحكم ١٢٩ ، ١٣٠ ،

١٣٢

مروان بن محمد ٢١ ، ١٣٣ ، ١٣٥ ،

مزاحم بن خاقان ٧٩

المزني ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٧٣ ،

المسعودي ٣٢ ، ٧٠ ، ٧٨ ،

مسلم بن الوليد ١٣٧ ، ١٣٨ ، ٢٣٨ ،

مسلمة بن مخلد ١١٩

المسهر التيمي ١٧٥

محمد بن أحمد بن علي المهلب ٦٥ ، ٦٩ ،

١٠٦

محمد بن اسحق ٣٩ ، ٦٣ ، ٧٠ ،

محمد بن اسحق بن أسباط الكندي ٦٧

محمد بن ابي بكر ١٨١ ، ١٨٢ ،

محمد بن حسان ٦٧

محمد بن الحسن بن زكريا ٢٣٨

محمد بن الحسن الشيباني ٥٣ ، ٥٦ ،

محمد بن ابي حذيفة ١٨١

محمد بن ابي داود ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣٩ ،

محمد بن رائق ١١٤

محمد بن الربيع الجيزي ٢٥٨

محمد بن زيد بن يضحويه ٦٨

محمد بن سالم القطان ١٥٨

محمد بن سليمان ٨١ ، ٢١٥ ، ٢١٦ ،

محمد بن سهل المنتوف ١٠٤

محمد بن طشويه ٢٢١

محمد بن عاصم ٢٢٥

محمد بن عبد الله بن ظاهر ١٩٤

محمد بن عبد الله بن عبد الحكم ٤٤ ،

٥١ ، ٥٧ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ١٥٧ ،

١٩٦

محمد بن عبد الله بن محمد بن مسلم ٦٧

المطلى (انظر محمد بن عبد الله بن محمد	المسيح ١٠٩
ابن مسلم)	ابو المصعب البلوى (انظر قيس
المنذر بن عابس ١٤٠	ابن سلمة)
منصف بن خايقة الهذلى ٢٠٥	المطلب بن عبد الله الخزاعى ١٤١ ،
منصور الفقيه ٢٢٤ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٦	١٦٠ ، ١٨٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠
٢٥٩	المظفر بن أحمد ٦٩
المهدى العباسى ١٤٧	معاوية بن حديج ٣٣ ، ١٨١
المهلب بن أبى صفرة ٦٩	معاوية بن أبى سفيان ٢٠
المهلبى (انظر محمد بن أحمد بن على)	معاوية بن صرد الباهلى ١٦٦
مهمل بن يموت ٢٣٨	المعتز العباسى ٢٥٨
موسى (نبي الله) ١٠٩	المعتصم العباسى ٧٩ ، ١٥٣ ، ١٥٦ ،
موسى بن طولون ١٠٣	٢١٦
موسى بن مصعب ١٣٩ ، ١٤٠	المعلى الطائى ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ،
الموفق العباسى ٦٣ ، ٢٠٤	١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٥٢ ، ١٦١ ،
ابو ميسرة عبد الرحمن بن ميسرة ٣٦	١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،
ميمون بن السرى بن الحكم ١٤٢ ،	٢٠١
١٤٣	معن بن زائدة ١٦٢
(ن)	المغنم المصرى : انظر ابا الحسن محمد
الناشى. الاكبر (انظر أبو العباس	ابن سلبى
ابن محمد)	المفضل بن فضاله ١٦٤ ، ١٦٥
الناشى. الاصغر (انظر على بن عبد الله	المقرئى ٣٢ ، ٧٥ ، ٢٢٧
ابن وصيف)	المقوقس ١٧ ، ٧٦
نافع ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٥	الملاس الحضرمى ٣٦

هيرة بن هاشم ١٦٠، ١٦٧، ١٦٨،

١٩٨

هرون الرشيد ١٤، ٥٥، ١٣٥،

١٤٠، ١٥١

هرون بن سعيد الابل ١٥٧

أبو هريرة ابن أبي العصام ٢٢٥،

٢٢٧، ٢٣٢

هشام بن عبد الملك ٢١، ١٣٥

هشام بن عروة ٤٥

هلال بن يحيى ٦٢

هوميروس ٨

« و »

الواثق العباسى ٧٣، ١٥٧

الواقدي ٧٠، ٧١

ورش (انظر عثمان بن سعيد)

ابن الوزير التجيبي ١٣٦

وصف (جارية المعلى) ١٦٩

ولاد (انظر الوليد بن محمد التميمي)

بنو ولاد ٦٥

الوليد بن رفاعه ٢٠

الوليد بن عبد الملك ٢٩، ١٣٠، ١٣٢

١٨١،

الوليد بن محمد التميمي ٦٥

أبو نجاد الحارثي ١٤٣

أبو الندى البلوى ١٤٠، ١٦٣، ١٦٤

ابن النديم ١٢، ١٤٠

النسائي ٦٠، ١٩٦، ٢٤٦

نصر بن عبد الله كيدر ١٥٦

نصر بن معاوية ٢٣

نصيب بن رباح ١٢٠، ١٢١، ١٢٢

١٢٣، ١٢٤

النصر بن أمية الحمصي ١٧٦

أبو النصر هاشم بن القاسم ٤٦

نعم (ام ولد دحية) ١٤٧

ذو النون المصري ١٥، ١٥٨

أبو نواس ١٣٨، ١٧٥، ١٧٦

١٧٧، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠

١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤

١٨٥، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٠، ٢٢٥

« ه »

هاجر ١٧

الهادي العباسي ١٤٧

هاشم بن أبي بكر البكري ١٤٩،

١٥٢، ١٥٣

هاشم بن حديج ١٧٨، ١٨١، ١٨٢

١٨٣، ١٨٤

الوليد بن يزيد ١٣٤

(ى)

اليازورى ٢٣

ياقوت ٥٢ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٠٤

يحيى بن بكير ٣٨ ، ٧٤

يحيى بن يحيى التميمى ٣٨

يحيى الخولانى ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١

١٥٣ ، ١٦٣ ، ١٧٣

يحيى بن الفضيل ١٦٤

يحيى بن معاذ ١٤٠

يربوع الفزارى ٢٩

يزيد بن حاتم ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥

يزيد بن أبى حبيب ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٥

يزيد بن شر حميل ١١٨

يزيد بن مقسم الصدقى ١٥٠

يعقوب (نبي الله) ١٠٩

أبو يعقوب الأزرق ٣٧

يعقوب بن اسحق ١٠٣

يعقوب الرهاوى ١٣

يموت بن المزرع ٦٨

يوحنا النيقوسى ١١ ، ٣٠

يوسف (الصديق) ١٠٩

يوسف بن ابراهيم ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٤

يوسف بن أبى طيبة ١٥٨

ابن يونس المؤرخ (انظر أحمد بن

يونس)

يونس بن عبد الأعلى الصدقى ٥٧

يونس بن محمد المؤدب ٤٦

فهرس الموضوعات

صحيفة

مقدمة ٣

الباب الأول : تطور الآداب واللغة في مصر

٦		الآداب بمصر قبيل الفتح الإسلامي
١٦		قبائل العرب بمصر
٢٦		الصراع بين اللغات : اليونانية ، القبطية ، العربية

الباب الثاني : في الحياة العقلية

٣٥		١ — المدارس الدينية
٣٧		الحديث
٣٨		عبد الله بن وهب والمدرسة المالكية
٤٥		الليث بن سعد
٥١		المدرسة الشافعية
٦١		المدرسة الحنفية
		٢ — اللغة والتاريخ
٦٥		النحاة واللغويون
٧٠		المؤرخون
٧١		كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم
٧٧		ابن الداية وكتاب المكافأة

الباب الثالث : كتاب الرسائل والنساء

صحيفة

- ٢ — قبل عهد الطولونيين ٨٦
- الشك في خطاب عمرو في وصف مصر . . . ٨٩
- ٣ — ديوان الانشاء في العصر الطولوني والاشيدي . ٩١
- ابن عبد كان . خطابه إلى العباس بن أحمد . . ٩١
- تنوع موضوعات الرسائل في مصر . . . ١٠١
- بعض كتاب الطولونيين ١٠٣
- النجيرمي كاتب الاشديد . صورة خطابه إلى ملك الروم ١٠٦
- ابن كلا كاتب الاشديد ١١٤

الباب الرابع : في السمر

- ١ — من الفتح الاسلامي إلى سقوط الدولة الأموية . ١١٦
- الشعراء الوافدون ١٢٠
- أيمن بن خريم ١٢٠
- نصيب بن رباح ١٢١
- عبد الله بن الحجاج ١٢٤
- كثير عزة ١٢٥
- جميل بن معمر ١٢٧
- عميد الله بن قيس الرقيات ١٢٧
- الحزين السكنافي ١٢٩

صحيفة

- الشعر المصرى فى فتنة الزبير ١٢٩
- ٢ — من قيام العباسيين إلى دخول ابن طولون ١٣٥
- أثر الفتن فى الشعر ١٣٩
- فتنة العصية العربية ١٤٨
- الفتن بين العرب والمصريين ١٥٠
- أثر محنة خلق القرآن ١٥٦
- بعض أغراض الشعر المصرى ١٥٩
- الشعراء الوافدون ١٧٣
- ربيعة بن ثابت الرقى ١٧٤
- ابن المولى ١٧٥
- أبو نواس فى مصر ، مدحه للخصيب ثم هجاؤه له
- علاقته ببني حديج ، صلته بالمصريين ١٧٥
- دعبل الخزاعى ١٨٧
- شعراء مصريون راحلون ١٩٠
- أبو تمام
- مانى الموسوس ١٩٤
- لمحة عن أشهر الشعراء فى ذلك العصر
- سعيد بن عفير ١٩٦
- المعلى الطائى ١٩٩
- الجل الأکبر ٢٠١

صحيفة

٢٠٣	.	.	.	٣ — الشعر في عهد الطولونيين والأخشيديين
٢٠٤	.	.	.	التكسب بالشعر
٢٠٢	.	.	.	رثاء الدور
٢٢٥	.	.	.	أثر اللهو في الشعر
٢٣٥	.	.	.	الطبيعة في الشعر المصري
٢٣٨	.	.	.	أغراض أخرى للشعر
٢٤١	.	.	.	الشعراء الوافدون
٢٤٢	.	.	.	المتنبى في مصر
٢٤٧	.	.	.	الناشئان
٢٥٠	.	.	.	كشاجم
٢٥٣	.	.	.	أبو الفيض سوار بن شراعة
٢٥٤	.	.	.	لمحة عن أشهر شعراء ذلك العصر
٢٥٤	.	.	.	ابن جدار
٢٥٧	.	.	.	منصور الفقيه
٢٦٠	.	.	.	ابن طباطبا
٢٦٤	.	.	.	خاتمة

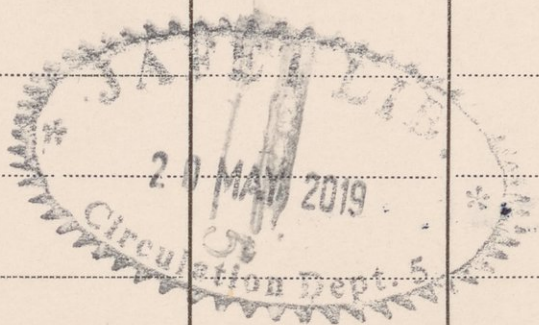
أخطاء مطبعية

وقعت أثناء الطبع بعض أخطاء مطبعية نأسف أشد الأسف لوجودها ونرجو
التفضل بتصحيحها .

ص	س	خطأ	صواب
٧	١٠	لمزج	المزج
١٦	٢٠	Conquest a.	Conquest of
٥٤	١٦	عيس بن	عيسى ابن
٥٧	١٣	لابن الزايت	لابن الزيات
٥٨	١٣	بو يعقوب	أبو يعقوب
٦٢	١٢	انساع	اتساع
	١٦	وسالاه	وسألاه
٧٦	٩	المبالغت	المبالغات
٨٤	١٠	إلقدر	بالقدر
٩٨	٤	والع ات	والعدات
١٥١	٦	تحرش	تحرش
١٧٧	٢١	أبي نواس	أبي نواس
	٢٢	المقریزی	المقریزی
١٧٩	٣	جدر	جدیر
١٩٢	١١	خراسان	خراسان
٢٥٧	٦	وحا	وجا

41
50
—
91

DATE DUE



حسين، محمد حامد
في الادب المصري الاسلامي من الفتح
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033464

A.U.B. LIBRARY



